المجلس الأعلى للثقافة

حوار حول

ابن رشد

المحرر:

مراد وهبة

حـــــوار حـــول ابن رشـــــد

المحرر : مـــراد وهبـــه

الناشر : المجلس الأعلى للثقــافة

تصميم الغلاف : سـعيد المسـيرى

حـوار
حــول
ابن رشــد

مقدمة

هذا الكتاب هو جملة أبحاث مصحوبة بحوار ، وهو ثمرة ندوة فلسفية عقدتها لجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة فى ٤ ــ ٥ مايو ١٩٩٤ احتفاء بكتاب تذكارى عن « ابن رشد » كان قد نشره المجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٩٣ .

وقد دار الحوار على أبحاث هذا الكتاب التذكارى وعلى الأبحاث المقدمة الى الندوة فجاء مخصبا للفكر الفلسفى ودافعا لاعادة النظر فى المفاهيم الفلسفية السائدة من أجل تأسيس تيار تنويرى يسهم فى مجاوزة واقع قائم غير مرغوب الى واقع قادم منشود .

١٩٩٤/١٢/٥

مراد وهبه

كلمات الافتتاح

كلمة

مراد وهبه

الأساتذة الزملاء

هذه هى الندوة الأولى التى تعقدها لجنة الفلسفة والاجتماع بعد تشكيلها الجديد ٠ واعتقد أنها الندوة الأولى أيضا التى تنعقد لتقييم كتاب صادر عن هذه اللجنة منذ انشائها ٠ وهذا الكتاب هو كتاب « ابن رشد مفكرا عربيا ورائدا للاتجاه العقلى » والذى أشرف على اصداره عاطف العراقى ٠

وعندما فوضت للاشراف على تنظيم هذه الندوة أعددت ورقة عمل وعرضتها على زملائى الأساتذة أعضاء لجنة الفلسفة والاجتماع فحازت الموافقة ٠ وفى هذه الورقة أثرت اشكاليتين هما على النحو الآتى :

الاشكالية الأولى تدور على ما يبدو أنه تناقض بين ماهو عربى وماهو اسلامى ٠ فعنوان الكتاب ينعت ابن رشد بأنه مفكر عربى ، ولقب المشرف على اصدار الكتاب « أستاذ الفلسفة العربية » ، أما أبحاث الكتاب فانها تتناول ابن رشد كفيلسوف اسلامى أو على الأقل كفيلسوف عربى اسلامى ٠

والاشكالية الثانية تدور على وصف ابن رشد بأنه « رائد الاتجاه العقلى » على نحو ما هو راد فى عنوان الكتاب ٠

وبين من هاتين الاشكاليتين أن الابحاث ، التى ستدور عليها من قبل نخبة من أساتذة الفلسفة فى مصر ، لن تخل من نقد موجه للرؤية الفلسفية للمشرف على اصدار الكتاب ، ومن نقد موجه للرؤى الفلسفية للأساتذة المشاركين فى تحرير هذا الكتاب ٠

(*) مقرر الندوة ٠

وهذا النوع من النقد هام للغاية :

هو هام لأنه احياء لتراث فلسفى نعتز به وهو الحوار الفلسفى ٠

ثم هو هام لأنه يحدث تفاعلا بين النخبة والجمهور ٠ وقد أسهمت وسائل الاعلام الجماهيرية فى احداث هذا التفاعل وذلك بفضل اهتمامها بالاعلان عن هذه الندوة ٠

ثم هو هام لأنه يتم فى وقت تطالب فيه القيادة السياسية باجراء حوار وطنى من أجل تحديد رؤية مستقبلية لمسارنا الحضارى ٠

وأيا كان الأمر فان هذه الندوة تنعقد فى وقت نواجه فيه تيارا لا عقلانيا يريد المحافظة على جرثومة التخلف ٠ وفى تقديرى أن فلسفة ابن رشد هى المضاد الحيوى للتخلص من هذه الجرثومة ٠

وثمة اشارة جديرة بالتنويه ٠ بالأمس فى جريدة الأهرام نشر مقال بقلم السفير السابق لدى الولايات المتحدة عبد الرؤوف الريدى ، وعنوانه « لقاء مع نيكسون وحديث عن الاسلام » ٠ تم اللقاء فى عام ١٩٨٧ وتحدث فيه نيكسون عن فضل الاسلام والحضارة الاسلامية على الحضارة الأوربية ، وأشار الى فيلسوف مسلم على وجه خاص وحاول أن يتذكر اسمه ولكنه لم يستطيع أن يتذكره ٠ وأعرب على أن هذا الفيلسوف الاسلامى كان له دور كبير فى التأثير على المفكرين الأوربيين الذين مهدوا لعصر النهضة الأوربية ، وانتهى اللقاء ٠ وبعد فترة أرسل نيكسون الى السفير خطابا يقول له فيه عن اسهام الحضارة الاسلامية فى بناء الحضارة الغربية ٠ ثم ذكر أن الفيلسوف الاسلامى الذى تحدث معه عنه أثناء زيارته له ولم يتذكر الاسم هو « ابن رشد » ٠

كلمــة

أحمـــــد أبو زيــد

الأساتذة الأفاضل والسيدات والسادة الزملاء

حين قررت لجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة عقـد هذه الندوة لمناقشة كتاب « ابن رشد مفكرا عـــربيا ورائدا للاتجـــاه العقلى» ، كانت ترمى الى وضع تقليد جديد فى مجال نشاطها يقوم على عرض كل ما يصدر عنها من أعمال ومؤلفات على جمـــع من الأساتذة المتخصصين لمناقشة ما ورد فى ذلك العمل من آراء وأفكار ، وما اتبع فيه من مناهج وأساليب البحث ، وما توصل اليه من نتائج . واعتبرنا ذلك خطوة مكملة لنشاط اللجنة ووسيلة للتعريف ببعض ما تقوم به من جهود فى مجالات الفكر الفلسفى والاجتماعى ، كما اعتبرناه أيضـــا اعترافا واعتزازا بذلك العمل واعزازا واكبار واحتراما للأساتذة الأفاضل الذين شاركوا فيه وتنويها بالجهود المضنية التى بذلوها . وقد تكون هذه الندوة أمرا جديدا فى نشاط اللجنة ، ولكن لها مع ذلك سوابق فى مصر وغير مصر . وربما كان أقرب مثال الينا مع بعض الفـــارق هو الندوة السنوية التى تعقد بجامعة القاهرة لعرض ومناقشة التقرير الاستراتيجى العربى الذى يصدر سنويا عن مركز الدراســات السياسية والاستراتيجية لجريدة لأهرام ويشارك فيها نخبة من كبـــار المتخصصين فى المجالات المختلفة التى يتعرض لها ذلك التقرير . وتترك تلك الندوة عادة اصداء واسعة ، نرجو أن تجد ندوتنا هـــــذه مثيلا لهـــا بين أوساط المثقفين والمفكرين .

واذا كنا نبدأ هنـــا بكتاب « ابن رشـــد » فان ذلك انما يرجع الى أنه أحدث ما صدر عن لجنة الفلسفة والاجتماع من مؤلفات ، ثم قبل كل شىء وفوق كل شىء – للوضع الخاص المتميز الذى يشغله ابن رشـد

(*) مقرر لجنة الفلسفة والاجتماع .

أستاذ ورئيس قسم الانثروبولوجيا بآداب الاسكندرية (سابقا) .

فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ليس فقط باعتباره الشارح الأكبر لفلسفة أرسطو ولكن أيضا ، وهذا هو الأهم ، لأنه يحتـــل موقعا خاصا ورائدا يقوم على اعلاء شأن العقل والتفكير العقلانى واعتبار العقل هو الأساس الذى تقوم عليه الحياة الفكرية والسياسية ، ثم رغبته بالتالى فى الفصل بين التفكير العقلى المتمثل فى الفلسفة والعلم وبين التفكير الدينى . وهذا الموقف الذى ارتبط به ابن رشد منذ ثمانية قرون خليق بأن نتدبره فى ظروفنا وأوضاعنا الفكرية والثقافية والسياسية الراهنة،وان نكشف عن المبادىء العقلية ومناهج التفكير التى كانت وراء تلك الحياة وذلك الفكر.

فاعمال ابن رشد تحتاجاذنالىقراءتها قراءة ثانية ودراستها منهذه الزاوية ومن هذا المنطلق ، خاصة وأن الفترة الزمنية التى عاصرها كانت فترة حرجة بالنسبة للحضارة الاســلامية فى الأندلس ، اذ كانت بمثابة بداية لانهيار تلك الحضارة . فاذا كان مجتمع الأندلس يتميز حينذاك بالتنوع والتعدد وبخاصة تعدد الجماعات العرقية بثقافاتها المتباينة ، واذا كان ذلك التنوع مصدر قوة وخلق وابتكار فانه كان يحمل بين ثناياه . فى الوقت ذاته ، عوامل الضعف والوهن التى أدت الى تدهـــور تلك الحضارة واضمحلالها ثم اندثارها فيما بعد ، فتعدد الجماعات العرقية، وفشل بعضها في تقبل الاسلام كدين ورفض البعض الآخر تقبله كأسلوب للحياة ، وشعور البعض الآخر بالاستعلاء على العـــرب كما هو الحال بالنسبة للبربر والصقالبة . كل ذلك أدى الى انخراط بعض هذه الجماعات في الفتن والصراعات والاضطرابات التى أدت فى آخر الأمر الى ضعف الدولة ، وظهر ذلك جليا في عهد ملوك الطوائف الذى يمثل عهدا من أزهى عهود الاسلام فى أسبانيا رغم التفكك السياسى .

والندوة التي تعقدها لجنة الفلسفة والاجتماع فى هـذين اليومين يرجع الفضل فى اقامتها في المحل الأول الى تحمس وجهود مراد وهبه مقرر الندوة . فقد اعطى الكثير من وقته وتفكيره وجهـــده لاعدادها واخراجها الى حيز التنفيذ .

وكان وراء ذلك كله بغيـر شك تشـــجيع الأمين العـــام للمجلس

الأعلى للثقافة جابر عصفور الذى تشهد لجان المجلس فى عهد أمانته حركة دائبة ووثبة كبيرة وموفقة باذن الله .

وكان لتعاون الأساتذة أعضاء اللجنة وسكرتيرتها وغيرتهم جميعا أثر واضح فى الاعداد لها فى وقت قصير . فلهم جميعا وافر الشكر .

وليس من شك فى أن الجانب الأكبر من الفضل بل الشكر والامتنان يجب أن يذهب الى الأساتذة الأفاضل الذين أسهموا فى تأليف الكتاب ، ولعاطف العراقى الذى أشرف عليه . فلولا جهودهم الصادقة المخلصة لما كان الكتاب ولما كانت هذه الندوة .

ثم الشكر والتحية لكم جميعا حيث سوف تسهم مناقشاتكم وآراؤكم فى تحقيق أهداف الندوة وفى اثراء معرفتنا بابن رشد وعصره وفكره ومنهجه وحركة التنوير التى قادها . وسوف يساعد هذا كله بغير شك فى توضيح المسار الفكرى السليم الذى يجب أن تسير فيه الأمور . وفقنا الله جميعا لما فيه الخير .

كلمة

جابر عصفور

أساتذتى الكرام ، الزميلات والزملاء ..

حرصت على ألا أقدم كلمة مكتوبة ذلك لأن الكتابة أحيانا تقيد العفوية .وأحسب أن معنى كريما من معانى هذه العفوية هو الحيوية التى تتوثب فى لجان المجلس الأعلى للثقافة ، وتتحول الى فعل خلاق، وحركة نشطة . ومن هنا أثرت أن أتحدث شفاهة مع تقديرى لما للكتابة من قواعد وانضباط عقلى . وأبدأ بأن أنقل اليكم تحية السيد وزير الثقافة ورئيس المجلس الأعلى للثقافة ، وتقديره للجهد الذى تبذله هذه اللجنة التى تسهم مع بقية لجان المجلس فى تاكيد معنى الاستنارة ومعنى العقل فى زمن يهاجم فيه دعاة الظلام العقل ويحاولون اغتياله ، وآية ذلك ما نراه ونسمع عنه من محاولات للقضاء على الاستنارة . والواقع أننا عندما نلتقى لمناقشة هذا الكتاب عن «ابن رشد» فانما نلتقى للاحتفاء بالمعانى التى ينطوى عليها فكر هذا الفيلسوف ، والمعانى التى ينطوى عليها انجازه الذى خلفه للبشرية كلها ، والذى أسهم بشكل أو بآخر ، وبأكثر من معنى، فى تقدم البشرية . وأنا لا أريد أن أتحدث عن ابن رشد بين المتخصصين فى الفلسفة لأن حالى سوف يكون أقرب الى حال من يحمل التمر الى هجر ، أو من يبيع الفحم فى نيوكاسل . ولكن ابن رشد ليس ملكا للفلاسفة وحدهم ، فالرجل بموسوعيته الفذة الهائلة يضم اليه الكثير من المريدين ويحيط بالكثير من العلوم . وليس مصادفة والأمر كذلك أن « ابن رشد » هو الذى شرح كتابى الشعر والخطابة لأرسطو ، واذا كان النص العربى لشرحه لكتاب الجمهورية لأفلاطون قد ضاع فلحسن الحظ هناك ترجمة عبرية لهذا الشرح ، ومترجمة باللغة الانجليزية ومتاحة . والغريب أننى عندما أقرأ فى كتابات ابن رشد المرتبطة بالأدب تقودنى هذه الكتابات الى الفلسفة.

(*) امين عام المجلس الاعلى للثقافة .

وكلما قرأت كتابات الفلسفة التي تركها ابن رشد تقودنى هذه الكتابات الى الأدب . واسمحوا لى أن أذكر مثالا واضـــحا من شرحه الذى ضاع نصفه العربى لكتاب الجمهورية وليس بين أيدينا سوى الترجمة العبرية والترجمة الانجليزية للترجمة العبرية . أخذ الرجل يشرح أفكار أفلاطون فى الجمهورية ، ولكنه ينتقـــل منها الى واقعه العـــربى فى عصره ؛ ويمزج بين الفلسفة وادب ، وينظر الى الادب بوصـــفه نشاطا انسانيا تتناوله الفلسفة . ويتحدث ابن رشد ، فى شـــرحه لكتاب الجمهوريه ، حديثا رائعا عن الطغيان ،وكيف ان الطغيان فى عصره هو الذي يحارب العقل . ولقد توقفت عند هذه الكلمات التي ذكرها الرجل عن الطغيان ، والتى ردت اليه اسباب قمع العقل . واخذت أتامل صور الطغيان التى يشير اليها الرجل فى عصره والتى اظن اننا يمكن ان نشير اليها فى عصرنا ، اعنى اشكال الطغيان المتعددة التى تقضى على حركة العقل ، فتقضى على حركة الاجتهاد ، ومن ثم على معنى الانسان ، ذلك لانه من المؤكد ان العقل هو المعنى الواحد الوحيد للانسان عند ابن رشد . وبقدر ما اكد ابن رشد معنى العقل وقيمته اكد معنى الانسانية وقيمتها بوصفها القيمة الملازمة لقيمه العقل . ولن اكون متطفلا لو ذكـــرت الكثير منكم بما يذكرونه بالفعل من عبارات ابن رشد الجميلة التى افتتح بها كتابه «فصل المقال» فى تقريبه ما بين الشريعة والحكمة او تاكيده مابينهما من اتصال ، أعني العبـــارات التى تقول : « يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسببه بما قاله من تقدمنا فى ذلك . وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنـــا أو غير مشارك فى الملة ، فان الآلة التى تصح بها التزكية ليس يعتبر فى صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا فى الملة أو غير مشارك ، اذا كانت فيها شروط الصحة » . هذه الكلمات الجميلة التى قالها ابن رشد فى القرن الذى عاش فيه تؤكد معنى الانسانية الذى هو الوجه الآخر لمعنى العقل . وعندما نحتفى بهذا الكتاب عن ابن رشـــد فأننا نحتفى بقيمة العقـــل ونحتفى بقيم الانسانية الكبرى فى الوقت نفسه . وهذا الاحتفاء يبدأ أولا بان نقدر الجهد الذى بذلته وتبذله لجنة الفلسفة والاجتماع . ويجب باسمكم أن أتوجه بتحية خاصـــــة الى عاطف العراقى على هـــذا الجهد الذى بذله فى اعداد هذا المجلد الضخم الذى حاز اعجاب كل من اضطلع عليه ،

وليس ذلك بغريب على عاطف العراقى فعشقه لابن رشد قديم ، ودفاعه عن العقلانية معروف ، وحرصه على التنوير يشهد له بأنه واحد من فرسان التنوير . لم يكن من قبيل المصادفة أن يختتم عاطف العراقى تقديمه للكتاب بقوله : « اننا فى هذه الأيام فى أشد الحاجة لروح العقل ، روح التنوير ، الروح التى تجلت فى فلسفة ومنهج ابن رشد ، الروح التى تبدد الظلام سعيا الى النور». هذه الكلمات هى الكلمات التى تعبر عن ابن رشد ، والتى تعبر فى الوقت نفسه عن القيمة التى انجزها وأكدها عاطف العراقى عندما أشرف على هذا الكتاب التى اصدرته لجنة الفلسفة والدراسات الاجتماعية . ولن أترك هذه الفرصة دون أن أشكر اللجنة على ما صدر لها بعد ذلك من كتب لابن رشد ، واعنى هنا كتاب النفس وكتاب الآثار العلوية ، وأخص بالشكر زينب الخضيرى على ما قامت به وما بذلته من جهد فى تصويب هذين الكتابين والاشراف على طبعهما . وأخيرا فمن العرفان والوفاء ان نذكر بالفضل الذين خططوا لهذا الكتاب والذين أسهموا فيه من الأساتذة الكرام الذين رحلوا عنها : زكى نجيب محمود الذى اسهم فى التخطيط لهذا الكتاب والاعداد والأب قنواتى الذى أسهم فى هذا الكتاب بدراسة جميلة، وغير هذين الراحلين الكريمين لابد أن نشكر كل من أسهم بالدرس فى هذا الكتاب ، وعندما نلتقى اليوم فى ندوة عن تقييم كتاب ابن رشد أو ننقد البحوث الموجودة فى الكتاب كما أشار مراد وهبه ، فالواقع أننا نلتقى للتقييم بالمعنى الذى يحدد القيمة ، فنحن نجتمع للتقييم وليس للتقويم ، والتقييم بحث عن القيمة ، والبحث عن القيمة يبدأ سلفا من الاقرار بوجودها ، ومن المؤكد أن النقاش الذى سوف يدور حول هذا الكتاب ومناقشة بحوثه ، وتحويل الكتاب والبحوث الى منطلق للتفكير فى ابن رشد ، واعادة تفسيره وقراءته بوجه عام ، درجة من درجات القيمة التى ينطوى عليها معنى التقييم والتى ينطوى عليها معنى النقد بدلالته التى تستخدمونها أنتم فى الفلسفة . ان هذه الندوة سوف تكون حوارا ، والحوار دائما لغة الأكفاء ، لغة الذين يدركون أن الحقيقة نسبية، وان الجميع يشتركون فى صنعها ، وان الرأى والرأى الآخر هما السبيل الوحيد لتاكيد قيمة العقل ومعنى الانسان ، أعنى قيمة العقل التى أكدها ابن رشد فى كل

كتاباته ومعنى الانسان الذى حرص ابن رشد على أن يجسده دائما فى كل انجازه . وفى النهاية باسم الامانة العامة للمجلس الأعلى للثقافة أتوجه بالشكر الى كل الذين أعدوا لهذه الندوة وعلى رأسهم أحمد أبو زيد مقرر اللجنة ، مراد وهبه المشرف على الندوة ، اسمحوا لى أن اتوجه اليهم جميعا بالشكر والتحية والتقدير ، وان أشكرهم باسمكم جميعا أيها الحضور الكريم . واسمحوا لى، أخيرا، أن أشكر لكم حضوركم واتمنى لكم ندوة ناجحة والوصول الى درجة رائعة من درجات القيمة التى سوف يصل اليها قطعا فعل التقييم .

الأبحاث

اشـكاليتا النــــدوة

مـــراد وهبـه

صدر كتاب « الفيلسوف ابن رشد مفكرا عـــــربيا ورائدا للاتجاه العقلانى » (١٩٩٣) عن لجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة باشراف عاطف العراقى .

والكتاب ، فى تقديرى ، يثير اشكاليتين هما على النحو الآتى :

* الاشكالية الأولى تدور على مايبدو أنه تناقض بين ماهو عربى وما هو اسلامى . فعنوان الكتاب ينعت ابن رشد بانه مفكر عربى ، ولقب المشرف على اصدار الكتاب « أستاذ الفلسفة العـــربية » ، أما أبحـاث الكتاب ، فى جملتها ، فانها تتناول ابن رشد كفيلسوف اسلامى أو على الأقل فيلسوف عربى اسلامى .

* والاشكالية الثانيــــة تدور على وصف ابن رشد بأنـــه « رائد الاتجاه العقلانى » على نحو ما هو وارد فى عنـــوان الكتاب . فما المقصود بالعقلانية ؟ والى أى مدى عبرت أبحاث الكتاب عن هذا الاتجاه العقلانى ؟

عن الاشكالية الأولى ، أى عما يبدو أنه تناقض بين ماهو عربى وما هو اسلامى ، أعتقد أنها ليست مثارة لأول مرة ، واثارتها من جديد بمناسبة صدور كتاب « ابن رشد » تعنى أن التناقض لم يرفع بعـــد ، ومن ثم تعنى أن مصطلح « الفلسفة الاسلامية » مازال موضع شك . ففى عام ١٩٤٤ كان محمـــود الخضيرى يحاضرنا فى الفلسفة الاســـلامية . ودارت المحاضرة الثانية على الخلاف حول تسمية الفلسفة الاسلامية ،

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة ـ كلية التربية جامعة عين شمس (سابقا) .

وهل هى فعلا اسلامية أم عربية ، أى أنها دارت على اشكالية التسمية.
قال « اذا سميناها فلسفة اسلامية » سنخرج منها من لم يكونوا مسلمين
واشتركوا فى هذه الفلسفة . هـــؤلاء بعضهم مسيحى وبعضهم صابىء أو
اسرائيلى أو مجوسى . ثم ان حركة الترجمة أكثر من نهض بها من غير
الاسلاميين بل يكاد يكون كل التراجمة من غيـــر المسلمين ، وليس من
العدل اخراج هؤلاء من الفلسفة الاسلامية . هؤلاء جميعا كتبوا باللغـــة
العربية . فاذا سمينا هذه الفلسفة فلسفة عربية صـــدقت الكلمة عليهم .
ولكن خصوم هذه التسمية يحتجون بقولهم ان نسبة الفلسفة العربية نسبة
غير صحيحة لأن هناك أجناسا غير عربية اشتركت فى الفلسفة الاسلامية.
وهذه الأجناس فارسية أو تركية أو غير ذلك . وهذه النزعة فى الانتقاء
تظهر فى الوقت الحديث خصوصا عند الفرس والأتراك . فبعض الأتراك
يسمى الفلسفة بالفلسفة التركية ، أى أن المؤسسين لها كانوا أتراكا . كما
أن البعض من الفرس يذهب الى القول بأنها فلسفة فارسية لأن أقطاب
هذه الفلسفة كانوا من الفرس . وفى هذا أيضا شىء من الغلو والاسراف
اذ أن تمييز جنسية المفكر القديم شىء لايعد سهلا . فالأتراك ، مثلا ،
يعتبرون ابن سينا تركيا مع أن كـــل ما هنالك أنه ولد فى بـــلاد كانت
تسكنها عشائر تنتمى الى الجنس التترى ، وكانت متنقلة . وفى وقت
ابن سينا كانت هذه البلاد خاضعة للحكم الاسلامى ، ولم يكن اذ ذاك
حكما تركيا . هذا بالاضافة الى أن قسطا من الفلسفة الاسلامية مكتوب
بغير اللغة العربية بل هو مكتوب باللغة الفارسية على الخصوص . ولذا
فلا يصح نسبة هذا التفكير المدون بالفارسية الى العربية . ولكننا نختار
تسمية هذه الفلسفة باسم فلسفة اسلامية لأننا ننظر الى المــــدنية التى
أثمرت هذه الثمرة . والذين عاشوا تحت ظلال هذه المدنية ، ولم يكونوا
اسلاميين الا أنهم ماداموا ينتسبون الى هذه المدنية فهم اسلاميون وان
كانت ديانتهم ليست الاسلام . فحنين بن اسحق اسلامى ولكنه مسيحى
الديانة ، وثابت بن قره اسلامى ولكنه صابىء الديانة . فهذه الفلســـفة
الاسلامية لا تنتسب الى جنس أو دين بل هى تنتسب الى لغة . وأمـــا
هذه النزعات التى ترمى الى تخصيص الفلاسفة باسم عرب أو فرس انما
هى نزعات صادرة عن شىء من التعصب يجب أن نبتعد عنه .

كان هذاهو رأى الخضيرى وهو رأى منحاز الى تسمية « الفلسفة الاسلامية » . ومع ذلك فثمة اشكالية كامنة فى رأيه وهى قوله أنه « يكاد يكون كل التراجمة من غير المسلمين ».

والسؤال اذن :

لماذا التراجمة من غير المسلمين ؟

فى تصديره للجزء الأول من كتابه « نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام » يقرر على سامى النشار أن المسلمين قدموا لنا فلسفة جديدة لم يعرفها اليونان ولا غير اليونان . ثم هو يحصر الفلسفة الاسلامية فى علماء الكلام على الاطلاق ، وفى الأشعرية على التخصيص اذ هى ، فى رأيه ، آخر ما وصل اليه العقل الاسلامى الناطق باسم القرآن والسنة . ومن ثم فنحن فى اشد الغنى عن تحجر المعتزلة العقلى ، كما أننا على بعد كامل عن تفسير ابن رشد للاسلام فى ضوء فلسفة أرسطو . لقد اطمأن المسلمون الى المذهب الأشعرى ، وتخلصوا من شوائب العقل البحت ، كما تخلصوا من أدران الغنوص . ثم يستطرد قائلا أما المذهب الرشدى فهو ترف عقلى لم يؤثر فى جميع المسلمين أدنى تأثير(١) . بل ان النشار يذهب الى أبعد من ذلك فيقرر أن فلسفة الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم من شراح فلسفة اليونان لا يمثلون ، على الاطلاق فيما تركوا من كتب ، الأصالة الاسلامية الفلسفية(٢) . ذلك أن الحياة الاسلامية كلها ـ فى رأى النشار ـ ليست سوى التفسير القرآنى : فمن النظر فى قوانين القرآن العلمية نشأ الفقه ، ومن النظر فيه ككتاب يضع الميتافزيقا نشأ الكلام،ومن النظر فيه ككتاب أخروى نشأ الزهد والتصوف والأخلاق، ومن النظر فيه ككتاب للحكم نشأ علم السياسة ، ومن النظر فيه كلغة الهية نشأت علوم اللغة . وتطور العلوم الاسلامية جميعها انما ينبغى أن يبحث فى هذا النطاق : فى النطاق القرآنى نشأت ، وفيه نضجت

---

(١) على سامى النشار ، نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ، ج ١ ، ط ٨ ، دار المعارف ، ١٩٨١ ، ص ٢٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٧ .

وترعرعت ، وفيه تطورت ، وواجهت عـــلوم الأمم تؤيدها أو تنكرها فى ضوئه(٣) ٠

وأحمد فؤاد الأهوانى فى كتابه « المدارس الفلسفية » يقرر فى فصل بعنوان « المدارس الفلسفية الاســلامية » أن الاســلام يخلو من مدارس فلسفية منظمة ٠ وهذا على عكس مدارس الفقه واللغة والتفسير والحديث التى انتشرت فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ٠ وعلة ذلك ، فى رأيه ؛ أن « الفلسفة كان ينظر اليها بعين الارتياب ، واتهم المشتغلون بها بالكفر والالحاد ، فلم يكن يتسنى للدولة أن ترعاها »(٤) ٠ ثم بعد ذلك يتحدث الأهوانى عن الكندى والفارابى وابن سينا ولا يتحدث عن ابن رشد ، ولكن يرد ذكره عندما يتحدث عن تكفير الغـــزالى للفلاسفة فيقول « ولم يستطيع ابن رشد فى « تهافت التهافت » أن يقنع الجمهور بعدم صحة هذه التهم ، وانتهى الأمر بالفلسفة الى الانزواء ٠ ودخلت فى مباحث علم الكلام الذى أصبح يسمى علم التوحيد »(٥) ٠

وفى كتاب «تاريخ الفلسفة فى الاسلام» لدى بور وترجمة أبو ريده يقول المؤلف « فى مذهب ابن رشد ثلاثة آراء الحادية تجعله مخالفا لما أثبتته علوم العقائد فى الديانات الكبرى فى عصره وأولها قدم العالم ، وثانيها قوله بارتباط حوادث الـــكون جميعها ارتباط عـــلة بمعلول ، وثالثها قوله بفناء جميع الجزئيات(٦) ٠

وتأسيسا على ما تقدم يبين أن ثمة تناقضا فى اعتبـــار ابن رشـد فيلسوفا اسلاميا ٠ فهـــو على الرغـم من أنه كان منشغلا بتأويل النص القرآنى الا أن المؤرخين المذكورين آنفا تشككوا فى كونه فيلسوفا اسلاميا. يبقى اعتباره فيلسوفا عربيا ٠ ولكن يلزم من هذا الاعتبار سؤال : هل

---

(٣) نفس المرجع ، ٢٢٧ ٠

(٤) أحمد فؤاد الاهوانى ، المدارس الفلسفية ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٢٤ ٠

(٥) نفس المرجع ، ص ١٤٧ ٠

(٦) دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة أبو ريده ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٣٠١ ٠

من الممكن أن يكون كذلك ؟ اذا كان الجواب بالايجاب فيلزم منه ألا يكون هذا الجواب مردود الى أن ابن رشد كان يكتب باللغة العـــربية ، لأن اللغة ، أية لغة ، هى ، فى نهاية المطاف ، ثقافة . ومن ثم يثار هــذا السؤال : اذا كان ابن رشد فيلسوفا عربيا فما هى قضايا الثقافة العربية التى تناولها ابن رشد حتى يمكن أن ينعت بهذا الوصف ؟

هذا عن الاشكالية الأولى أما الاشكالية الثانية فتستلزم، فى البداية، تحديد عقلانية ابن رشد حتى يمكن الحكم على مدى مسايرة الباحثين لهذه العقلانية . وفى تقديرى أن عقلانية ابن رشد تقـــــوم فى العلاقة العضوية بين التأويل والبرهان .

يقرر ابن رشد حق الفيلسوف أو الراسخ فى العلم فى « تأويل » النص الدينى بما يتفق وطبيعة البرهان العقلى . ويعـــــرف ابن رشــد التأويل بأنه « اخـــــراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقيـــة الى الدلالة المجازية »(٧) . وهو يقول ذلك فى شأن العلاقة بين الشريعة والبرهان .

يقول « فان أدى النظر البرهانى الى نحو ما من المعرفة بموجود ما فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه فى الشرع أو نطق به فان كان مما سكت عنه فلا تعارض هناك وهو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعى . وان كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقا فلا قول هناك وان كان مخالفا طلب هناك تأويله » . ومن شأن التأويل أن يخرق الاجماع اذ لايتصور فيه اجماع على حد قول ابن رشد . ولهـــذا يمتنع تكفير المؤول ، أى لا تكفير مع التأويل . ولهذا غلط ابن رشد الغزالى عندما كفر هذا الأخير الفلاسفة من أهل الاسلام مثل الفارابى وابن سينا .

وفى ضــوء هذا التحديد لعقلانية ابن رشـــد نحاول تقييم كتاب ابن رشد . فثمة بحث بعنوان «نظرية ابن رشد فى النفس والعقل» لمحمود فهمى زيدان يدور على نظرية ابن رشد فى طبيعة العقل الانسانى التى

---

(٧) ابن رشد ، فصل المقال ... ، ص ٣٤ .

تحاول التوفيق بين نظرية أرسطو فى العقل وعقيدة الدين فى خلود النفس . وبعد عرض النظرية يخلص المؤلف الى القول بأن ابن رشد لم ينجح فى محاولته الدفاع عن عقيدة الاسلام فى خلود النفس (ص٤٨) .

وفى تقديرى أن مسألة الدفاععنالعقيدة ليست من شانالفلسفة بل من شأن علم الكلام . ومنشأ علم الكلام دليل على ما نقول . فقد حلت المعتزلة من تاريخ الاسلام محل المدافعين عن المسيحية فى أول أمرها من تاريخ المسيحية . فكما أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا علم اللاهوت بمناظراتهم مع الفلاسفة الوثنيين كذلك أسست المعتزلة كلام الاسلام . والمجادلة بين المعتزلة والملحدين وأصحاب سائر الأديان هى مصدر كلامها . ولا يفهم شىء من مغزى كلامها الا عند مراجعته على هذا الأصل . والقول على خلاف ذلك يعنى رد الفلسفة الى علم الكلام ، وهذا الرد يعنى امتناع التفلسف .

وبعد بحث محمود زيدان بحث أحمد صبحى بعنوان«هل احكام الفلسفةبرهانية : دراسة لموضوع التوفيق بين الدين والفلسفة ».وفى اتجاه زيدان يسير أحمد صبحى فيقرر أن نظرية ابن رشد فى التوفيق بين الدين والفلسفة — ناهيك عن أقواله فى التأويل — لم تسهم بدور ايجابى بقدر ما أثارت من ردود فعل سلبية . فهو يبطن القول بازدواجية الحقيقة حين يعلن وحدتها ، ثم يبطن استعلاء فكريا (ص٨٤) . ومن ثم ينتهى الى نتيجة مفادها أنه كان الأجدر اما أن يرفض نظرية البرهان عند أرسطو مثل ما فعل ابن تيمية ، أو القول بأن الحقيقة الدينية موضوع ايمان وليست موضوع فلسفة (ص٦٠) . ومن ثم كان الغزالى محقا ، فى رأى أحمد صبحى،حين جاهر بالعداء للفلسفة.فانه بصدد مسائل الدين دعا المسلمين الى التصديق والتسليم والى السكوت وعدم الخوض فى تأويل متشابه الآيات ، لأن ذلك بدعة ، وانما ينبغى الامساك وعدم التصرف فيها بتأويل فضلا عن لزوم الكف عن التفكير فى المسائل الالهية » (ص ٨٦) .

واذا كان أحمدصبحى ينكر التأويل لأنه بدعة مسايرا فى ذلك الغزالى فان مرفت عزت بالى فى بحثها المعنون « موقف ابن رشد من مشكلة

الخير والشر » ليست واضحة فى مسالة التأويل اذ هى تقول « استطاع ابن رشد أن يجمع بين الأدلة المتناقضة فى هذه المسألة (أى المنقـــول والمعقول) بواسطة التأويل ، وهى الطريقة المتوسطة التى اتبعها لتجنب طريقة الأشاعرة وطريقة المعتزلة مع أنه قد نهى عن التآويل وعابه على أصحاب المذاهب الأخرى ، وكان جوابه حين سئل عن سبب اضطراره الى التأويل مع نفيه له فى كل مكان أنه اضطر اليه ليوضح الأمر للجمهور فى هذه المسألة » (ص ٣٦٠) وهـــذه العبارات لم تنقلها بالى عـــن ابن رشد وانما نقلتها عن محمدلطفىجمعة فى كتابه«تاريخفلاسفة الاسلام» (ص١٩٢) . وبين أن هذه العبارات متناقضة مع مفهوم ابن رشـــد عن التأويل اذ هو لازم من لزوم اعمال العقل فى النص القرآنى ، وأن هذا اللزوم ممتنع عند الجمهور ومقصور على الراســخين فى العلم ، أى الفلاسفة .

وفيما يختص بعلاقة ابن رشد بالفلسفة اليونانية ثمة بحثان أحدهما لسعيد مراد بعنوان « ابن رشد بين حضـــارتين » والآخر لنبيله زكرى زكى بعنوان « ابن رشد والمؤثرات اليونانية فى فلسفته الآلهية » . فى البحث الأول يحاول سعيد مراد التدليل على استقلالية فكر ابن رشد ، وهو فى هذا التدليل يقف عنـــد مستوى الأمثلة ، وليس عند المستوى النظرى . يقول « ان ابن رشد يعتمد على التحليل اللغوى للألفاظ ثم يعتمد على التقسيمات . وقد يكون ذلك أثرا للثقافة اليونانية لا للثقافة العربية الاسلامية الا أن ابن رشد يضرب الأمثلة من واقع التاريخ الثقافى للأمة العربية والاسلامية . وفى « تلخيص كتاب أرسطو فى الشعر يطبق ابن رشد قواعد أرسطو على الشعر العربى . وهذا غير ممكن بدون الالمام بالثقافتين العربية الاسلامية واليونانية الغربية (ص٣٤٨) . وفى كتاب « الجدل » يحاول ابن رشد تقديم أمثلة من تراثنا . وفى تلخيص كتاب « البرهان » يضرب ابن رشد أمثلة من التاريخ الاسلامى . وفى تقديرى أن سعيد مراد قد جانبه الصواب فى فهم معنى استقلال الفكر . فاستقلال الفكر يعنى فى المقام الأول رفض تحكم أية سلطة غيـــر سلطة الفكر . واذا كان ابن رشد على نحو ما يرى سعيد مراد خاضعا لسلطة أرسطو فمعنى ذلك انتفاء استقلال الفكر عند ابن رشد وبالتالى انتفاء العقلانية .

وفى تقديرى أن ابن رشد لم يكن خاضعا لسلطة أرسطو على النحو التى كانت عليه السلطة المسيحية . فالعلاقة العضوية بين التاويل والبرهان هى التى تميز ابن رشد من أرسطو . وهذا على خلاف مايذهب اليه سعيد مراد من موافقته على الرأى القائل بأن ابن رشد متاثر فى مفهومه عن التأويل بالثقافة الغربية اليونانية (ص٣٤٨) . فمفهوم التأويل لم ينشا فى الثقافة الغربية الا عند شليرماخر فى القرن التاسع عشر .

أما نبيله زكرى زكى فعلى الرغم من أنها تسم ابن رشد بأنه صاحب نزعة عقلية ونقدية(ص٢٦٥) ،الا أنها لاتتصور ابن رشد الا على أنه مجرد شارح ومفسر وملخص لأرسطو . فادلته على قدم العالم أدلة أرسطية . ورفضه لفكرة الفيض متأثر فيه بأرسطو (ص٢٧٦) . ومع ذلك فانها فى فقرة أخرى تقول ان العالم عند ابن رشد وجد عن الله منذ الأزل بمعنى أنه فيض الله فى الزمان (ص ٢٧٢ ، ٢٧٤) . وتختم بقولها ان ابن رشد أراد ابراز منهجه المعروف فى التوفيق بين الشريعة والحكمة فلايكون قد خرج عما ورد فى الشرع أو تجاوز . واذا كان ذلك كذلك فلماذا كفر ابن رشد ؟

وقد انشغل محمود لطفى حمدى زقزوق بمسألة التوفيق بين الشريعة والحكمة فى بحثه المعنون « الحقيقة الدينية » وهو يقرر منذ بداية بحثه بأن تعاليم الاسلام جميعا تسير فى اتجاه وحدة الحقيقة (ص٩٣) . ومن ثم فقد كان ابن رشد على اقتناع تام بعدم وجود أى تناقض بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية (ص٩٨) ، وبأن ثمة اتفاقا بين الشريعة والحكمة (ص١٠١) . وفى تقديرى أن لفظ « اتفاق » هنا فى حاجة الى مراجعة وعلى الأخص فى ضوء مقولة التأويل لأن لفظ « اتفاق » يعنى أننا ازاء طرفين يبدو أن كلا منهما مباين للآخر . ومن ثم فانى أعتقد أن ابن رشد كان محقا فى استخدام لفظ اتصال بدلا من لفظ اتفاق . فلفظ « الاتصال » الذى استخدمه ابن رشد فى عنوان كتابه « فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ينفى وجود طرفين . وفى ضوء مفهوم التاويل الذى يعنى اعمال العقل فى النص الدينى يمكن القول بأن الحكمة هى الشريعة مؤولة .

فلســفة اســلامية أو عربية

فتــح اللــه خليف

أمر معلوم أن هذه الفلسفة قد وضع لها أهلها اسما اصطلحوا عليه، فلا يصح العدول عنه ، ولا تجوز المشاحة فيه . فابن سينـــا فى مؤلفاته الفلسفية ، فى الشفاء والنجاة يستخدم تعبير « المتفلسفة الاسلامية » ، وكذلك الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل يستخدم تعبير « فـــلاسفة الاسلام » فى مواضع متعددة .

وفى كتاب أخبار الحكماء للقفطى ومقدمة ابن خلدون وردت عبارة: « فلاسفة الاسلام » « وحكماء الاسلام » . ولظهير الدين البيهقى كتاب بعنوان « تاريخ حكماء الاسلام » . ويتحدث الشهرزورى فى كتابه نزهة الأرواح وروضة الافراح عن « الحكماء المتأخرين من الاسلاميين » .

هذا هو الرأى المختار فى التسمية عنـــد مصطفى عبد الرازق فى كتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، وعند ابراهيم مدكـــور أيضا الذى اختار لأهم كتبه عنـــوانا هو « فى الفلسفة الاســـلامية : منهج وتطبيقه » . وهو أيضا الرأى المختار لجمهور تلاميذ الشيخين المشتغلين بالفلسفة الاسلامية الى يومنا هذا . ولم يخرج على هـــذا الاجماع فى زماننا فيما أعـــلم الا عاطف العراقى الذى جـــاء أسمه على صدر كتاب ابن رشد مقرونا بعبارة :

أستاذ الفلسفة العربية .

نحن اذن أمام خروج عن الاجماع بين المشتغلين بالفلسفة الاسلامية لامسوغ له ،الا اذا كان عاطف العراقى قـــد اختار أن يقف مع جميـــل

(*) أستاذ الفلسفة الاسلامية ورئيس قسم الفلسفة بآداب الاسكندرية سابقا .

صليبا وخليل الجر ليقول مع جميل صليبا بدين عربى بدلا من الدين الاسلامى • ففى أوائل الستينات قرأت لجميل صليبا وخليل الجر فى بيروت كتابا بعنوان « تاريخ الفلسفة العربية » • بل ان جميل صليبا يتحدث عن دين عربى فيقول : « أما ان أكثر الفلاسفة من أصل غير عربى فلا نكران له ، لكن الذى لا نجد له مستساغا هذا القول بأن الفلسفة التى يسميها العامة : فلسفة اسلامية ليست تستند الى الجنس العربى •

نحن نتكلم عن فلسفة عربية ، كما نتكلم عن دين عربى » •

والحجة التى يتذرعون بها أن هذه الفلسفة كتبت باللغة العربية ، كذلك فان تسميتها بالفلسفة الاسلامية يخرج النصارى والاسرائيليين والصابئة وأصحاب ديانات أخرى ، وهؤلاء جميعا كانت لهم مشاركة فى التصانيف العربية ، وعلى الأخص الفلسفة فضلا عن الرياضة والطب والفلك ، أى أن هؤلاء المفكرين لم يكونوا مسلمين ، ومع ذلك كتبوا فى الفلسفة بلغة عربية فمن الواجب اطلاق لفظ « الفلسفة العربية » على هذه الفلسفة التى شارك فيها المسلمون وغير المسلمين ، وكتبوا فيها جميعا باللغة العربية •

ولكن ظهور العصبيات الجنسية وقليلا من الانصاف التاريخى كان كفيلا بتغيير هذا الاسم وتسميتها بالفلسفة الاسلامية وذلك للأسباب الآتية:

أولا : ان العرب كجنس لم ينفردوا بهذا التراث الفلسفى الضخم بل اشترك مع العرب كثير من أجناس مختلفة كالفرس والترك والهنود • كذلك فان هناك كتابات فى الفلسفة الاسلامية بغير اللغة العربية • فهناك مؤلفات فى هذه الفلسفة بالفارسية والتركية • وكذلك توجد مؤلفات كثيرة باللغات الأوروبية الحديثة كالانجليزية والفرنسية والألمانية •

ثانيا : ان هذا الانتاج الفكرى ظهر تحت ظل المدنية الاسلامية ، تلك المدنية التى تقبلت هذا النوع من التفكير ، ونقلته الى لغتها وشاركت

فيه • ان الحضارة الاسلامية التى أحاطت بهذا الانتاج ، أى بانتاج هذه الفلسفة كانت عاملا كبيرا فى تطور هذه الفلسفة •

كذلك فان هذا الانتاج الفكرى قد نشأ فى بلاد الاسـلام وفى ظل دولتـه •

ثالثا : ان هذا الانتاج الفكرى قد تأثر الى حد كبير بعوامل ثقافية أخرى هى من صميم الديانة الاسلامية نفسها ، وسواء أكانت العـوامل مساعدة أو مضادة فانها على كل حال أدت الى تطـور هذه الفلسفة • ونحن نستطيع أن نتبين بسهولة الموضوعات الدينية الغريبة على الفلسفة اليونانية التى أدخلها أو أقحمها فلاسفة المسلمين على هـذه الفلسفة كالنبوة والعناية الالهية والمعاد وهى من فروع العلم الالهى عند ابن سينا • كذلك اجتهد المسلمون فى التوفيق بين عقيدتهم وبين موضوعات الفلسفة اليونانية ، ونحن نعلم أن كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » من أهم كتب ابن رشد فى هذا المقام •

رابعا : ان أقسام الفلسفة والتـاريخ والآثار فى الجامعات المصرية اصطلحت على هذه التسميات : فلسفة اسلامية ، تصوف اسلامى ، تاريخ اسلامى ، فتوحات اسلامية ، آثار اسلامية ، حضارة اسلامية •

هذه المناهج والتسميات لايجوز الخروج عليها دون مقتضى ، كما لا يجوز أن يتحمل المجلس الأعلى للثقافة ولجنة الفلسفـة وزر هـذا الخروج • ولذلك نوصى بأن تتولى لجنة من بين أعضاء لجنـة الفلسفة بالمجلس مراجعة النص قبـل أن ندفع به الى المطبعة ، لـكى لا تترك اصدارات المجلس لاهواء الناس وانحرافاتهم •

ابن رشد : هوية عربية أم اسلامية

حـــامد طاهـر

ابن رشد هو آخر كبار الفلاسفة المسلمين فى العصر القديم • توفى فى نهاية القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، وانتقل اثره الى أوربا ، فأحدث فيها نهضة فكرية كان لها ما بعدها • أما اهتماماته فقد تنوعت بين ثلاثة مجالات رئيسية هى : الفقه والطب والفلسفة • ولم يكن الجمع بين هذه المجالات وأمثالها غريبا لدى علمـــاء المسلمين فى المـــاضى •

تشير حياة ابن رشد فى مرحلتها الأولى الى انه كان يتم اعداده ليواصل دور أسرته العريقة فى مجال القضاء • والقضاء الاسلامى ـ كما هو معروف ـ يتطلب الالمام الجيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، واتقان علم الفقه ، والتخصص فى أحد مذاهبه السائدة فى المجتمع (وهو حينئذ المذهب المالكى فى المغرب والاندلس) وقد كان جده ، وابوه قاضيين • وظل هو يطمح لتولى قضاء عاصمة الأندلس : قرطبة ، حتى حظى به فى النهاية ، فحقق بذلك رجاء أسرته فيه • ولم يكتف بتولى المنصب ، وانما وضع كتابا متميزا فى مجال الفقه المقارن بعنوان « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » مازال يعتبر مرجعا أساسيا لدارس الفقه حتى العصر الحاضر فى كل بلاد الاسلام •

لكننا نرى ابن رشد يعكف على دراسة الطب ، ويؤلف أيضا فيـــه (كتاب الكليات) ويحيل قراءه (بضم القاف) لاستكمال معلوماتهم الى صديقه الطبيب الشهير ابن زهر • وعندما يحال ابن طفيل الى التقاعد ، يستدعيه أمير الموحدين ليصبح طبيبه الخاص ، وبالتالى مستشاره •

اما فى مجال الفلسفة ، فتبدأ قصة اشتغال ابن رشـــد بها تحقيقا

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة ـ كلية دار العلوم بجامعة القاهرة •

لرغبة أمير الموحدين (أبى يعقوب يوسف) - وكان حاكما مثقفا - فى تبسيط مؤلفات أرسطو ، وتحرير عبارة مترجميه الى العربية • ومنذ نقل ابن طفيل تلك الرغبة الى ابن رشد ، وحضه على تنفيذها ، عكف على مؤلفات أرسطو المترجمة الى العربية ، وبذل كثيرا من الجهد فى المقابلة بين نسخها المتعددة ، حتى تمكن فى النهاية من تحرير أقرب عبارة ممكنة ، ثم تلخيص وشرح مؤلفات أرسطو ، ونتيجة جهوده الموفقة فى هذا الصدد ، أطلق عليه لقب « الشارح الاكبر » •

وفى مجال الدفاع عن الفلاسفة ضد هجوم الغزالى الذى شنه عليهم فى كتابه (تهافت الفلاسفة) ، كتب ابن رشد كتابه الشـــهير (تهافت التهافت) مبينا فيه ضعف المنهج الجدلى الذى استخدمه الغزالى فى الهجوم على الفلاسفة الذين يستخدمون المنهج البرهانى •• وهى فكرة سوف تعود للظهور بشكل أوضح فى كتبه الخاصة فيما بعد •

ان الكتابين اللذين يعدان - بحق - هما التعبير الصادق عن فكر ابن رشد وفلسفته هما « مناهج الأدلة فى عقائد الملة » و « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » •

فى كتاب « مناهج الأدلة » رد تفصيلى على الطرق الجدلية التى اتبعها المتكلمون المسلمون فى اثبات العقـــائد الاسلامية (المعتزلة ، الاشاعرة ، الماتريدية) مع بعض الاشارات الى كل من (مذهب السلف، ومنهج الصوفية) • وفى هذا الكتاب تبرز فكرة ابن رشد المحورية فى ضرورة التفرقة بين عالمى الغيب والشـهادة ، وهى تلك التفرقة التى تجنبنا الكثير من المشكلات التى تورط فيها علماء الـكلام ، وقسموا بالتالى الأمة الى فرق ومذاهب متناحرة •

وفى كتاب (فصل المقال) يلخص ابن رشد - على نحو جـــدير بالاعجاب - فكرته الرئيسية عن الصلة بين الفلســفة والدين ، أو بين الحكمة الانسانية والشريعة الالهية ، بناء على وحدة مصدرهما ، واتحاد مقاصدهما • أما عند افتراض حدوث الخلاف بينهما ، فينبغى اللجوء

الى (منهج التأويل) حسب ما تقتضيه قواعد اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، واستخدمها العرب فى كلامهم الأدبى الراقى ٠

وهكذا تتحدد شخصية ابن رشد من خلال المجالات الثلاثة التى توزعت فيها اهتماماته ، وهى (الفقه والطب والفلسفة) ومنها - فى رأيى - ينبغى يبدأ البحث الحقيقى عن هويته الحقيقية ٠ وبنظرة تحليلية الى كل واحد من هذه المجالات ، يمكن أن نخرج منها بنتيجة محددة ٠

اما مجال الطب ، فمن المعروف أنه علم عالمى ، لا ينسب لبلد بعينه ، أو حتى لعصر بعينه ٠٠ وهو فن تراكمى يستفيد فيه اللاحق من خبرة السابق ٠ ولم يحدث حتى الآن أن جرى الحديث عن طب مصرى أو يونانى أو رومانى أو هندى ٠٠٠ الخ ٠

واما الفقه ، فهو علم اسلامى أصيل ٠ نشأ فى أحضان القرآن الكريم ، والسنة النبوية ٠ وكانت أحكامه التفصيلية تتزايد كلما ظهرت مشكلات جديدة فى المجتمعات الاسلامية ٠ ومن المقرر أن الفقه الاسلامى قد تلون تبعا للمجتمعات والأماكن التى نشأ فيها : فالفقه المالكى الذى نشأ فى المدينة المنورة يختلف بدون شك عن الفقه الحنفى الذى نشأ فى العراق ٠ ومع ذلك ، فقد حاول بعض كبار الفقهاء أن يضبطوا قواعد هذا العلم ، وأن يضعوا لها قوانين كلية ، فنشأ الى جوار علم الفقه : علم أصول الفقه ٠ وهو بمثابة المنطق بالنسبة لسائر العلوم ٠ والخلاصة هنا أن ابن رشد قد استوعب هذا العلم ، وتمكن من أصوله ، ووضع فيه مؤلفا قيما مازال تأثيره مستمرا حتى اليوم ٠ وهو من هذا الجانب يعد أحد فقهاء الاسلام ، وواحد من أهم من ألفوا فيه ٠٠ بالاضافة طبعا الى تطبيق هذا العلم النظرى فى ميدان القضاء ٠

وأخيرا نصل الى المحور الثالث من اهتمامات ابن رشد ، وهو الفلسفة ٠ ويمكن الحديث عنها فى ثلاث مستويات : الأول مستوى التلخيص والشرح لمؤلفات أرسطو ، التى كانت تتسم بعباراتها المعقدة

الصعبة ، نتيجة ترجمتها القاصرة منذ البداية ، وعدم تناول هذه الترجمة بالقدر اللازم من التنقيح ، وقد تركز عمل ابن رشد ـ على هذا المستوى ـ فى تحرير عبارة أرسطو المترجمة الى العربية مما يشـــوبها من ركاكة وتعقيد ، واضطره هذا العمل الى أن يضع لهـــا تلخيصا ، ثم شرحا متوسطا ، ثم شرحا موسعا ٠٠ وقد زاد اعجاب ابن رشد بأرسطو مع زيادة معايشة عمله من الداخل ، وأدرك ـ مثل غيره من المفكرين ـ أنه يقوم بتقديم نتاج أحد كبار العقول البشرية المتميزة عبر التاريخ ٠ وخرج من هذه التجربة ـ فى رأيى ـ بالتفرقة الشهيرة بين ثلاث مستويات من الأدلة : الدليل الخطابى ، والدليل الجدلى ، والدليل البرهانى ٠

وهى التفرقة التى سوف يستفيـــد منها كثيرا فى كتابه « مناهج الأدلة » وهنا نأتى الى حقيقة هذا الكتاب الذى حاول فيه ابن رشـــد ـ انطلاقا من منطلق اسلامى أصيل ـ أن يبرهن على العقائد الاسلامية الواردة فى نصوص القرآن الكريم بالأدلة العقلية كى تساندها ولا تتعارض معها ٠ وفى سبيل ذلك ، شن حملة قوية ضد علماء الكلام المسلمين الذين أخطأوا فهم هذه النصوص ، وأخطأوا أيضا فى استخدام أدلة أقل مستوى من الأدلة البرهانية ٠

أما كتاب ابن رشد المركز جدا « فصل المقال » ، فهو تحفة نادرة يثبت فيه ان الفلسفة والشريعة يتجهان لمقصد واحد ، وأنهما ينبغى أن يتصالحا من أجل تقديم أفضل تصور ممكن للألوهية الى الانسان ٠ واذا كانت الفلسفة الحقة هى نتاج العقل الانسانى ، فليس هـــذا العقل فى الحقيقة الا منحة الله الى الانســان ، كذلك فان الشريعة هى منحته الى البشرية ٠٠٠ ولا يمكن أن تتعارض منحتان آتيتان من مصدر واحد ٠

من هذا التحليل البسيط يتبين أن ابن رشد هو أحد أطباء العــرب المســلمين ، ومن أهم فقهاء المسلمين ، ومن أبرز فلاسفة المسلمين الذين كتبوا باللغة العربية ٠

اشكالية العقـــلانية الرشــدية

فى الكتاب التذكارى

محمود أمين العالم

مدخل : كل قراءة فى تاريخ الفلسفة هى فى ذاتها قراءة فلسفية ٠ ولهذا تختلف وتتعدد القراءات من حيث المنهج والرؤية ٠ فتاريخ الفلسفة أو تاريخ أى لحظة من لحظاتها ليس مجرد رصد تقريرى وصفى لأحداث عملية خارجية ، وانما هو تعامل تحليـــلى تفســيرى تقييمى لمفاهيم وتصورات وأنساق ورؤى فى سياق تاريخى بعينه ٠ ولهذا فأى تاريخ فلسفى راهن هو ممارسة فلسفية راهنة ، وان تعلق هذا التاريخ بلحظة فلسفية قديمة ، سواء كانت هذه الممارسة اتفاقا أو اختلافا مع تلك اللحظة أو كانت تبنيا لبعض جوانبها ، أو امتدادا متطورا لها ، وسواء تحقق ذلك بشكل صريح أو ضـــمنى ، فليس هناك حيـــاد مطلق فى التاريخ الفلسفى ٠

ولهذا فان قراءتنا لفلسفة ابن رشــد خـــلال قراءتنا لدراسات هذا الكتاب التذكارى عن فلسفته،قد تكون ــ فى الحقيقة ــ قراءة لفلسفات هذه الدراسات ، بقدر ما هى كذلك محاولة لقراءة فلسفة ابن رشد نفسها عبر قراءة هذه الدراسات ٠ وفضلا عن ذلك ، فان الحرص على ابراز العقلانية فى عنوان هذا الكتابالتذكارى، قد لايكونمتعلقا بتحديد دلالتها فى هذه الفلسفة فحسب ، بقدر ما هو متعلق كذلك بالوضع الراهن للعقلانية فى فكرنا العربى المعاصر ٠ بل لم يكن اختيار فلســفة ابن رشـــد موضوعا للدراسة أمرا اعتباطيا فى تقديرى ٠ فاللحظة الفلسفية الرشدية القديمة فى القرن الثانى عشر الميلادى تكاد تتماثل مع اللحظة الراهنة فى واقعنا العربى الراهن ٠ ذلك أن ابن رشد الذى أحرقت كتبه ونفى عن بلده فى

(*) المشرف على اصدار الكتاب الدورى « قضايا فكرية » ٠

هذا القرن البعيد ، مايزال حتى اليوم فى أكثر من بلد عربى ، تحرق كتبه ويسجن وينفى ويغتال كذلك فى شخص العديد من المفكرين والمبدعين والمثقفين العرب،وماتزال قضية العقلانية ـ حتى فى حدودها ـ الرشدية ـ تعانى من المحاصرة والادانة بل والتكفير كذلك ٠

ولهذا ، فان قراءتنا لدراسات هذا الكتاب ليست بهدف العودة الى فلسفة ابن رشد أو الى تجاهلها ، وليست بهدف البحث عن نقاط اتفاق أو اختلاف مع أطروحات هذه الدراسات المختلفة حول فلسفة ابن رشد ، أو تجاهلها كذلك ، وانما هى محاولة لاثارة حـــوار فلسفى مع هذه الدراسات حول دلالة العقلانية وحدودها فى الفلسفة الرشدية ، وحول مفهوم العقلانية بشكل عام فى عصرنا الراهن ، بهدف أن ننقل الفلسفة الى قلب الحوار الدائر فى بلادنا حول قضية التنوير العقلانى ، لاغناء هذا الحوار وتعميقه ، وانعاش الفكر الفلسفى عامة فى ثقافتنا وحياتنا العربية الراهنة ٠

فى ضوء هذا ، ستتألف هذه الدراسة من أربعة محاور : الأول هو عرض تمهيدى عام لدلالة العقلانية ٠ والثانى هو قــراءة دراسات هذا الكتاب عن فلسفة ابن رشد لتحديد دلالة العقلانية فيها ، والثالث تعليق عام على الدراسات ، أما المحور الرابع فهو محاولة لتقديم قراءة خاصة للعقلانية الرشدية ، ومدى راهنية هــذه العقلانية الرشدية فى واقعنا وعصرنا الراهن ٠

١ ـ العقـلانية : قد يوحى مصطلح العقلانية بمعنى محدد مباشر هو الاستعانة بالعقل فى كل ممارساتنا النظرية والعملية بل فى رؤيتنا للعالم والحياة عامة ٠ لكن القول بالاستعانة بالعقل قد لا يعنى العقلانية فى الممارسة بالضرورة ٠ بل قد يستخدم العقـــل فى كثير من الأحيان لتحقيق أهداف أو نتائج غير عقلانية وما أكثر الأمثلة ٠ ولهذا فالمعنى المباشر لمصطلح العقلانية لا يحـــدد لنا شيئا فى الحقيقة ، بل لعله أن يكون دورا منطقيا أقرب الى التحليـــل الاشتقاقى للمصطلح منه الى التفسير الموضوعى له ، وخاصة أن مصطلح العقـــلانية يتضمن مفاهيم

مختلفة باختلاف الفلاسفة . وليس هنـــــا مجال لرصد مفهوم العقلانية ومتابعته عند مختلف المذاهب الفلسفية ، وانما لتحديد بعض السـمات العامة للعقلانية ، هذه السمات التى يمكن أن تكون مشتركة - بمستوى أو بآخر - بين مختلف هذه المذاهب الفلسفية .

فالعقلانية - فى تقـــــديرى - هى الممارسة التى يقوم بها العقل لتحصيل معرفة بحقائق الوجود من حوله ، سواء كانت حقائق طبيعية أو كونية ، أو حقائق معنوية أو نفسية أو اجتماعية . والمعــــرفة التى يحصلها العقل ليست هى المعرفة المباشرة بالجزئيات أو العناصر الحسية فى الوجود ، وانما هى المعرفة بالعلاقات الكلية والضرورية التى تربط بين هذه الجزئيات والعناصر الحسية وتفسرها . ويمتد مفهوم العقلانية كذلك الى أشكال السلوك الانسانى تفسـيرا وتقييما لها بذات المنهج . وتختلف مفاهيم العقلانية أساسا حول نقطة الانطـــلاق أو المصدر الاول للفعل العقلانى لوصح التعبير . فهناك من الفلاسفة من يرى أن مصدر المعرفة هو العقل نفسه ، أى أن فعـــل التعقل يعنى تأطير الموجودات - موضوع المعرفة - وترتيب عناصرها بما يضفىعليها منقوانينه وقواعده الخاصة التى تحول تفاصيلها وجزئياتها الى دلالات كلية ضرورية . أو بتعبير آخر ، القول بأن فى العقل مكونات فطرية ذاتية هى التى تضفى المعقولية على الموجودات ، أى تضفى عليها ســمة الكلية والضرورة . ويمكن أن نسمى هذا النمط العقلانى بالعقلانية المثالية . ولكن هناك من الفلاسفة من يختلفون مع هذا المعنى للعقلانية ويرون أن نقطة البداية فى الفعل المعرفى العقلانى هى الموجودات الخارجية نفســـها . فهذه الموجودات الخارجية المتعددة المتجزئة المتنوعة ، تقوم فيما بينها علاقات كلية ضرورية يجردها العقل ويستخلصها منها بفضـــل تكوينه الخاص المؤهل لذلك . وبرغم الاختلاف بين هذين النمطين ، فان العقلانية فى كليهما هى فعل معرفى يتحقق باقامة نسق من العلاقات الكلية والضرورية فى الوجود فى تجلياته المختلفة ، سواء كان مصدر هذه العلاقات الكلية والضرورية المكونات الأولية الفطرية للعقل ، أو كان مصدرها التجربة الموضوعية .

وبرغم الاختلاف بين هذين النمطين من العقلانية ففى كليهما اقرار بمكونات ذاتية فى العقل تسهم فى عملية المعــــرفة سواء كانت هــذه المكونات هى التى تضفى الطابع الكلى والضرورى على الوجود ، بحسب الاتجاه العقلانى المثالى ، أو كانت تكـــوينات ذاتية مؤهلة لاستخلاص الدلالات الكلية والضرورية من التجربة الخارجية • كما أن هذين النمطين المختلفين من العقلانية يشتركان فى أن الفعل العقلانى عند كليهما يتحقق دون أى مرجعية متعالية من خارج التجربة الانسانية •

على أن الفعل العقلانى ليس عملية اجرائية ثابتة ونهائية ، كما أنه ليس عملية تبدأ من فراغ ، وانما يغنى ويتطور ويتجدد بالممارسة المعرفية المتجددة بتجدد وقائع الحياة وبخبراتها ومكتسباتها المتجددة • ولعل هذا هو ما يجعل للعقلانية أكثر من مفهوم واحد ، ويضفى على تنوع أحكامها ونتائجها طابع احترام الاختلاف وتجنب الاحكام المطلقة القاطعة ، والحرص على روح النقـــد والمراجعة والاختبار المتصـــل لأحكامها نفسها ، فضلا عن روح التســامح والرؤية التاريخية والكلية المتفتحة المتجددة فى ممارستها • ولهذا تكاد العقلانية أن تكون مرادفة للعلم وان لم تتسم بالدقة المنهجية والتجريبية التى للعلم •

والعقلانية لا تمارس فعلها على نحو تجزيئى ، وانما خلال بنية نسقية تجمع بين كونها أداة معـــرفية من ناحية ، وكـــونها من ناحية أخرى وعاء يستوعب وينظم ويرتب ما استخلصه من معارف ويضفى عليه طابع الكلية والضرورة • ولهذا فالعقلانية رؤية نظرية شاملة وليســت مجرد عملية اجرائية جزئية •

ولهذا فاننا عندما نتصـــدى لدراسة الاتجاه العقلانى لمفـــكر او فيلسوف ، لا ينبغى أن نكتفى بالتقاط فكرة هنا أو فكرة هناك ، أو نقف عند تعريف هنا أو هناك ، لنستخلص الــدلالة العقـــلانية لفلسفته أو نكتفى بالحكم المجرد العام عليها • بل لابد من أن نتبين النسق العـــام لهذه الفلسفة فى تكاملها حتى نتمكن من تحديد دلالة هذه الفكرة أو هذا التعريف ، فضلا عن الدلالة العامة للعقلانية فى فلسفته •

هذه فى تقديرى هى ملامح عامة للعقـــلانية كمفهوم وكمنهج فى دلالتها العامة الخالية من القواعد المحددة ، أو الانتساب الى فيلسوف بعينه أو فلسفة بعينها ٠ ولست اقصـــد بهذا أن أفرض مفهـــوما معينا للعقلانية ، فما عرضته هو اقـــرب الى المشترك بين مختلف المدارس الفلسفية العقلانية ٠ ولست أقصد كذلك أن أتخذ من هذا المفهوم للعقلانية، معيارا للحكم على فلسفة ابن رشد أو على مختلف الدراسات فى هـــذا الكتاب المكرس لدراسة فلسفة ابن رشـــد ٠ وانما قصـــدت أن أقدم اطارا عاما لمفهوم العقلانية ليكون تمهيدا للحوار مع دلالة العقلانية فى دراسات هذا الكتاب وفى فلسفة ابن رشد نفسه ٠

٢ ـ قراءة لكتاب « الفيلسوف ابن رشد » :

يضم هذا الكتاب دراسات عـــديدة لابرز المتخصصين فى الفلسفة العربية الاسلامية عامة وفلسفة ابن رشد خاصة ، وفى مقدمتهم ابراهيم بيومى مدكور وعاطف العراقى ٠ والكتاب على جانب كبير من الجدية والقيمة لا بموضوعه فحسب بل بتنوع واختلاف التوجهات والمناهج فى تناول موضوعه ، مما يجعله صورة حية لمستوى دراسات الفلسفة العربية الاسلامية فى جامعاتنا المصرية ٠

وقد رأيت أن أقوم بقراءة دراسات هذا الكتاب فى تسلسلها فيه ، حتى لا أفرض عليها منذ البداية تصنيفا فكريا أو منهجيا معينا ٠ ولن أعرض فى قراءتى لهذه الدراسات لتفاصيلها المختلفة ، وانما سأكتفى بالتركيز على دلالة العقلانية الرشدية فى كل منها ٠ فهذا هو موضوع هذه الورقة ، وهذا هو المطلوب منى ٠

ولكن الملاحظ فى أغلب الدراسات هو الاشارة العامة الى عقلانية ابن رشد دون تحديد واضح الى دلالة هذه العقلانية أو الى مرتكزاتها ٠ على أنى سأحاول أن اتكشف هذه الدلالة من الســـياق العام لكل دراسة فضلا عن منهجها ٠

وأولى الدراسات لهذا الكتاب بعد المقدمتين التمهيديتين القيمتين

لدكور والعراقى هى دراسة مراد وهبة حول « مفارقة ابن رشـد » . ويلخص مراد وهبة هذه المفارقة فى أن ابن رشـد كان ممهدا للتنوير فى أوروبا على حين أنه كان موضع اضطهاد فى أمته . ولقـد وجد مـراد وهبة اجابته على الشق الأول من تساؤله فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى كانت تتخلق فى اوروبا فى القرن الثالث عشر خروجا من المرحلة الاقطاعية واستشرافا للمرحلة البورجوازية ، وحاجة هـذه الأوضاع المتنامية الى الفكر العقلانى لمواجهة الجمود والتعصب الدينى الذى كان يرين على المجتمعات الأوروبية آنذاك . أى أنه فسر ازدهار الفكر الرشدى فى أوروبا بعوامل موضوعية . الا أنه عندما انتقل الى الشق الثانى من تساؤله حول ما حاق بالفكر الرشدى من اظلام فى العالم الاسلامى ، لم يلجأ الى التفسير الموضوعى الذى فسر به ازدهار الفكر الرشدى فى أوروبا ، وانما اكتفى بابراز العامل الثقافى وهو اضطهاد الفلسفة والفلاسفة وسيادة الفكر المتعصب والجامد فى العـالم الاسلامى منذ أواخر الدولة الموحدية حتى اليوم . ولاشك فى أهمية هذا العامل الثقافى السلبى ولكنه ليس بكاف فى تفسير محنة الفـكر الرشدى فى عالمه العربى الاسلامى . فلقد اضطهد هذا الفكر فى أوروبا كذلك واضطهد مشايعوه ، ورغم هذا انتصرت الفلسفة العقلانية الرشدية هناك بل تم تجاوزها الى ما بعدها . التفسير يكمن فى تقديرى فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى ازدهـرت فى أوروبا وانهارت فى العالم العـربى الاسلامى وماتزال حتى اليوم تعـانى من تخلفها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى . وفى تقديرى أن هذه العوامل الموضوعية كانت فى ذهن مـراد ، وان حرص على أن يبرز العوامل الثقافية . ولعلنا لا نجد فى دراسة مراد تحديدا معينا لمفهوم العقلانية عند ابن رشد ، وان كنا نستخلصه من مجمل دراسته فى مناقضة العقلانية الرشدية للجمود والتعصب الدينى من ناحية ، وتمييزها بين الشريعة والفلسفة ، وعدم احتكارها للحقيقة المطلقة أى للدوجماطيقية عامة ، فضـلا عن فاعلية العقلانية فى التغيير الاجتماعى مما يعطى للعقلانية الرشدية فى منظور مراد بعدا تنويريا متسامحا وفاعلية تغييرية اجتماعية .

ومع « محمـود فهمى زيدان » ننتقـل الى بحثه فى « نظـرية

ابن رشد فى النفس والعقل »(١) وهى دراسة تحليلية قيمة للعقل فى علاقته بالنفس وبالبدن بالتالى • ويعرض زيدان لمفهوم أرسطو وشراحه لهذه العلاقة فيبرز الاختـــلاف والاتفاق فى بعض جوانبها مع مفهـــوم ابن رشد الذى يرىفيه زيدان محاولة للتوفيق بين مفهوم أرسطو (رغم عدم وضوح هذا المفهوم) والدين الاســـــلامى ، وخاصة فيما يتعلق بمسالة الخلود • وتمتد دراسة زيدان فتعرض لمسألة الثنائية بين النفس والجسم فى التراث اليونانى عامة وفى بعض الاتجاهات الفلســـفية الحـــديثة والمعاصرة • ويكشف فى النهاية عن قراءة جديدة لمفهوم أرســطو للنفس لا يقف به عند حدود تعريفه المشـــــهور بأن « النفس هى صورة لجسم طبيعى آلى » بل يجعل الانسان(١) الفرد فى تكامله النفسى سابقا على هذه الثنائية بين النفس والجسم • والدراسة فى الحقيقة لا تكتفى بعرض المفاهيم المختلفة بل تتحاور معها قبولا أو رفضا ويمتد الحوار الى الفكر الفلسفى المعاصر حول الموضوع نفسه • والدراسة جهـــــد طيب مخلص لموضوعها المحدد وهو «العقلانية بين النفس والعقل عند ابن رشد»،ولهذا تكاد تقتصر أساسا على دراسة طبيعة العقل فى بنيته التكوينية « كعقل هيولانى أو كعقل بالملكة أو كعقل فعال وعلاقة هذه الوظائف المختلفة للعقل ببعضها البعض فضلا عن علاقتها بالنفس • وقد تكون لنـــا بعض ملاحظات حــــول علاقة هذه العقول بعضها ببعض وعلاقتها بالنفس ، وعلاقة الجانب الطبيعى فيها بما وراء الطبيعى • وهما جانبان لايمكن فصلهما عن بعضهما البعض • الا أن المجال لا يسمح بالدخول فى هـــذه التفاصيل المهمة • وانما اكتفى بعدة ملاحظات ترتبط بالموضوع العـــام لدراستنا وهو العقلانية عند ابن رشد •

الملاحظة الأولى هى أننا نستطيع أن نتبين مفهوم العقـل عنـــد ابن رشد بشكل أعمق لو خرجنا من هذه الحدود التكوينية للعقل وعلاقتها بالنفس والبدن الى النسق النظرى العام لفلسفة ابن رشد أو بتعبير آخر لو ربطنا بين هذه الحدود التكوينية للعقـــل والطابع العقـــلانى العام

(١) الكتاب التذكارى ، ص ٤١ ـ ٥٥ •

لفلسفته الذى يتجلى فى مظاهر عـــديدة ٠ وتأسيسا على هذه الملاحظة الأولى أسوق ملاحظة ثانية قد نختلف فيها مع زيدان فى قوله ان تصور ابن رشد للنفس تصور أفلاطونى(١) ٠ فالنفس عنـــد ابن رشد مرتبطه بالبدن وهى موضوع للعلم الطبيعى ٠ وسنعرض لهذا فى تعليقنا الأخير على الكتاب٠وهناك ملاحظة ثالثة تتعلق باختلاف ابن رشد عن أرسطو فى مفهوم العقل وتفسير زيدان لذلك بمحاولة ابن رشد التوفيق بين أرسطو وعقيدة الاسلام فى الخلود ٠ وفى تقديرى أنه تفســـير غائى أخشى ان يفضى الى هدم البنية العقلانية للنسق الفلسفى الرشدى ٠ وهى على أية حال قضية خلافية ٠ أما الملاحظة الرابعة فتتعلق بقـــول زيدان « ان ابن رشد رأى العقل الفعال جزءا من الانسان وليس خارجا عنه،فانه لم يفهمه عقلا فرديا لكل انسان وانما النوع الانسانى كله واذن لم ينجح فى محاولته الدفاع عن عقيدة الاسلام فى خلود النفس (٢)٠ وفى تقديرى أن العقل عند ابن رشد يجمع بين صفتين تبدوان متناقضتين هما التعالى والمفارقة من ناحية والمحايثة من ناحية أخـــرى ٠ فالعقل محايث فى النفس دون أن يكون مخالطا لها ، وهو فى الوقت نفسه متعال مفارق ٠ وهو بهذا عقل للنوع الانسانى عامة ، ومتحقق فى كل نفس فردية فى الوقت نفسه ٠ وسوف نتوسع فى هذه النقطة فى تعليقنا الأخير على الـــكتاب ٠

وننتقل بعد ذلك الى دراسة أحمد محمود صبحى ، وهى دراسة تتخذ سؤالا كبيرا فى عنوانها هو « هل احكام الفلسفـــة برهانية ؟(٣) وتكاد هذه الدراسة أن تكون من أكثر دراسات الكتاب تميزا سواء اتفقنا معها أو اختلفنا ٠ ذلك أنها تقدم صورة للفلسفة الرشدية مناقضة تماما لأغلب الدراسات المتعلقة بها ٠ وهى كما يقول عنوانها الفرعى « دراسة نقدية لرأى ابن رشد فى ضوء منطق أرسطو وتقييمه لقضية التوفيق بين الدين والفلســـفة » ٠ وتبدأ السطور الأولى للدراسة باشارة الى قـــول

(١) المرجع السابق : ص ٤٨ ٠

(٢) المرجع السابق والموضع نفسه ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٩ ـ ٨٧ ٠

ابن رشد فى كتابه « فصل المقال » بأن الشرع أوجب النظر العقلى فى الموجودات وأن سبيل النظر هو القياس العقلى ، وأن أتم أنواع النظر هو البرهان . ثم تشير الى تمييز ابن رشد بين أنواع الأقيسة المختلفة مثل الخطابة والأغاليط والجدل والبرهان . وتذهب الدراسة بعد ذلك الى تأكيد ان احكام الفلسفة عامة ليست أحكاما برهانية وانما هى بالضرورة احكام جدلية وذلك لاختلاف الفلسـفات وارتباطها بمذاهب مختلفة . والدراسة لا تستثنى من هذا فلسـفة من الفلسفات بما فى ذلك فلسفة أرسطو وفلسفة ابن رشد . وفى رأى صبحى أن أرسطو يستقى مختلف أمثلته فى القياس البرهانى من الرياضة . ولهذا فمقدمات هذا القياس البرهانى لابد أن تكون ضرورية . ولـكن هـذا ـ كما يقول ـ لا نجده لا فى فلسـفة أرسـطو ولا فى فلسـفة ابن رشـد . فكتاباتهما لا تقـوم على القياس البرهانى وانما على القياس الجدلى الذى ينبنى على مقـدمات مشهورة ، وصبحى مع ذلك لا ينكر عقلانية ابن رشد فى حدود القياس الجدلى أو الطابع المنطقى العام لفلسفته . وليس كل منطقى برهانيا . أما القياس البرهانى فمقصور على القضايا الرياضية لدقتها وبخاصة فى الشكل الأول للقياس . ويستفيض صبحى فى بيان العلاقة بين القياس البرهانى والرياضة ، مؤكـدا انه ليس ثمة قياس برهانى خارجها . أما الفلسفة فلا سبيل لها أن تكون برهانية ، لما بين مذاهبها وأقاويلها من اختلافات وتناقضات .

ولهذا فليس للفلسفة حد أو تعريف واحد وليس لها مبادىء أولية مجمع عليها بين الفلاسفة . ولهذا فوصف الفلسفة بأنها برهانية مناف لطبيعتها كما يقول.فمنهج الفلسفة هو الجدل . ويعرض صبحى لفلسفةكل من أرسطو وابن رشد ليبين أن الجدل هو القياس السائد فى أقاويلهما(١) . فبالنسبة لابن رشد يعرض لكتاب تهافت التهافت فيقول عنه انه « مظهر جلى للمسلك الجدلى »(٢) ومن أبرز الأمثلة التى يقدمها دليلا على ذلك ، « دليل الاختراع » عند ابن رشد الذى يستند الى مبدأ السببية :

---

(١) المرجع السابق ٦٩ ـ ٧٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

لكل مغلول علة ٠يقول صبحي ان هذه مقدمة يقينية بغير شك ولكنه سرعان ما يراجع هذا الحكم قائلا « لولا أن كانط ــ من بعد ــ قد اعترض على تطبيق هذا المبدأ خارج نطاق عالم الشهادة » وبرغم أن صبحى يقر أن هذا اعتراض شكلى وليس موضوعيا ، فانه يراه على حد تعبيره « يلقى الشك على وصف هذا الدليل بأنه برهانى »(١) بل ان مبدأ العلية او السببية نفسه الذى أصر ابن رشـــد على أنه يضفى الضرورة فى العلاقة بين المعلول والعلة ردا على الاشاعرة القائلين بمجرى العادة ،فان صبحى يرى أن هذا المبدأ لم يعد مقدمة برهانية بعـد أن « كفانا هيوم مشقـة مناقشتها أو بالأحرى استبعاد اليقين منهـــا »(٢) وصبحى لا يخلخل اليقين فحسـب فى المقـدمات الكلية الضـــرورية التى يستخدمها ابن رشـد لاجـراء قيـاس برهانى ، بـــل هـــو فى الحقيقـــة يذهب الى استبعاد المنطق الأرسطى عامة باعتباره وثيق الصلة بميتافيزيقا أرسطو إلتى تتعارض مع العقيدة(٣) ٠ ففى مبحث القضايا كما يقول صبحى ذهب أرسطو الى أن القضيـــة الكلية أفضل من الجـــزئية لأنه لا علم الا بالكلى .٠ وهذا قول يطرح اشكالا لا يستهان به أمام القضايا المتعلقة بالدين طالما أن الموضوع فيها ــ وهو الذات الالهية ــ ذات مفردة، ومن ثم فانه ملزم عن قول أرسطو أن العلوم الدينية ليست جديرة أن توصف بأنها علم .٠ وهذا حكم ــ على حد تعبير صبحى ــ لا يمكن السكوت عليه فى حضارة كان لفظ العلم (فى الأصل العـــالم وأظنها العلم) يعنى بالدرجة الأولى العلوم الدينية ٠ وهكذا طرحت فى الفكر الاسلامى حتمية رفض الاتجاه السلفى للمنطق الأرسطى »(٤) ٠

وينتهى صبحى من هذه الدراسة المستفيضة الى أن فلسفة ابن رشد لا تقوم على القياس البرهانى شأن جميع الفلسفات ، بل ان فلسفته « لم تقدم حلولا حاسمة لأى مشكلة فلسفية حتى توصف بأنها برانية » وبرغم أن ابن رشد لم يقل بازدواجية الحقيقة ، بل قال « بأن الفلسفة والدين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٨ ٠

(٢) المرجع والموضع نفسه ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٥ ٠

(٤) المرجع السابق ، ص ٨٦ ٠

كجانبى عملية واحدة مظهرا لحقيقة واحدة » فان فلسفته ـ كما يرى صبحى ـ قد طرحت لأول مرة ـ رغم هذا ـ مشكلة ازدواج الحقيقة ، ونمت بذرة هذه الازدواجية بين الدين والفلسفة فى الغرب بسبب فلسفة ابن رشد « لتمتزج بما ذاع فى عصر النهضة من أن الدين أساطير ولتتخذ الفلسفة مسارها نحو نزعة علمانية مستقلة عن الدين وتزدهر فيه الفلسفة ويخفت صوت الدين»(١) . هذا فى الغرب، أما فى الشرق، فلم تعد الصلة بين الدين والفلسفة فى الفكر الاسلامى فى وضع أفضل بعد ابن رشد مما كانت قبله .

وكان لابد من طرح جديد للقضية بعد المأزق الذى أصبحت الفلسفة فيه » وقد تم ذلك كما يقول صبحى باعادة صياغة الارتباط بين الدين والفلسفة بفضل دور الوساطة التى قام بها التصوف مما أدى الى الالتحام بينهما وتم فك الارتباط بين كل من المنطق والفلسفة من جانب والدين من جانب آخر نظرا لاختلاف صفة كل منهما ، واعادة صياغة الارتباط بالفلسفة الاشراقية واقصاء الجانب المشائى وترجيح الجانب الافلاطونى الافلوطينى باعتباره أكثر روحانية وأقرب الى طبيعة الدين »(٢) .

هذه هى النقاط الأساسية لهذه الدراسة الحاسمة فى نقدها بل نقضها للفلسفة الرشدية فى دعواها المنهجية بالقياس البرهانى وفى دعواها التوفيقية بين الشريعة والفلسفة . ولهذا تقدم الدراسة بديلا لها هى الفلسفة الاشراقية لحل مشكلة العلاقة بين الشريعة والفلسفة حلا صحيحا .

ولا شك فى جدية هذه الدراسة وفى دقتها واتساقها المنطقى واثارتها لقضايا بالغة الأهمية من ابرزها قضية المنهج الفلسفى وقضية العلاقة بالمنطق الأرسطى وقضية العلاقة بين الفلسفة والشريعة .

أما من حيث المنهج فصبحى على حق تماما فى قوله بان المنهج

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

الفلسفى عامة لا يقوم على القياس البرهانى المتمثل فى الشكل الأول للقياس ، ينطبق هذا على أرسطو كما ينطبق على ابن رشد ٠

والحقيقة أنه لم يكن فى حاجة الى بذل كل هـذا الجهد البحثى للتدليل على ذلك ٠ فابن رشد نفسه قد قال هذا بوضوح كامل فى كتاب « تهافت التهافت » ٠ يقول ابن رشد بعـد رده على قضية من قضـايا حدوث العالم التى يثيرها الغزالى فى كتابه « تهافت الفـلاسفة » : « وهذا كله ، فلا تطمع هنا فى برهان ـ فان كنت من أهـل البرهان فانظره فى موضعه ٠ واسمع ها هنا أقاويل هى أقنع من أقاويل هؤلاء ٠ فان لم تفدك اليقين فانها تفيدك غلبة الظن وتحركك الى وقوع اليقين فى العلوم »(١) ويقول فى موضع آخر من الكتـاب نفسه : « كل ما وضعناه فى هذا الكتاب ليس قولا صناعيا برهانيا ، انما هو أقوال غير صناعية بعضها أشد اقناعا من بعض ، فعلى هـذا ، ينبغى أن يفهم ما كتبناه هنا »(٢) ٠

وكتاب « تهافت التهافت » يغلب عليه الحجاج مع كتاب الغزالى « تهافت الفلاسفة » وكذلك الشأن فى كتابيه « فصل المقال » و « كشف الأدلة » دون أن يعنى هذا نفى الأقيسة البرهانية نفيا تاما فى هـذه الكتب الثلاثة ٠ فهى خليط من أقيسة جدلية وأقيسة برهانية ٠ ولـكن القضية التى نختلف فيها مع صبحى هى قصره القياس البرهانى على القضايا الرياضية وحدها ، وقصره القياس البرهانى على الشكل الأول فحسب ٠ حقا ، ان أرسطو يستمد الكثير من أمثلته عن القياس البرهانى من الرياضة ، ولكن هذا لا يعنى الترادف بين القياس البرهانى والرياضة ولا يقتصر القياس البرهانى عليها بل يمتد الى عـلوم أخرى ٠ يقول ابن رشد فى كتابه تلخيص البرهان « وأول الأشكال وأحقها أن يكون شكل البرهان هو الشكل الأول فان العـلوم التعليمية (أى الرياضة) انما تستعمل هذا الشكل ٠ ويكاد أن يكون جميع العـلوم التى تعطى

---

(١) ابن رشد : تهافت التهافت : القسم الاول ، ص ١١٣ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ٠

(٢) المرجع السابق ٠ القسم الثانى ، ص ٦٤٩ ، طبعة ١٩٦٥ ٠

سبب الشيء (٠٠٠٠) انما تأتلف براهينها فى هذا الشكل » ويقـــول « الشكل الأول أحق الأشكال بأن يكون شكل البرهان المطلق »(١) ٠

والقياس البرهانى ذو الشكل الأول الذى يتكلم عنه ابن رشد هو « البرهان الأتم » أو « البرهان المطلق » كما جاء فى النص السابق من كتاب «تلخيص البرهان»٠ ولكن الشكل الأول ليس هو القياس البرهانى الوحيد ـ فهناك مستويات متفاضلة للقياس البرهانى عددها وحددها ابن رشد فى كتابه «تلخيص البرهان» فهناك أشكال مختلفة غير الشكل الأول الأتم والمطلق مثل الجزئى والســـالب والموجب وقيـــاس الخلف وبالطبع أو بالأعرف الى غير ذلك مما فصله ابن رشد فى اشكال القياس فى هذا الكتاب ٠ هذا الى جانب أن القياس البرهانى حتى فى شكله الأتم والمطلق قد تسبقه مقدمات يقينية تؤسسه وليست نتيجة له ٠ فعلى حد قول ابن رشد ليس كل شيء يعلم بالبرهان بل ها هنا أشياء تعلم بغير توسط ولا برهان »(٢) وهى مبادىء البرهان التى توصل اليها العقل نفسه ٠ ولهذا يقول ابن رشد « وليس جنس آخر من المدركات أحق بالصدق من العلم الا العلم الحاصل عن المقدمات الحاصلة عن العقل ٠ ولذلك كانت مبادىء البرهان أكثر من باب التصديق من العلم الحاصل من البرهان ٠ ومبادىء البرهان لا تعلم بالبرهان وانما بالعقل»(٣) ٠ ولذلك فان العقل هو مبدأ المبادىء ٠ وفضلا عن هذا فان ابن رشد يجعل الطبيعة فى كثير من الأحيان سندا للبرهان اليقينى ، وما أكثر اشاراته الى ذلك فى أكثر من موضع فى كتبه ٠ ويقول ابن رشد « ان البرهان الذى فى غـــاية اليقين انما يكون من المبـــادىء التى هى أعرف عنـــد الطبيعة »(٤) ٠

خلاصة الأمر ، أن القياس البرهانى ذا الشكل الأول هو البرهان

---

(١) ابن رشد : كتاب تلخيص البرهان ٠ حققه د٠ محمود قاسم ، ص ٨٨ ٠ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٢ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٦ ٠

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٥ ٠

الاتم والمطلق ، وابن رشد يدعو الى استخدام هـــذا الشكل وصولا الى أقصى اليقين . ولكن هذا لا ينفى أنه فى الوقت نفســـه يستخدم اشكالا أخرى من الأقيسة الجدلية قد تكون مدخلا وتمهيدا لأقيسته البرهانية . بل قد تتداخل الأقيسة الجدلية والبرهانية فى كتاباته . المهم أننا نرى صحة ما يقوله صبحى فى أن كتـــابات ابن رشد الفلسفية لا تقوم على القياس البرهانى ذى الشكل الأتم ، ولكننا نختلف معه فى أن القياس البرهانى فى هذا الشكل الاتم وقف على القضايا الرياضية وأنه القياس البرهانى الوحيد . وسنجد هذا القياس البرهانى ذا الشكل الأول فى كتبه الأقرب الى العلم ، كما سنجد التداخـــل بين الأقيسة البرهانيـــة والجدلية فى كتبه الجـــدلية ، ولم يكن الأمر خافيا على ابن رشـد بل صرح به كما رأينا . وليست دعوة ابن رشد الى القياس البرهانى الأتم الا دعوة ـ كما ذكرت ـ الى ما يعتبره تمام المعرفة وتمام العلم . وفضلا عن ذلك فقد جعل العقل وحده مصدرا كذلك للمعرفة اليقينية السابقة على البرهان كما رأينا . الى جانب اتخاذه حقائق الطبيعة أساسا واختبارا لليقين . ولاشك فى النهاية أن فلسفة ابن رشد تستند الى منهج منطقى عقلانى عام تتنوع داخله الأقيسة والبراهين .

ولعل هذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه فى قراءتنا للمقالة السابقة حول العقل والنفس عند ابن رشد من أنه لا يمكن الوقوف عند تعريف أو قول محدد لابن رشد لنستخلص منه حكما عاما ، وانما لابد من النظر فى مجمل مذهبه قبل استخلاص هذا الحكم . على أن المسألة ماتزال تحتاج الى مزيد من البحث .

هذا عن النقطة الخاصة بالبرهان فى فلسفة ابن رشد . اما تناقض المنطق الأرسطى مع الدين الاسلامى لاستناد هذا المنطق الى ميتافيزيقا أرسطو كما يقول صبحى ، فقد قام ابن رشد نفسه بالرد على الحجة التى يقيم عليها صبحى رأيه . فصبحى كما سبق أن ذكرنا يرى أن القـــول فى مبحث القضايا فى ميتافيزيقا أرسطو أنه لا علم الا بالكلى يفضى الى القول بأنه لا علم بالذات الالهية المفردة . وبالتالى فالعلوم الدينية ليست جديرة بأن توصف بأنها علم .ولقد تعـــرض ابن رشد فى كتابه

« تلخيص البرهان » لذلك حيث يقول « أما الأشياء التى يعرض لنا أن نبين فيها المحمول على الكلى ، ونظن أنا لم نبينه ، فهى تلك الأشياء التى ليس يوجد منها الا شخص واحد فقط ، مثل السماء والأرض والشمس والقمر . فانه متى أقمنا برهانا على شىء من هذه أنه بصفة ما (...) فانا قد نظن أنا انما اقمنا البرهان على أمر شخصى لا على أمر كلى اذ كان ليس يوجد من هذه أكثر من شخص واحد . وليس الأمر كذلك . فانا لم نقم ذلك على الأرض بما هى مشار اليها وشخص،وانما أقمناه على الطبيعة الكلية الموجودة للأرض بما هى أرض سواء وجد منها أشخاص كثيرة أو لم يوجد»(١)، واذا كانت الصفة الكلية تطلق على الأرض والشمس برغم أن كلا منهما ذات مفردة ، فما أظن بحسب هذا المنطق ، يمتنع القول بالكلية على الذات الالهية كما يقول صبحى . لا تناقض اذن بين العلم الكلى والعلم بالذات الالهية ، ولا تناقض فى هذه النقطة على الأقل بين المنطق الأرسطى والدين الاسلامى . على أنه ليس من الجائز ـ من ناحية أخرى ـ للفكر الفلسفى أن يؤسس حججه على الدين والا خرجنا من الاطار العقلانى للفلسفة .

ويبقى بعد ذلك دحض صبحى ليقينية مبدأ السببية عند ابن رشد مستندا الى نقد هيوم وكانط ليقينية هذا المبدأ . والواقع أننا نستطيع أن نقول عكس ما قاله صبحى ، أى أن نقوم بنقد رأى كل من هيوم وكانط فى التشكيك أو الرفض لمبدأ العلية مستندين الى رأى ابن رشد ، وأن نجد فى الفكر الفلسفى المعاصر من يؤيد رأى ابن رشد ، كما نجد من يرفض هذه المسالة . أريد أن أقول بهذا ، أننا لا ينبغى ان نناقش مبدأ السببية عند ابن رشد بمذهب هذا الفيلسوف أو ذاك ، وخاصة ممن جاءوا بعده بقرون . وانما نناقشه من داخل مذهب ابن رشد نفسه ، وخاصة أن مبدأ السببية يكاد يشكل جوهر العقلانية فى فلسفة ابن رشد . « فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل » على حد قول ابن رشد(٢) . ولهذا فعندما يدحض صبحى مبدأ السببية عند ابن رشد فانه يدحض فى الوقت

---

(١) المرجع السابق ذكره : ص ٥٣ .

(٢) ابن رشد : تهافت التهافت : المرجع السابق ذكره ، القسم الثانى ، ص٧٨٥ .

نفسه عقلانيته . ولهذا كان من الطبيعى ألا يقف صبحى عند نقد أو نقض العقلانية الرشدية مكتفيا بذلك ، بل يقدم بديلا عنها هو الموقف الصوفى أو بوجه أدق الفلسفة الاشراقية التى هى الوجه المناقض تماما لفلسفة ابن رشد العقلانية ويعتبر هذه الفلسفة الاشراقية البديل الصحيح لفشل ابن رشد فى التوفيق بين الدين والفلسفة وأن يقول بفك الارتباط بين الدين والفلسفة .

واذا انتقلنا الى دراسة محمود حمدى زقزوق « **عن الحقيقة الدينية**(١) **والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد** » نكاد نجد موقفا مختلفا تماما مع موقف صبحى من فلسفة ابن رشد .

فى بداية الدراسة ، يدحض زقزوق ماتزال تردده المؤلفات الأوروبية المعاصرة – امتدادا لمؤلفات قديمة – من خلط بين موقف ابن رشد وموقف الرشدية اللاتينية فى القول بوجود حقيقتين متعارضتين هما الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية ، وأن نقطة بداية ابن رشد فى التوفيق بين هاتين الحقيقتين مستمدة من النظرية الافلاطونية الجديدة المتأخرة القائلة بوحدة الحقيقة . ولهذا تقوم دراسة زقزوق على تأكيد أن المنطلق الحقيقى لفلسفة ابن رشد ، بل للفلسفة الاسلامية عامة هو وحدة الحقيقة فى الاسلام نفسه . فالاسلام لا يقيم خصومة بين الدين والعقل .. فالعقل فى المفهوم الانسانى هو مناط انسانية الانسان ومعناه الجوهرى ، فضلا عن أن القرآن الكريم قد جمع جميع القضايا الفلسفية فى آية واحدة فى معرض الحث على النظر فيها وصولا الى الحق المطلق الذى هو غاية كل فيلسوف ، وذلك فى قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم الحق »(٢) اما اذا حدث نزاع أدى الى استبعاد العقل واضطهاد أهله فذلك انما يرجع الى اجتماع عاملين : (١) حين تكون لدى رجال الدين سلطة تمكنهم من اضطهاد العقل وأهله . (٢) حين يجرؤ العقل على اقتحام المنطقة الحرام التى حرمها رجال الدين . أما فيما عدا هاتين الحالتين فلا نزاع بين الدين

---

(١) كتاب « فلسفة ابن رشد » مرجع سابق ، ص ٩١ – ١١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

عامة وفكر ابن رشد خاصة.وعلى هذا فان التوفيق بين الدين والفلسفة فى الفلسفة الاسلامية عامة لم يأت من تأثر بمؤثرات أجنبية وانما كان اعتماده على الأصول الاسلامية الكامنة فى عقل ابن رشد وكيانه الدينى والفلسفى - على أن زقزوق وهو ينكر تأثر ابن رشد فى هذه القضية ، لا يعنى رفضه لتأثر ابن رشد بأى مؤثرات خارجية فى جوانب أخرى من فلسفته . ولكن المهم أن ابن رشد عالج هـذه القضية وهو مستمسك بالأصول الاسلامية ، ومن توازن النظر الى العقل والنقل فى الفكر الاسلامى . من هذا الموقف المبدئى انطلق ابن رشد - كما يقول زقزوق - يطبق نظريته التوفيقية على قضية وجود الله باعتبارها قضية ايمانية وفلسفية ، جامعا بين الطريقة الشرعية والطريقة العقلية فى وقت واحد. وهو يشير فى هذا الى دليل العناية ودليل الاختراع عند ابن رشد فى اثبات وجود الله فى كتبه الثلاثة : « فصل المقال » و « مناهج الأدلة » و « تهافت التهافت » ، فابن رشد فى هذه الكتب الثلاثة لم يحاول اعلاء الفلسفة على الدين أو العكس بل بيان ما بين الفلسفة والدين من اتفاق واتساق . فالحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية كلاهما وجهان لعملة واحدة(١) . بل ان زقزوق يرى أنه ليس ثمة خلاف بين ابن رشد والغزالى فيما يتعلق بقانون التأويل ، فقد قال به الغزالى من قبل ، بل ما قاله ابن رشد فى العلاقة بين الحكمة والشريعة يقوله أغلب الفلاسفة المسلمين . والاختلاف بين الفلسفة والدين عند ابن رشد لا يعدو أن يكون اختلافا لفظيا فحسب وليس اختلافا موضوعيا(٢) . وموقف زقزوق كما نرى هو على نقيض موقف صبحى الذى قال بفشل ابن رشد فى التوفيق بين الفلسفة والدين . والحقيقة أن زقزوق ينطلق من رؤية وسطية تسعى للتوفيق بين الفلسفة والدين . « فالحكمة - على حد قول ابن رشد - صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة» الا أن الدين فى الحقيقة هو المنطلق لهذه الوسطية عند زقزوق رغم قوله بالتوفيق بين الدين والفلسفة ، بل ما يشبه التطابق بينهما ، وقوله بأنه لا اعلاء عند ابن رشد للفلسفة على الدين ولا اعلاء للدين على الفلسفة . ولهذا تقتصر

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

فلسفة ابن رشد فى رؤية زقزوق على أنها منطلقة من قاعدة الدين ومنطلقة نحوه بتأويلها لبعض آياته . وهذا ما يجعل فلسفة ابن رشد أقرب الى علم الكلام المعتزلى منه الى الفلسفة . ولاشك أن فلسفة ابن رشد تنبر وتتحرك فى اطار الدين الاسلامى ، ولكنها ترتفع من حدود علم الكلام الى حدود فلسفية ، تجعل من العقل نقطة انطلاقها فى التأويل والنظر الى الوجود . فضلا عن أن قضـــايا الفلسفة ليست مقصورة على قضية العـــلاقة بن الفلسفة والدين ، بل هناك قضايا أخـــرى كانت موضع تكفير ابن رشد عند الغزالى مثل قضية قدم العالم وعلم الله بالكليات دون الجزئيات والمعاد ، الى جانب قضايا أخـــرى تتعلق بطبيعة العقـــل ومكوناته . بل حتى قضية العلاقة بين الفلسفة والشريعة عند ابن رشد ، لها خبىء سياسى وليست مجرد دعوة دينية للتوفيق بين الفلسفة والشريعة بل قد يكون مظهر التوفيق بينهما هو ذاته ما يؤكد التمايز بينهما من حيث المنهج وان التقيا فى النهاية فى الحقيقة الواحدة .

خلاصة الأمر أن اتخاذ المنطلق الدينى لقراءة فلسفة ابن رشد ، منطلق مشروع ، ولكنه لا يتيح لنا مجالا لتحديد خصوصية مفهوم العقلانية الرشدية وحدودها ومرتكزاتها ، اللهم الا أن نعتبرها عقلانية دينية ، كعقلانية أهل الكلام المعتزلى مثلا ، وليست عقلانية فلسفية أساسا .

ولن نبتعد كثيرا مع دراسة « **الفلسفة الرشدية : مدخل الى الثقافة الاسلامية**» لعبد الفتاح أحمد فؤاد عن الرؤية الدينية الغالبة التى طالعناها فى الدراسةالسابقة ، وان اختلفت طبيعة هذه الدراسة عن تلك الدراسة السابقة . فهذه الدراسة يغلب عليها الطابع الخطابى التوجيهى . ودراسة عبد الفتاح فؤاد تتصدى منذ البداية(١) لظاهرة التطرف الدينى التى تؤرق المفكرين وتزعج المسئولين — على حد قوله — لا فى مصر وحدها بل فى بعض بلدان العالم الاسلامى . ويدحض عبد الفتاح دعاة التطرف الذين يتدثرون بدثار الدين . ويرى أنها دعوة صريحة الى الجهل ونبـذ العلم وان كانت تنطلق باسم الاسلام والاسلام منها برىء بل يتهمها بأنها

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٧ — ١١٦ .

تستهدف تصفية الصحوة الاسلامية التى تحققت عقب هزيمة يونيه ٦٧ والتى كانت من أسباب الانتصار الكبير والعبور العظيم فى أكتوبر ٧٣ . وبعد أن قام عبد التفاح بتشخيص الداء كما يقول يقترح العلاج والوقاية وذلك بأن يدرس طلاب الجامعات والمعاهد العليا على اختلاف تخصصاتهم الثقافة الاسلامية . ويشير عبد الفتاح أنه قام بوضع أساس لمقررات الثقافة الاسلامية فى جامعة صنعاء فى اليمن وفى جامعة الملك فيصل بالرياض بالمملكة السعودية . ويقترح أن نضع فلسفة ابن رشد كأحد مداخل تدريس الثقافة الاسلامية لطلاب جامعاتنا ومعاهدنا لأن فلسفته ـ كما يقــول ـ تقوم على نبذ التعصب بشتى أشكاله ، ومحـــــاربة التطرف فى جميع ضروبه وذلك بفضل النزعة العقلية الواعية المتضمنة فى فلسفته . ويعرض عبد الفتاح لأفكار ابن رشد فى كتاب « مناهج الأدلة » بوجه خاص كما يشير الى أهمية العلم فى فكر ابن رشد ويحرص على تأكيد ضرورة ربط العلم بالعمل كما فعل مفكرو الاسلام وكما فعل ابن رشد . والدراسة هى عرض عام لفلسفة ابن رشد . مع الاشارة العامة كذلك الى عقلانيتها ذات التوجه النقدى ، دون تحديد لدلالة هذه العقلانية أو هذا التوجه النقــــدى .

ومع حامد طاهر فى دراسته لقضية « **العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد** »(١) انتقل الى دراسة من أفضل دراسات الكتاب ومن أكثرها جدة واتساقا ، ولعلها أن تكون من الاضافات الطيبة الى الدراسات الفلسفية المقارنة . وتقوم هــذه الدراسة على المقارنة بين فلسفة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين وفلسفة ابن رشد فى موقفيهما من العلاقة بين الدين والفلسفة . فلقد قامت دولة الموحدين على انقاض دولة المرابطين التى كانت تتسم بالســـلفية الضيقة ، على حين اتسعت دولة الموحدين بالعقلانية . ولقد تأسست دولة الموحدين فى البداية على فكر ابن تومرت ولكن سرعان ما تجاوزت هذا الفكر عندما استقرت . وابن رشد هو ابن هذه الدولة . ولقد تأثر بغير شك بمناخها العقلانى السائد وخاصة بعد استقرارها . ولقد اختلف ابن رشد مع فكر ابن تومرت

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩ ـ ١٤١ .

وان تأثر به كذلك ۰ وهنا يعقد حامد مقارنة بين فكر ابن تومرت فى بعض فصول كتابه « أعز ما يطلب » وبين افكار ابن رشد فى كتابيه « فصل المقال » و « مناهج الأدلة » ۰ يؤكد ابن تومرت أن الشريعة كيان قائم بذاته ، مستقل تماما عن العقل الانســانى ، وبالتالى فان ثبوتها لا يتوقف بحال على أحكام هذا العقل وبراهينه الخاصة به ۰ وهو يحصر الشريعة فى مجموعة من المصادر يطلق عليها أصولا وفروعا وهى عشرة أصول وخمسة فروع لا حاجة لتدخل العقل فيها ۰ وهى لا تؤخذ الا من القرآن الكريم والسنة النبوية ، فضلا عن الاجماع والقياس ، وان كان الاجماع والقياس متضمنين فى القرآن والســنة كما يرى ۰ ولهذا يقول حامد ان القياس عنده محدود بالقياس الشرعى وليس القياس العقلى ۰ ولهذا كذلك فان اثبات الشريعة يخضع خضوعا كاملا عند ابن تومرت – كما يقول حامد – للارادة الالهية دون أن يكون للعقل دور فيها ۰ على أن ابن تومرت قد اضطر الى الاعتراف بالنظر العقلى – كما لاحظ حامد – وامكان النظر العقلى فى مسألة واحدة لا يريد ابن تومرت للعقل أن يخطو أبعد منها وهى « دلالة المعجزة فى صدق الرسول » ۰ على أن ابن تومرت وجد نفسه فى النهاية مدفوعا الى الاعتراف بدور العقل وخاصة فى مجال معرفة الله تعالى ، ولكنه – كما يقول حامد – يقلص دوره الى أقل قدر ممكن وذلك عن طريق ما يسميه بالضرورة العقلية(١) وهى المبــادىء الأولية التى لا يتطرق الشك اليها ، وهى ضرورات ثلاث هى : الواجب والجائز والمستحيل ۰ وهى ضرورات مستقرة فى نفوس العقلاء ، ويستند فى القول بها الى بعض آيات من القرآن الكريم ۰ خلاصة الأمر ، أن ابن تومرت يقرر الاعتماد الأساسى على الشريعة ككيان مســتقل بذاته ومتضمن لادلته الشرعية ۰ ولهذا فما الداعى الى اللجوء الى العقــل الانسانى الذى يخطىء – وبين أيدينــا الشريعة وهى فى كل الأحوال صواب(١) ۰

وهنا ينتقل بنا حامد الى ابن رشد والى تعريف الفلسفة بأنها« النظر

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٩ ۰

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٠ ۰

فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على صانعها » كما جاء فى كتابه « فصل المقال » . ومن هذا التعبير يتبلور مفهوم الفلسفة الاسلامية كما يقول حامد . فهى فلسفة توحيدية تقوم على الايمان بالله وتسعى بناء على توجيهات الشرع نفسه الى اثبات وجود خالق للكون عن طريق تأمل الموجودات واعتبارها بواسطة العقل . على أن حامد ينتقد حصر ابن رشد مفهوم الاعتبار أو النظر القرآنى فى القياس العقلى ، ففى ذلك كما يقول « تضييق شديد ، فالنظر والاعتبار الوارد ذكرهما فى القرآن الكريم أوسع بكثير من ذلك النسق المنطقى المتمثل فى القياس العقلى وحده : فبعض هذا النظر حسى يقترب من الواقع ويكاد يلمسه ، وبعضه ذوقى ، ينفعل بالواقع ، ويعيش من خلاله تجربته الدينية . بل ان بعضه يأخذ شكل الحوار مع شخص آخر . فطرق التصديق متعددة وأساليب الايمان متفاوتة » وعلى هذا فحامد يرى أن منهج القياس العقلى يصلح تماما أن يكون طريقا للاعتبار ، ولكنه بالتأكيد ليس هو الطريق الوحيد(٢) . على أن ابن رشد كان حاسما لمن اراد أن يعلم الله سبحانه وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان ، فعليه أن يقوم بتعلم أنواع البراهين وشروطها . ويقوم ابن رشد بمشابهة هذا القياس البرهانى بالقياس الفقهى ، فكلاهما ضرورة لاكتساب المجهول من المعلوم . ويميز ابن رشد بين ثلاثة مناهج لمعرفة الله تعالى ، المنهج البرهانى ويخص به الفلاسفة والراسخين فى العلم ، ومنهج الجدل والمنهج الخطابى . ويشارك حامد ابن رشد فى دفاعه عن الفلسفة التى ماتزال تتعرض فى عصرنا الحاضر لما كانت تتعرض له فى القرن السادس الهجرى من هجوم معاصرى ابن رشد .

على أن خلاصة المقارنة التى قام بها حامد بين ابن تومرت وابن رشد ، هى أن ابن تومرت كان يسعى الى الحفاظ على العقيدة من تدخلات العقل الانسانى ، وأنه لم يكن لديه أدنى صدام بين ما يقرره الشرع وما يذهب اليه العقل ، لأن الشرع قام بذاته وليس فى حاجة الى العقل . لقد كان ابن تومرت كما يرى حامد يسعى لجذب الناس الى

---

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

مذهبه دعما لدولته فى بدايتها ومن هنـــا كان تركيزه على مبـــادىء الشريعة ٠ اما ابن رشد ، فلم يجد ضيرا من استخدام منهـــج القياس البرهانى للتدليل على صحة الشريعة ٠ وكـــان يدرك ما بين الشريعة والفلسفة من صدام ، ولكنه كان يسعى للتخلص من هذا الصدام باستخدام منهج التاويل ٠ فضلا عن أن ابن رشد عبر عن فلسفته فى وقت كانت قد استقرت فيه دولة الموحدين ، وكانت فى حاجة الى أن ترفع من شان العقل وتجعله أساسا لاتجاهها(١) ٠

ويرى حامد فى النهاية أن ابن رشد لم يعمل على اعلاء قيمة الأدلة العقلية ويقلل من شأن الشريعة ، وانما كان يسعى الى أن يثبت للناس أن الشريعة الاسلامية هى فى المقام الأول شريعة العقل ٠ وانه كلما أحسن الانسان استخدام عقـــله اســـتوعب على نحـــو أكثـــر كمالا هـــذه الشريعة ٠ كما يؤكد فى النهاية كذلك أن ابن تومرت اضطر فى مرحلة ما أن يعترف بالضرورة العقلية أى بالمبادىء الأولية للعقل ، هذا الى جانب البناء المنطقى « المدهش » على حد تعبيره الذى قدم به مذهبه وهو بناء عقلى من الطراز الأول وأنه أفاد من المنطق الأرسطى فى مبحث الحد ومبحث القياس ٠ وبرغم هجومه الشديد على العقل ـ كما يقول حامد ـ فقد استفاد من مناهج العقل المختلفة وجمع فى كتاباته بين الأدلة البرهانية والجدلية والخطابية ٠ أما ابن رشد فقد كان صريحا ـ على حد تعبيره ـ فى الاعلاء من شأن العقل وايجاد الصـــلة بين قوانينـــه البرهانية وبين احكام الشريعة ٠

ولاشك فى صحة هذا التقييم الأخير لابن رشد وكذلك لابن تومرت، وخاصة اشارته الى استفادة ابن تومرت من مختلف الأقيسة ٠ فالواقع أننا نجد عند ابن تومرت فى كتابه « أعز ما يطلب » الى جانب قوله بالضرورة العقلية العديد من الأسس العقلية فى مذهبه التى كانت بالفعل ارهاصا لعقلانية ابن رشد ٠ وفى تقديرى أن تاكيـــده على أن الشريعة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٣ ٠

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٠ ٠

كيان قائم بذاته لا تتوقف على أحكام العقـــل وبراهينه ، كان تمهيدا لابراز الفلسفة ككيان قائم بذاته كذلك عند ابن رشد ، أى فك الارتباط الكلامى بينهما دون أن يتعارض هذا أو يعوق الاتصال بينهما عن طريق التأويل • كما أننا سنجد كذلك عنـــد ابن تومرت بعض الأقيسة العقلية والمنطقية التى تعد بالفعل ارهاصا لفكر ابن رشد • فالنسق العام لفكر ابن تومرت يقوم على مبدأ الثالث المرفوع ، وهو يسود بنيته الاستدلالية عامة(١) • وفى تقديرى أن قوله بأن « القيـــاس الصحيح هو تساوى الغيرين(٢) فى الحكم » لا يقتصر على القيـــاس الشرعى كما يقـــول حامـــد(٣) وانما يعممه ابن تومرت على القياس العقـــلى كذلك • وفضلا عن ذلك فهو يقسم مبادىء العقل الى ثلاثة أقسام واجب وجائز ومستحيل ـ كما أشار حامد فى دراسته ـ فالواجـــب على ثلاثة أقسام القسم الأول هو وجوب انحصار الحقائق وهو يقصد بها فى تقديرى أن لكل شىء طبيعة تخصه وهو أساس من الأسس العقلية عند ابن رشد بل عند ابن خلدون فيما بعد • والقسم الثانى هو وجوب اطرادها أى تكرار حدوثها • وضرورة هذا التكرار والحدوث هو أساس مبدأ السببية عند ابن رشد وهو أساس عقلانية العالم عنده ، والقســـم الثالث هو وجوب اختصاصها بأحكام أى معرفتها وتعقلها • أما المستحيل فعلى ثلاثة أقسام قلب الحقائق ونقض الحقائق وبطلان الحصر • أما الجائز فهو متردد بين الواجب والمستحيل وهو جائز فى حقنا وعند الله واجب »(٤) ومعنى هذا فى تقديرى هو أن الجائز هو ما سوف يسميـــــه ابن رشد بالجائز الطبيعى ويستخدم فى توضيحه نفس المثال الذى استخدمه ابن تومرت أى جواز نزول المطـــر أو عـــدم نزوله ويقـــول عنه ابن تومرت انه واجب الهيـــا •

ولعلنا نجد اشارة عند ابن تومرت تنتقد « الذين ذهبـــوا الى أن

---

(١) ابن تومرت : كتاب أعز ما يطلب : ص ١٦٥ • الجزائر ، ١٩٠٣ •

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٦ ــ ١٦٩ •

(٣) فلسفة ابن رشد • مرجع سابق • مقال الدكتور حامد طاهر ، ص ١٥٣ •

(٤) ابن تومرت : المرجع السابق ذكره ، ص ١٩١ •

الشريعة لا حكمة فيها ، وأنها ليست على سنن العقل جارية ، طعنا فيهم فى الدين وجهلا بحكمة الله تعالى »(١) بما يعنى أن الشريعة تجرى على سنن العقل . وأشير أخيرا الى دحض ابن تومرت لمبدأ قياس الغائب على الشاهد وهو الرأى الذى سيتمسك به ابن رشد ويصبح مبـــدأ من أهم المبادىء العقلية عنده .

خلاصة الأمر أننا لا نستطيع أن نقلل من الجانب العقلانى عند ابن تومرت الذى كان فكره ارهاصا للعقلانية الرشدية ، ولعل كتاب ابن رشد « شرح عقيدة الامام المهدى » (أى ابن تومرت) أن يكون حاسما فى تحديد ذلك ، ولكنه فى حدود علمى كتاب مفقود للأسف .

ولاشك أخيرا فى أن هذه الدراسة المقارنة التى قام بها حامد طاهر تفتح الباب أمام دراسات مقارنة أخرى . ولكن يبقى السؤال عن حقيقة عقلانية ابن رشد . لقد أكد حـــامد فى مقارنته بين فلسفة ابن تومرت وفلسفة ابن رشد،أن ابن رشد قام باعلاء العقل واقام الصلة بين القوانين البرهانية للعقل وبين احكام الشريعة متطلعا أن يثبت للناس أن الشريعة الاسلامية هى فى المقام الأول شريعة العقل ، وأن فلسفته قد صمدت رغم ما تعرضت له من عداء واضطهاد واستمرت حتى عصرنا الراهن . ولهذا أكاد أرى أن مفهوم العقلانية الرشدية عند حامد يتراوح بين القيــــاس البرهانى والتوافق مع الشريعة .

مع دراسة زينب محمود الخضيرى « لمشروع ابن رشد الاســلامى والغرب(٢) المسيحى » ننتقل الى رؤية مختلفة تماما عن أغلب الرؤى الأخرى فى هذا الكتاب . فعلى حين أن الاتجاه العام لهذه الرؤى أن جوهر فلسفة ابن رشد هو التوفيق بين الشريعة والفلســـفة ، فان زينب الخضيرى تذهب الى أن جوهر المشروع الرشدى هو الفصل بين الشريعة والفلسفة . فبالرغم من أن قضية العلاقة بين الشريعة والفلسفة هى قضية ميتافيزيقية فى المقام الأول من حيث الظاهر ـ كما تقول ـ ولكنها أيضا

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٢) كتاب « فلسفة ابن رشد » : ص ١٤٥ ـ ١٦١ .

قضية مرتبطة بشدة بالجانب السياسى للاسلام . وهذا الجانب السياسى هو الذى كان المرتكز لمعالجة ابن رشد لهذه القضـــية . وهذا فى راى زينب الخضيرى الجديد الحق الذى أتى به ابن رشد . وعلى هذا ففلسفة ابن رشد ليست كما يقول أغلب الدارسين العرب مؤسسة على التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، كما أن قيمتها ليست كما يقول بعض المؤرخين الغربيين فى كونها شرحا أمينا لأرسطو . هذه هى الأطروحة الأساسية لدراسة زينب الخضيرى ، وان تضمنت الأطروحة بعض الاضافات العلمية مثل اكتشاف ازدهار الفلسفة الرشدية فى شرق أوروبا فى القرن الرابع والخامس الميلادى .

ان موقف ابن رشد كما ترى زينب الخضيرى هو موقف الفيلسوف المسلم الذى عانى من أزمة حضارته ورأى أن من واجبه أن يشارك فى حلها وأن يلعب دورا فى ذلك . فلقد استأثر علماء الكلام والفقهاء بالحياة السياسية والفكرية ، وانفردوا بحق تفســير العقيدة باعتبارهم حماتها وورثة الأنبياء واستأثروا بحق تحديد مفاهيم المجتمع وقيمه(١) ولهذا حاربوا الفلسفة التى كانت المصـــدر الثانى للفـــكر والقيم فى المجتمع الاسلامى آنذاك مما أدى الى تدهور شامل . تأسيسا على هذا ، كما ترى زينب الخضيرى - كان لابد للدولة الموحدية أن تؤكد هويتها وسلطتها بالاستعانة بسلطة العقل فى مواجهة سلطة الفقهاء وكان السبيل الى ذلك هو الفصل الصارم بين الفلسفة (العلم) وبين الفكر الدينى الذى كان عليه أن يقتصر على العناية بالعقيدة فى بساطتها الأولى(٢) . ولم يكن حماس ابن رشد لفلسفة أرسطو حماسا لنظرياتها وحقائقها - كما تقول زينب - وانما كان حماسا لمناهجها وقوامها العقل.وهكذا أصبحت الفلسفة العقلية الدعامة التى تقوم عليها دولة الموحدين . ولم يكن هذا الموقف موقفا فرديا يتبناه ابن رشد وحده بل كان موقف مؤسسة الحكم متمثلة فى الخليفة يعقوب بن يوسف والفيلسوف ابن طفيل اللذين اقترحا على ابن رشد تلخيص وشرح كتب أرسطو لتيســـير الفـــكر العقلانى للناس .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

وهكذا كان المشروع الفلسفى الرشدى ضرورة مجتمعية سياسية وان كانت مسئولية صياغة هذا المشروع هى مسئولية فردية قام بها ابن رشد ٠ ولهذا فعندما أخذت تتغير الظروف السياسية سرعان ما تخلت المؤسسة الحاكمة عن المشروع ، فكان حرق كتب ابن رشد ونفيه ٠ المهم أن الاضافة الحقيقية التى اضافها ابن رشد للفكر الفلسفى كما تقول زينب الخضيرى هى تفرقته الدقيقة بين الفكر الدينى والعقيـــدة ، أى تفرقته الدقيقة بين ما وضعه العقل الانسانى لتأويل العقيدة وبين العقيـــدة نفسها(١) وترى زينب أن الموقف الفلسفى الرشدى عندما انتقل الى الفكر السياسى المسيحى قام الآخذون به بتكييفه مع ظروف حضارتهم وعصرهم ٠ على أن الجوهر فيه كان هو محاولة الحد من سلطان رجال الدين ، أى الحد من السلطة الدينية والفصل بينهـــا وبين السلطة السياسية ، لأن أى دمج للسلطتين ستكون نتيجته الحتمية طغيان السلطة الدينية على السلطة السياسية(٢) ٠ وتنتهى دراسة زينب الخضيرى باشارة سريعة الى أن لابن رشد فلسفة فى التاريخ يمكن استخلاصها من نظريته من وحدة النفس العاقلة فى كـــل الجنس البشرى وهو ما يترتب عليه اعتقاده بأن الجنس البشرى يساهم أفراده على مر التاريخ فى بناء الحقيقة الواحدة الكلية(٣) ٠ وتكتفى زينب الخضيرى بهذه الاشارة السريعة البالغة الأهمية ، فضلا عن اشارتها السريعة كذلك الى ضرورة العناية بالناحية الفقهية فى فـــكر ابن رشد التى لم تتحقق حتى اليوم ، والتى ستقدم ـ كما تقول ـ تأويلات جديدة تماما لنسق ابن رشد الفلسفى(٤) ٠

ولعل هذه الاشارات الأخيرة تكشف بذاتها عن أن دعوة ابن رشد للفصل بين الشريعة والفلسفة ليست هى وحدها جوهر المشروع العقلانى لابن رشد ، وانما قد تكون من أبرز جوانب هذا المشروع ٠ ولكن لاشك أن النسق الفلسفى العام لابن رشد مايزال يحتاج الى مزيد من الدراسة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٨ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٠ ٠

(٣) المرجع والوضع نفسه ٠

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٦١ ٠

والتحديد . على أن زينب بدراستها هذه قد أضاءت عـــدة أمور فى محاولتنا التعرف على معالم العقلانية الرشدية . الأمر الأول كما ترى زينب الخضيرى هو أن جوهر الفلسفة عنده هو المنهج لا المذهب . أما الأمر الثانى فهو موقفه السياسى العملى الذى أفضى به الى القول بالفصل بين الدين والفلسفة أو بين الدين والعقل . أما الأمر الثالث فهو أنه ليس صاحب رؤية فلسفية نهائية مغلقة ، وانما صاحب رؤية ذات بعد تاريخى انسانى شامل يشارك فى صياغته أفراد الجنس البشرى على مر العصور. وهذه الأمور الثلاثة تغنى بغير شك مفهوم العقلانية عند ابن رشد وان تكن ماتزال فى حاجة الى مزيد من التحديد .

والدراسة التالية هى دراسة عاطف العراقى(١) عن « **ابن رشد فى فكرنا العربى المعاصر** » وقد قدم العراقى فى هذه الدراسة عرضا تفصيليا لفلسفة ابن رشد العقلانية ذات النزعة النقدية على حد قوله ، داعيا الى الاستفادة من تراثه فى فكرنا العربى المعاصر . وكنت فى الحقيقة أتمنى لو جاءت هذه الدراسة فى مدخل الكتاب . فهى دراسة افتتاحية دفاعا عن عقلانية ابن رشد وتأكيدا لها . ولعل العراقى أراد أن يفسح الكتابة للدارسين مكتفيا بكتابيه القيمين « النزعة العقلية عنـــد ابن رشد » و « المنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد » . ففى نهـــاية كتابه « النزعة العقلية عند ابن رشد » يحدد عقلانية ابن رشد فى النقاط التالية(٢) :

- ان نظريته فى المعرفة ترتفع من المحسوسات الى المعقولات.
- ان مذهبه فى العقل والوجود يقوم على الارتباط بين السبب والمسبب ورد كل شىء فى العالم الى أسباب تدرك بالعقل .
- وآراؤه عن العقل والانسان تقوم على أساس التسليم بنواميس الكون والاعتراف بالخصـــائص الضرورية لكل شىء وتأثير الانسان فى حوادث العالم .
- ونزعته فى مجال العقل والله تستند الى البرهان .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٥ ـ ١٧٧ .

(٢) عاطف العراقى : النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد : ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ . دار المعارف الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢ .

- وأدلته على وجود الله ترد كل موجود الى أســبابه المحددة وتربط بين أجزاء الكون برباط ضرورى محكم وتستند الى تقرير مبدئى الحكمة والغائية ٠
- كما تتجلى نزعته العقلية فى تفضيله الأدلة البرهانية على الأدلة الخطابية والجدلية وقوله بقوانين التاويل ، كما تجلت نزعته العقلية فى دراسته لخلود الروح وفلسفة الموت وبعث الرســل ٠

وهى عناصر أساسية فى عقلانية ابن رشد سواء من حيث المنهج أو المذهب ، وان كانت تحتاج الى أن تنتظم فى نسق موحد وأن تتحدد فيها ركائزها الأساسية ٠

ننتقل بعد ذلك الى دراسة سعيد زايد عن « ابن رشد وكتابه تهافت التهافت »(١) يبدأ سعيد دراسته باحصـــاء دقيق لتراث ابن رشد من جوامع وتلاخيص وشروح ومختصرات فى الفقه والكلام والمنطق والفلسفة٠ ثم يعرض لكتاب « تهافت التهافت » ملخصا أبرز قضاياه الأساسية كقضية التوفيق بين الدين والفلسفة ، وقضية الفلسفة الطبيعية والفلسفة الالهية ثم يعرض للأقوال الثلاثة التى كفر بها الغزالى القائلين بها ٠ ونتبين من تلخيص سعيد أنه من القائلين بأن فلسفة ابن رشد تقوم على التوفيق بين الشريعة والفلسفة أو بين الدين والعقل ، وأن الوحى ـ كما جاء فى نص من نصوص ابن رشد ـ يتمم ما عجز عنه العقل ٠ يقول ابن رشد « ان العلم المتلقى من قبل الوحى انما جاء متمما لعلوم العقل ، أعنى أن كل ما عجز عنه العقل أفاده الله تعالى من قبل الوحى » ويستخلص ســعيد من هذا أن الايمان والمعرفة العقلية شىء واحد عند ابن رشد(١) ٠ على أنه ينتهى من دراسته مؤكدا أن المنهج الذى اتبعه ابن رشد فى فلسفته كلها هو « المنهج العقلى الدقيق ، فقد كان يرى أن للفليسوف دين العقل والبرهان الذى يستطيع به أن يشترك فى حياة العقل الفعال وأزليته »

---

(١) فلسفة ابن رشد : سبق ذكره ، ص ١٨١ ـ ٢٠٠ ٠

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٢ ٠

مشيرا بهذا النص الى كتاب ليون جوتييه عن ابن رشد ، مع أن جوتييه - كما هو معروف - فى دراسته لكتاب « فصل المقال » لابن رشد انتهى الى القول بأن ابن رشد جعل الدين تابعا للفلسفة ٠ وهذا مالا يستقيم مع مفهوم سعيد حول وحدة الايمان والمعرفة عند ابن رشد ٠ على أن الدراسة بشكل عام دراسة جادة وتستوعب العناصر الأساسية لفلسفة ابن رشد ، وهى تؤكد فى النهاية على عقلانية ابن رشد - كما ذكرنا - ولكنها لاتحدد معنى دين العقل والبرهان ، أو حدود العقلانية ودلالتها عند ابن رشد ٠

ومع على عبد الفتاح المغربى ننتقل الى دراسة علمية مقارنة عن « مفهوم(٢) **التأويل بين الأشعرية وابن رشد** » ٠ والدراسة تكشف عن مدى الدقة العقلية والعلمية التى توخاها ابن رشد فى التأويل ادراكا منه لخطورته ولأهميته معا ٠ ولهذا كان أحرص من الأشاعرة فى استخدام التأويل كما يقول على عبد الفتاح ٠ فقد حدد له قواعده ومبادئه وميز بين الحالات التى يجوز فيها التأويل والحالات التى لا يجوز فيها ٠ بل ميز كذلك بين من يجوز معهم ولهم التأويل ومن لا يجوز لهم ٠ بل لعله توقف عن التأويل فى أمور حتى لا يلغى دافعا من الدوافع التى تنشط الناس على العمل وحسن السلوك ٠ وهذا على حين أن الأشاعرة اطلقوا التأويل وأشاعوه من الناحية العملية بين الناس جميعا ٠ وفضلا عن هذا فقد كان ابن رشد فى تأويله متسامحا مع المختلفين معه ، يسعى لكشف أوجه الاتفاق والتلاقى الممكنة ٠ وكان موقفه التأويلى يجمع بين ثقافته الفقهية وثقافته الفلسفية ٠ والواقع أن هذه الدراسة المقارنة القيمة للتأويل بين الاشاعرة وابن رشد تكشف بعدا من أبعاد عقلانية ابن رشد ٠ فعقلانيته التأويلية لا تقوم فحسب على وجود باطن وظاهر ، فى الدين ، وانما تقوم كذلك على أساس موضوعى هو وجود تفاوت بين مدارك البشر ، لابد من مراعاته ٠ ولهذا فعقلانيته ليست عقلانية نظرية مجردة رغم تطلعها الى البرهانية اليقينية ، وانما هى كذلك ذات عمق عملى مسئول، فيه ادراك ومراعاة لما بين الناس من اختلاف فى مدارك العقول ، واحترام هذا الاختلاف ، والحرص على الا يتعارض التأويل مع

---

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ - ٢٣٦ ٠

ما تقتضيه ضرورات العمل واستقرار المجتمع ، والبعد عن التشويه العقلى، فضلا عن التسامح بين الافكار المتعارضة ، والحرص على اكتشاف ماهو مشترك بين هذه الأفكار • وهكذا ، فان هذه الدراسة القيمة رغم أنها محدودة بحدود المقارنة بين التأويل الأشــعرى والتأويل الرشدى فانها تضيف بعدا عمليا ومجتمعيا وأخلاقيا وذرائعيا الى أبعاد العقلانية الرشدية فضلا عن البعد التاريخى والسياسى الذى ابرزته لنا من قبـــل دراســة زينب الخضيرى •

ومع زينب عفيفى شاكر ننتقل الى جانب عملى آخر فى فلسفة ابن رشد هو « مشكلة الحرية فى فلسفة ابن رشد »(١)•ولعل معالجة ابن رشد لمشكلة الحرية أن تكون من أبرز وألمع الاضافات العقلية فى الفكر العربى الاسلامى • وقد استطاعت زينب شاكر فى دراستها عن مشكلة الحرية فى فلسفة ابن رشد أن تبرز الأسس الموضوعية التى اقام عليهــا ابن رشد مفهوم الحرية ، وبالتالى أعطى لقضية القضاء والقدر بعــدا جديدا • فلقد ربط ابن رشد بين الايمان بالقضاء والقدر ونظريته فى السببية التى هى بدورها مناط العقل عند ابن رشد (فمن رفع الأسباب فقــد رفع العقل) كما ذكر فى كتابه « تهافت التهافت »(٢) • لقد رفض ابن رشد آراء الجبرية الذين يقولون بأن أفعال الناس ليست من صنعهم وانما من خلق الله ، مستندين فى هذا الى قــدرة الله المطلقة ، كما رفض آراء المعتزلة القائلين بالاختيار مستندين فى ذلك الى العدالة الالهية ، اذ أن عدل الله يقتضى ألا تكلف الا من كان حــرا ، كما رفض آراء الأشاعرة القائلين بحل وسط بين القائلين بالجبر والقائلين بالاختيار هو قولهــم بالكسب • فالله بحسب هذا القول يكسب الانسان القدرة على أن يحقق ارادته• واذا كان الرأيان الأول والأخير لا يختلفان ـ من حيث الجوهر ـ فى تغييب ارادة الاختيار ، فان الموقف المعــتزلى ـ وأن اتسم بطابع الاستقلال الذاتى وحرية الارادة ـ فان هدفه كان مجرد الربط بين الفعل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤١ ـ ٢٦٠ •

(٢) ابن رشد : تهافت التهافت • القسم الثانى . ص ٧٨٥ ، دار المعارف ، ١٩٦٥ •

الجزاء ، ولكنه لا يقدم تفسيرا لا لطبيعة الفعل نفســـه من ناحية ولا حقيقة القضاء والقدر من ناحية أخرى - وهنا يقدم ابن رشد تفسير لعقلى الموضوعى للحرية الانسانية . فالفعل الانسانى عنـــد ابن رشد يس فعلا عشوائيا وانما هناك قيود وحدود وضرورات تتمثل فى السببية لتى تسود عالم الموجودات جميعا - الطبيعة منها والانسانية . فلكل شئ طبيعة تخصه ، كما كان يقول ابن تومرت وكما يؤكد ذلك ابن رشد . لهذا تختلف الاشياء وتتفاوت . وهى ليست مستقلة عن بعضها البعض وانما تقوم بينها علاقة السببية التى تتشكل منها نواميس وقوانين الوجود الكون عامة . والفعل الانسانى مشروط بعـــلاقة السببية بين القوانين داخل الانسان ، والقوانين خارجه . ولهـــذا فالحرية محكومة بهـــذه لقوانين التى سنها الله للكون والتى تجرى على نظام محدد . وعلى هذا - كما تقول زينب شاكر - فان أفعالنـــا ليست اختيارية مطلقة وليست جبارية مطلقة ، وانما تجمع بين الاختيار والجبر . ويقول ابن رشد « لما كانت الأسباب التى من خارج تجرى على نظام محدود ونظام منضود لا تخل فى ذلك بحسب ما قدرها بارئها عليه ، كانت ارادتنا وأفعالنا لا تتم الا بموافقة الأسباب التى من الخارج . فواجب أن تكون أفعـــالنا تجرى على نظام محدود (....) وانما كان ذلك واجبا لأن أفعالنا تكون مســـببة عن تلك الأسبـــاب التى من الخـــارج . وكل مسبـب مكـــون من أســـباب محـــدودة مقـدرة فهو ضرورة محددة مقـــدرة (....) والنظام المحدود الذى فى الأسباب الداخلة والخارجة أعنى التى لا تخل هو القضاء والقدر الذى كتبه الله على عباده »(١) والواقع ان ابن رشد قد جعل من القضاء والقـــدر الضرورة الموضوعية التى تصدر الحرية الانســـانية عنها ، لا فى تناقض معها وانما فى توافق ومراعاة لها . أى أنه أقام القضاء والقدر على أساس موضوعى واقعى . ولعل ابن رشد كان سابقا فى هذا - مفهوم العلاقة بين الحرية والضرورة عند كل من سبينوزا وهيجل . الا أن هذا المفهوم العقلانى الموضوعى للحرية عند ابن رشد مرتبط بأمرين آخرين : أولهما هو اقامة الأخـــلاق على أساس

---

(١) ابن رشد : « مناهج الادلة » ص ٢٢٦ - ٢٢٧ نقلا عن دراسة الدكتوره زينب شاكر فى الكتاب ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

موضوعى وثانيهما هو اتخاذ هذه الحـــرية الموضوعية مرتكزا ضروريا للعمل السياسى ولتحقيق العدل بين الناس ٠ وهكذا نستطيع القول بان الحرية كمفهوم نظرى عند ابن رشد يتأسس على الموضوعية الانطولوجية من ناحية ، ويتأسس عليه السلوك الأخلاقى والسياسى والعدل الاجتماعى من ناحية أخرى ٠ أنه يجمع بين ثنائية الحرية والضرورة ، وثنائيـــة الطبيعى وما وراء الطبيعى وثنائية الذاتى والموضوعى ٠ وبهذه الدراسة عن مفهوم الحرية عند ابن رشد تزداد معرفتنا بهذه الثنائيات المتضايفة التى تسهم فى تغذية مفهوم العقلانية الرشدية ٠

على أننا مع نبيلة زكرى زكى نرتفع من هذا الجانب الانسانى فى فلسفة ابن رشد الى الجانب الالهى فى فلسفته ٠ ففى دراستها « ابن رشد والمؤثرات اليونانية فى فلسفته الالهية »(١) ٠ تقوم نبيلة زكرى بمتابعة تفصيلية دقيقة لمدى تاثر ابن رشد ببعض فلاسفة اليـــونان فى مختلف جوانب فلسفته الالهية ، وان كانت تركز على الأثر الأكبر لأرسطو فى حدود منهجه العقلانى أساسا مع تحديد الفروق بينهما التى ترجع ـ كما تقول ـ الى حرص ابن رشد على التوفيق بين الشريعة والفلسفة ٠ فابن رشد ـ كما تقول بحق ـ لم يكن مجرد شارح لأرسطو وانما أضاف أفكارا جديدة ٠ ولقد تابعت نبيلة زكرى شروح ابن رشـد على أرســطو مبينة منهجه العقلانى فى هذا الشرح ٠ ثم أخذت تعرض للمؤثرات اليونانية فى فلسفة ابن رشد ، وفى مقدمة تلك المؤثرات مشـــكلة قـدم العـالم وما تتضمنه من مفهومى الأزلية والأبدية ، وارتباطهما بالقوة والفعل والحركة المستمرة ٠ ثم تنتقل بعد ذلك الى المؤثرات اليونانية فى أدلة وجود الله واستعانة ابن رشد ببعض الأفكار الأرسطية فى قوله بهذه الأدلة مثل فكرة الحد والبرهان والقوة والفعـــل والسببية ، ورفض المصادفة والاتفاق ٠ ثم مشكلة الذات والصفات التى استند اليهـــا ابن رشد كذلك على بعض جوانب من فلسفة أرسطو ، ومشكلة الخير والشر ، والقضاء والقدر وفكرة الجواهر والاعراض ومشكلة خلود النفس وان كان حل هذه المشكلة يقترب من رأى افلوطين كما تقول نبيلة زكرى ٠ وتكاد فلسفة

---

(١) كتاب ابن رشد : السابق ذكره ، ص ٢٦٥ ـ ٢٩٤ ٠

ابن رشد الالهية بحسب هذه الدراسة أن تكون صدى للفلسفة الالهية الأرسطية مع بعض تعديلات بما يتفق مع الدين الاسلامى وهى قضية تحتاج الى مناقشة وان كان هذا المجال لا يسمح بها . وخاصة أن هدفنا هو تحديد دلالة العقلانية فى فلسفة ابن رشد . وتتمثل العقلانية الرشدية عند نبيلة زكرى فى ثلاثة أبعاد : البعد الأول هو استخلاص المعانى الكلية من المحسوسات . والبعد الثانى هو الذى يتخذ شكل القياس البرهانى الذى هو اثبات نتيجة يقينية من مقدمات يقينية والبعد الثالث هو سيادة مبدأ العلية .

وبانتقالنا الى دراسة سعيد مراد عن « ابن رشد بين حضارتين »(١) نكاد ننتقل الى دراسة مناقضة تماما للدراسة السابقة . ودراسة سعيد تعد بحق - على حد تعبيره - سيرة ممتدة من دخول الاسلام الأندلس الى ظهور ابن رشد ، بهدف تحديد معالم الموروثات الحضارية والتراكمات الثقافية العربية الاسلامية المختلفة التى شكلت عقل ابن رشد . وتبدا هذه المسيرة بالتعرف على بنية ابن رشد الفكرية ، من حيث النشأة ، ثم تنتقل منها الى الاطار العام للحضارة العربية الاسلامية فى تجلياتها السياسية والاجتماعية والثقافية ، مع الحرص على عرض الدور الذى قامت به ملوك الطوائف فى كل مدينة من مدن الأندلس على حدة ، لننتهى الى دولة الموحدين لنتعرف على فلسفتها السائدة وعلاقة ابن رشد بها . ثم نتعرف تعرفا تفصيليا كذلك على مظاهر الحضارة العربية الاسلامية عامة فى الأندلس فيما كانت تمتلىء به من مكتبات وأنشطة علمية وثقافية وفلسفية ودراسات دينية وفنون معمارية وآداب مختلفة . ثم تأخذ الدراسة فى تحديد عناصر الحضارة العربية الاسلامية فى فكر ابن رشد فى العلوم الدينية وفى الفلسفة مع الاشارة السريعة أخيرا الى اتصال الحضارة العربية الاسلامية بالحضارة الغربية اليونانية ، فتعرض لحركة الترجمة وتحولها من الطابع الفردى الى الطابع الجماعى ومن المبادرة الذاتية الى التوجه الرسمى بتشجيع الخلفاء والأمراء للمترجمين . ثم نتعرف على قصة تكليف خليفة الموحدين باقتراح من ابن طفيل على ابن رشد

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٠١ - ٣٥٥ .

بتلخيص كتب أرسطو ٠ على أن ابن رشد لم يقف عند حدود آراء أرسطو وانما عرض آراء جديدة وطريفة ــ كما يقول سعيد ــ من خلال الشروح والتلاخيص ٠ ويختتم سعيد دراسته المستفيضة بالتأكيد على حقيقتين : الأولى هى أن الثقافة العربية الاسلامية هى القاعدة الأصلية فى تكوين العقل العربى الاسلامى لابن رشد ٠ ولهذا يفسر سعيد تكريسه لــ « قدر اكبر ومساحة أوسع » فى دراسته للثقافة العــــربية الاسلامية « اذ ان الغالب على الدراسات وضع ابن رشـــد فى اطار غربى أكثر من الاطار العربى الاسلامى وهذا خلف وقلب للمعايير » على حد تعبيره(١) ٠

أما الحقيقة الثانية فان ابن رشد عرف الفكر الغربى اليونانى وعاشه دارسا وناقدا وشارحا ومعلقا ٠ الا أن المنتج الذى انتجته هذه الدراسات كان ذا طابع فريد ومميز ٠ وقد تولد ذلك بفعل الاعتصار العقلى والمخاض الفكرى الذى عاشه فيلسوف قرطبة من أجل الحقيقة ذاتها ووصولا الى الحق الذى جاهر بحبه له ذاته من غير نظر الى قائله أو الاهتمام بعقيدة من يقول الحقيقة ٠

والملاحظ أن هذه الدراسة المستفيضة قد حرصت ــ كما يقول سعيد نفسه ــ على ابراز الجذور العربية الاسلامية لفكر ابن رشد ، ولم تهتم الا اهتماما هامشيا بالأثر اليونانى الأرسطى فى فكر ابن رشد على خلاف الدراسة السابقة كما ذكرنا من قبل ٠ فنصيب الحديث عما يسميه ســعيد بالحضارة الغربية اليونانية لا يزيد عن أربع صفحات وسبعة أسطر فى دراسة تبلغ ٥٤ صفحة ٠

ولم يكن الأمر اعتباطا وانما هو رد فعل على الدراسات التى تضع ابن رشد فى اطار غربى أكبر من الاطار العــــربى الاسلامى كما يقول سعيد ٠ ولاشك أن ابن رشد هو ابن الحضارة العربية الاسلامية وامتداد لتراثها ٠ ولقد استطاع سعيد أن يبرز هذا فى دراسته التفصيلية ٠ ولكنه فى الجانب المتعلق بأثر الفلسفـــة اليونانية اكتفى بالأحكام العامة دون

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٥ ٠

التحديد الموضوعى مما يكاد ينفى الأثر العميـــق للفلسفة اليونانية فى الفلسفة العربية الاسلامية عامة وفى فلسفة ابن رشد بوجه خاص ٠

وهكذا ، اذا كانت نبيلة زكرى قد غالت فى أثر أرسطو فى الهيات ابن رشد وان استندت فى أغلب الأحيان على مقارنة النصوص والأفكار ، فان سعيد قد غالى فى التهوين من الأثر الأرسطى ولكن دون أن يستند فى ذلك الى دراسة مقارنة مكتفيا بالاحكام العامة ٠ وأكاد أقول ان دراسة سـعيد مراد قد غلب عليها منهجيا طابع الايديولوجية القومية ذات البعد الدينى ٠ ولعل استخدامه لكلمة « الغربية » وصفا للفلسفة اليونانية مما يدعم هذا الرأى ٠ فهو استخدام حديث يعبر عن موقف ثقافى من الحضارة الغربية الراهنة ٠ ومع تقديرى للجهـــد الكبير المستفيض الذى قام به سعيد ، فاننا لم نستطع أن نتبين رؤيته المحددة لعقلانية ابن رشد بقدر ما تعرفنا على الجذور العربية الاسلامية لفلسفته عامة ٠

ومع مرفت عزت بالى ننتقل الى موضوع محدد هو « موقف ابن رشد من مشكلة الخير والشر »(١) ٠ وبالرغم من أنه موضوع محدد فان مرفت عزت حرصت أن تتبين معالمه فى الجوانب المختلفة من فلسفة ابن رشد ، الالهية منها والطبيعية وما وراء الطبيعية ٠ والحقيقة أنه موضوع اشكالى ٠ ففى آيات القرآن الكريم ما يقول ظاهرها بأن الله هو الخالق لافعال الناس خيرها وشرها وهو ما يقول به الأشاعرة ٠ وفى آيات أخرى ما يؤكد وصف الله بالعـدل ونفى الظـــلم عنـــه ٠ وهو ما يقـــول به المعتزلة ٠ ولا يجد ابن رشد مخرجا من هذا التناقض الظاهرى الا بضرورة تأويل الآيات ٠ فالله بحسب تأويل ابن رشد هو الخالق حقا للخير والشر بما أودع فى الناس من استعداد لفعل الخير والشر ٠ على أن الله هو خالق للخير لذات الخير ، وخالق للشر لذات الخير أى من أجل أن يقترن به من الخير ٠ وعلى هذا فان خلق الله للشر انما هو عدل منه ٠ ومثال ذلك أن النار خلقت لما فيها من قـــوام الموجـــودات التى ما كان يصح وجودها لولا وجـــود النار ٠ ولكن وجودها يسبب فســـادا فى بعض

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٥٢ ـ ٣٧٢ ٠

الموجودات «ولكن اذا قيس بين ما يعرض عنها من الفساد الذى هو شر وبين ما يعرض عنها من الوجود الذى هو خير لكان وجودها أفضل من عدمها ، فكان خيرا . على أن مرفت عزت ترى مسألة الخير والشر مرتبطة بمسألة علم الله عند ابن رشد . فعلم الله عنده يختلف عن علم البشر . والله يعلم الاشياء بعلم واحد فى الأزل والأبد . وعلمه لا يستمد من الموجودات ، لأنه الفاعل لها ، وهو مدبر هذا الكون ، ولهذا فكل ما فى الوجود هو خير محض عن ارادته وقصده(١) . أما الشرور فوجودها ضرورة لوجود الهيولى أى المادة فى الكون . فالشر والخير موجودان ولا يمكن أن يكون وجود بدونهما . وهكذا ترتبط مسألة الخير والشر بمبدأ العناية الالهية أى بالبنية الغائية للوجود . كما ترتبط كذلك بمشكلة السببية . وفى هذه الدراسة نتبين ارتباط القيم الأخلاقية كالخير والشر بالأسس الموضوعية لرؤية ابن رشد الفلسفية الشاملة . فالخير والشر موجودان وكلاهما ضرورى للآخر ضرورة موضوعية . وهما فى وجودهما مرتبطان بالبنية السببية للكون من ناحية وبالبعد الميتافيزيقى للعالم القائم على غائية الكون والعناية الالهية التى تشمله من ناحية أخرى . بهذه الرؤية الشاملة التى قدمتها مرفت عزت لمشكلة الخير والشر ، نتبين البعد العقلانى فى معالجة ابن رشد للقيم الأخلاقية والسلوكية ، كما سبق أن تبينا هذا البعد العقلانى فى معالجة لقيمة سلوكية أخرى هى الحرية فى مقالة زينب عفيفى .

ومع منى أحمد أبو زيد فى دراستها عن « ابن رشد طبيبا »(٢) ننتقل من الفلسفة الاخلاقية والسلوكية الى الفلسفة الطبيعية . على أن هذه الدراسة لا تقتصر على الطب عند ابن رشد ، وانما تشير فى البداية الى علم الفلك عنده . والملاحظة المهمة التى تبرزها منى أبو زيد هى ان ابن رشد يقارب بين علم الفلك والفلسفة ويقارن بينهما فيضع علم الفلك ضمن العلوم الفلسفية ويطبق بالتالى نظرياته عليه . وتشير الى أن ابن رشد يرى أن هذا العلم يشارك فيه المنجم - أى الفلكى - مع

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦٥ - ٣٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٥ - ٣٩٣ .

الفيلسوف الدارس للطبيعة . فالطبيعى والمنجم يشاركان فى النظر فى هذه المسائل . ولكن المنجم فى الأغلب يشرح الكيفية ، على حين أن الطبيعى يشتغل بتعليل ذلك . فلا يبعد أن المنجم فى الأغلب يأتى بعلة غير العلة الطبيعية ولهذا تختلف كيفية التعليل التى يبحث عنها الطبيعى عن كيفية التعليل التى يبحث عنها المنجم . ومن هنا نتبين أن التعليل هو أساس النظرية الفلسفية للطبيعة الفلكية . وهذا ما يعطى لها الطابع العلمى . وسوف نجد الأمر نفسه فى هذه الدراسة عن الطب عند ابن رشد . فالطب عنده هو جزء من الفلسفة وهو مبحث فيه من زاوية أموره الكلية لا الجزئية التى اهتم بها معاصره ابن زهر . ولهذا يقول ابن رشد فى نهاية كتابه « الكليات »(١) بعد اشارته الى ابن زهر « ولا حاجة لمن يقرأ كتابنا هذا الى ذلك ، بل يكفيه من ذلك مجرد العلاج . وبالجملة ، من تحصل له ما كتبناه من الأقاويل الكلية يمكنه أن يقف على الصواب والخطأ من مداواة أصحاب الكنانيش فى تفسير العلاج والتركيب »(١) . وبهذا القول يكاد ابن رشد يجعل الأقاويل الكلية هى العلم النظرى للطب ، ويقصر الكنانيش على العمليات العلاجية . ولهذا نجد فى كتاب الكليات تعاريف لمختلف عناصر علم الطب ، كما نراه يحتم معرفة المنطق وشروطه فى طرق القياس والاستنتاج لكى يتمكن الطبيب من ممارسة مهنته . ولكنه فى الوقت نفسه يحتم ضرورة الجمع بين القياس والتجربة ، ويرى ضرورة تطبيق هذا بوجه خاص فى محاولة تحضير الأدوية وطرق استخدامها ويضع شروطا عملية محددة ، لاختبار الدواء ولتعاطيه . وهو يؤسس ذلك على رؤيته للاختلاف والتفاوت بين الأفراد فى استجابتهم للدواء فضلا عن اختلاف الظروف البيئية أو اختلاف الأجناس .

وابن رشد لا يقف فى هذا المجال موقف التلخيص أو العرض بالنسبة لمن سبقوه ، بل يقوم بالمقارنة بين مختلف آراء الأطباء وينقدها أحيانا. وتلاحظ منى أبو زيد بحق الطابع العلمى الخالص فى دراسات ابن رشد

---

(١) ابن رشد : كتاب الكليات . منشورات معهد الجنرال فرانكو - صورة للمخطوط . مطبعة الفنون المصورة . مراكش . المغرب ، ص ٢٩ .

الطبية فضلا عن سعيه الى ترسيخ أخلاقيات انسانية فى علم الطب مما يجب أن نتحلى بها ، الى جانب اعترافه بفضل القدماء وتمسكه بالحقيقة العلمية دون النظر الى طبيعة قائلها ، والدعــوة الى واجب كل عالم الا يتوقف عن التعلم . وخلاصة هذه الدراسة القيمة هى ما تكشفه من موضوعية علمية عند ابن رشد لا تقف عند حدود القياس المنطقى البرهانى وانما تمتد أساســا الى ضرورة الاستئناس بالتجــربة العلمية . وهكذا تضيف هذه الدراسة الى مفهوم العقلانية عند ابن رشد هذين البعدين ، البعد العلمى التجريبى الذى لا ينغلق فى ثوابت نظرية نهائية ، والبعد الأخلاقى الانسانى .

ونأتى الى آخر دراسات هذا الكتاب وهى دراسة أبوالوفا التفتازانى باللغة الانجليزية **عن ابن رشد المتصوف**(١) . يبرز التفتازانى فى هذه الدراسة المدرستين الفلسفيتين اللتين كانتا سائدتين فى الاندلس فى القرن الثانى عشر وهما المدرسة الفلسفية المشائية والمدرسة الاشراقية ، ويشير الى الاتجاه الصوفى الذى كان قويا طوال القرنين السابقين وذلك نتيجة لانتشار رسائل اخوان الصفا ذات الاتجاه الأفلاطونى الجديد .

ويشير التفتازانى الى رفض ابن رشد للمنهج الحدسى الصــوفى والاشراقى فى المعرفة . على أن ابن رشد وان كان ينكر على الصوفية قدرتهم على الحصول على معرفة طبيعة الحقيقة عن طــريق تجربتهم الخاصة الحميمة ، التى لاتتاح لغيرهم ، فانه - كما يقول التفتازانى كان موافقا على الهدف الاخــلاقى للتصــوف . أى أنه كان ينكرهــم ابستمولوجيا ويقبلهم أخــلاقيا . وتنتهى الدراســة الى أن النزاع بين الصوفية والفلاسفة يرجع فى التحليل الأخيــر الى التمييز بين الذوق واستخدام الحجج المنطقية . والدراسة بشكل عام تأكيــد على الطابع العقلانى لفلسفة ابن رشد .

هذه هى خلاصة عامة لمختلف دراسات هذا الكتاب عن ابن رشد . ونستطيع أن نستخلص منها بعض الدلالات الأساسية للعقلانية الرشدية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤١٥ - ٤١٨ .

٣ ـ دلالة العقلانية الرشدية فى دراسات هذا الكتاب :

لقد تبين لنا من قراءة فلسفة ابن رشد خلال قراءتنا لدراسات هذا الكتاب ، أن هناك اختلافا وتباينا بين هذه الدراسات فى رؤيتها لفلسفة ابن رشد • على أننا لو اقتصرنا على دلالة العقـــلانية الرشدية فى هذه الدراسات لوجدنا أن أغلب هذه الدراسات تؤكد على الطابع العقلانى لفلسفة ابن رشد ، الا أنها تكاد تقصر دلالة هـــذه العقلانية على منهج القياس البرهانى للحصول على معرفة يقينية • وهى تراها كذلك كأداة معرفية لاستخلاص الكليات من المحسوسات ، أو كمنهج لتأويل الشريعة بما يجعلها متوافقة مع العقل وان كان هذا التأويل مقصورا على الفلاسفة أو الراسخين فى العلم » •

على أن بعض الدراسات تتبين الأساس الانطولوجى للعقـــلانية الرشدية ، وذلك بتاسيسها على مبدأ السببية والعلاقات الضرورية بين الأشياء ، هذا فضلا عن دراسات أخـــرى تكشـــف عن الطبيعة العملية للعقلانية الرشدية وذلك فى ارتباطها بتجليات وممارسات ذات بعـــد تاريخى أو سياسى أو سلوكى أخلاقى أو تجريبى •

وتتسم بعض هذه الدراسات السابقـــة فى ادراكها للعقلانية بأنها محدودة بحدود التجربة الانسانية ، ومشروطة بها دون أى ارتباط بقوة أخرى خارج هذه التجربة •

على أنه من ناحية أخـــرى هنـــاك من الدراسات ما تتشكك فى العقلانية الرشدية ، بل تتشكك فى مفهوم العقـــلانية عامة تأسيسا على تشككها فى مبدأ السببية • ولهذا فهى ترفض الفلسفة الرشدية جملة وتجد بديلا عنها فى الفلسفة الأشعرية • ولكن هناك عددا من الدراسات تسعى للتوفيق بين النقل والعقل ، بين الايمان الدينى والعقلانية باعتبارهما وجهين لعملة واحدة • ولكن هناك أكثر من دراسة كذلك تكاد توحد بين الدين والعقل ، أو على الأقل تجعل الدين مرتكزا وأساسا للعقلانية • وهناك اتجاه يكاد يعطى للعقلانية جذرا قوميا متميزا ذا توجه دينى •

هذه هى خلاصة عامة للقراءات المختلفة لفلسفة ابن رشد وموقفها من عقلانيته ٠ وهى اجتهادات تعبر عن وجود تيارات منهجية وفكرية متنوعة فى الدراسات الفلسفية فى جامعاتنا ٠ وهى ظاهرة صحية ومبشرة بغير شك لأنها تعبر عن الاستقلال والتنوع الفكرى ٠ على أنه لكى تتم الفائدة من هذه الظاهرة الصحية ، لابد من أن يجرى حوار بين بعضها البعض بدلا من الاكتفاء بالتجاور فى كتاب عن ابن رشد ، أو بالتباعد فى كتابات مستقلة ٠ ان القيام بمثل هذا الحوار ، ليس حول فلسفة ابن رشد فحسب ، بل حـــول مختلف القضايا الفـــكرية والفلسفية والعلمية والاجتماعية والثقافية سوف يتحقق به تنمية للحركة الفلسفية والفـــكر النظرى عامة فى جامعاتنا وفى المستوى الثقافى العام فى بلادنا ٠

واستلهاما منى لما فى هذا الكتاب عن ابن رشد من قراءات مختلفة متنوعة لفلسفته ، وربما كمبادرة لفتح باب الحوار ، أحاول بدورى أن اجتهد فى الصفحات التالية لتحديد معالم العقلانية ومرتكزاتها فى فلسفة ابن رشد ٠

٤ ـ محاولة لتحديد معالم العقلانية الرشدية :

فى البداية ، أحرص على تأكيد أمرين : الأمر الأول هو أن تحديد دلالة العقلانية عند ابن رشد أو عند مفكر أو فيلسوف ، لا تكون بالوقوف عند بعض تعريفاته فحسب ، وانما بالدراسة لمجمل فلسفته ، وبتحديد منهجه فى معالجة القضايا والمشاكل المختلفة واكتشاف المرتكزات الأساسية لبنيته الفكرية ٠ ولست أزعم أننى ساقوم بهذه الدراسة الشاملة لفلسفة ابن رشد ولمهجيته وانما ساكتفى ـ كمحاولة تمهيدية ـ بتحـديد بعض المرتكزات الاساسية التى تسهم فى تشكيل الدلالة العامة للعقلانية الرشدية٠

أما الأمر الثانى فهو أن الطابع العام للفلسفة فى العصور الوسطى سواء كانت فى البلاد العربية الاسلامية أو فى أوروبا هو الطابع الدينى٠ فالايديولوجية الدينية كانت هى الايديولوجية المسيطرة السائدة آنذاك ٠ ولهذا فان البحث فى العقلانية عند فلاسفة ذلك العصر ، لا يعنى نفى الاطار الدينى العام لفلسفتهم ، كما أن هذا الاطار الدينى العام لا ينفى

القول بالعقلانية ٠ وانما تبقى القضية محصورة فى تحديد طبيعة العلاقة بين الايمان والعقل أو بين الدين والفلسفة عند هذا الفيلسوف أو ذاك ، أى مدى ما يكون الدين موضوعا من موضوعات الفكر الفلسفى ، أو يكون الفكر الفلسفى موضوعا من موضوعات الدين ٠

فى ضوء هذا ساحاول تحديد دلالة العقلانية عند ابن رشد وبعض مرتكزاتها فى اطار البنية العامة لفلسفته ، أو ما يمكن أن نطلق عليه رؤيته الشاملة للعالم ، وفى الاطار الدينى العام السائد فى عصره ومجتمعه ٠

وقد يكون من المفيد فى البداية أن نحدد ما هو المقصود بالعقلانية، لا بالمعنى العام الذى حددناه فى مستهل هذه الدراسة ، وانما كموضوع للدراسة ٠ ولقد واجه المفكر المغربى محمد عابد الجابرى هذا التساؤل فى مستهل كتابه « نقد العقل العربى » فى جزئه الأول عن « تكوين العقل العربى » ٠ ولقد اختار الجابرى الاستئناس بالتمييز المشهور الذى أقامه لالاند بين العقل المكون أو الفاعل La raison constituante والعقل المكون أو السائد La raison constituée ٠ الأول هو كما يقول لالاند نقلا عن الجابرى « الملكة التى يستطيع بها الانسان ان يستخرج من ادراك العلاقات بين الأشياء مبادىء كلية ضرورية وهى واحدة عند جميع الناس » ٠ أما الثانى فهو « مجموع المبادىء والقواعد التى نعتمدها فى استدلالتنا » وهى تختلف كما يقول من عصر الى عصر ٠ ولهذا فهى على حد قول لالاند نقلا عن الجابرى أيضا « منظومة القواعد المقررة والمقبولة فى فترة تاريخية معينة ، والتى تعطى لها خلال تلك الفترة قيمة مطلقة »(١) ولقد اختار الجابرى المعنى الثانى لتحديد تكوين العقل العربى ٠ على أننا فى حالتنا هذه ، لانسعى لتحديد تكوين العقل العربى عامة ، وانما تكوين عقل عربى واحد هو عقل ابن رشد فى تجليه الفلسفى ٠ وان كنت لا أشك أن عقل ابن رشد كان يرتبط بمرحلة تاريخية معينة ، فضلا عن أنه كان يعبر عن نزعة أو اتجاه آنذاك

---

(١) الدكتور محمود عابد الجابرى : تكوين العقل العربى ٠ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٨٤ طبعة أولى ، ص ١٥ ٠

مهما كان محـــــدودا أو مضـــــطهدا ، الا أنه كان يعبــــــر عـــــن فلســــفة فرد هو ابن رشـــد • على أننا فى حـــــالة ابن رشـــد قـــد لا نكتفى بدراسته بالمفهومين اللذين حددهما لالاند للعقل ، أى بالمفهوم الأول أى العقل من حيث أنه ملكة للمعرفة ، لا بالمعنى المطلق وانما فى حدود مفهوم ابن رشد له ، وبالمفهوم الثانى المعرفى أيضا من حيث أنه منظومة من المبادىء والقواعد والمرتكزات والآليات التى تشكل الرؤية العقلانية الرشدية ، وانما سنحتاج فى دراسة العقـــلانية الرشـــدية الى دراسة عقلين آخرين لا نجدهما فى تعريف لالاند للعقل وان كنا نجدهما فى مذهب العديد من الفلاسفة ، وأقصد بهما العقل بالمعنى الانطولوجى اى العقل كمعقولات متحققه فى الوجـــــود الطبيعى (وفى مـــا وراء الطبيعى كذلك فى فلسفة ابن رشد) والعقل بالمعنى العملى أى العقل فى تجلياته فى مجال السياسة والأخلاق والسلوك عامة • ولهذا سنحاول أن نحدد دلالة العقلانية الرشـــــدية فى المجال المعـــرفى والانطولوجى والعملى ، على أننا لن نخوض فى تفاصيل عديدة وانما سنكتفى بالاشارة الى بعض العناصر الرئيسية •

وسنبدأ بالعقل الانطولوجى فلعله أن يكون الأساس الذى تستند اليه العقلانية الرشدية عامة •

أ ـ الأساس الانطولوجى للعقلانية انرشدية :

فى تقديرى أن القاعدة الأساسية الأولى التى يرتكز عليها عـــالم ابن رشد هو مبدأ السببية • والسببية عنده ليست مجرد علاقة بين سبب ومسبب بل هى النسيج العام للوجود كله • انها التشـــابك الكامل بين اشياء الوجود وأحداثه جميعا • والسببية فى الوجود ليست نتيجة للعادة التى يولدها الاقتران والتساوق فى الوجود كما يقول الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » كما هو معروف ، بل هى ضرورة موضوعية متحققة فى العلاقات بين الموجودات وفى فعل بعضها فى بعض ، وذلك بسبب اختلاف الطبائع بين الأشياء • فعلى حد تعبير ابن رشد فى رده على الغزالى « من المعروف بنفسه أن للأشياء ذوات وصفات هى التى اقتضت الأفعال الخاصة بموجود موجود ، وهى التى من قبلها اختلفت ذوات

الأشياء وأسماؤها وحدودها . فلو لم يكن لموجود موجود فعل يخصه ، لم يكن له طبيعة تخصه . ولو لم يكن له طبيعة تخصه لما كان له اسم يخصه ولا حد . وكانت الأشياء كلها شيئا واحدا ولا شيئا واحدا ، لأن ذلك الواحد يسأل عنه : هل له فعل يخصه أو انفعال يخصه أو ليس له ذلك . فان كان له فعل يخصه فههنا أفعال خاصة صادرة عن طبائع خاصة . وان لم يكن له فعل يخصه واحد ، فالواحد ليس بواحد . واذا ارتفعت طبيعة الواحد ارتفعت طبيعة الموجود . واذا ارتفعت طبيعة الموجود لزم العدم »(١) فكل ما هو موجود . اما هو علة أو معلول . متى وجد المعلول وجدت العلة مع اطراد هذه العلية فى الماضى والحاضر والمستقبل كما يقول ابن رشد فى كتابه تلخيص البرهان : « وعلل الأشياء الموجودة مع الأشياء هى فى الأشياء الكائنة فى الزمان الماضى والكائنة فى المستقبل واحدة بعينها ، أعنى أنها بعينها للأمور الموجودة فى الزمان الماضى والموجودة فى الزمان المستقبل وهى التى تجعل حدودا وسطا فى البرهان »(٢) وسوف نتحدث عن هذه النقطة الأخيرة الخاصة بالحد الأوسط عندما نتحدث عن العقلانية المعرفية . وتأسيسا على هذه السببية الانطولوجية السائدة فى عالم ابن رشد ينتفى فى هذا العالم التجويز أى القول بأن جميع الموجودات كما تقول الاشاعرة جائزة فى العقل أن تكون على ما هى عليه وعلى عكس ما هى عليه ، وجائز ان تحرق النار أو لا تحرق دون أن يكون ثمة عائق يعوق فعلها . على أن ابن رشد يفرق بين هذا الجواز الذى يعنى نفى الأسباب وبين ما يسميه الجواز فى طبيعة الوجود ، وقد سبق أن أشرنا اليه فى عرضنا لدراسة صبحى . مثال ذلك الجواز فى طبيعة الوجود هو قولنا أن المطر جائز أن ينزل أو لا ينزل . « ذلك أن الجواز الذى هو من طبيعة الوجود هو أن يحس أن الشىء يوجد مرة ويفقد أخرى كالحال فى نزول المطر ، فيقضى العقل قضاء كليا وباتا على أن هده الطبيعة يمكن أن تتغير

---

(١) ابن رشد : تهافت التهافت : القسم الثانى ، ص ٧٨٢ - ٧٨٣ . تحقيق سليمان دنيا . دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .

(٢) ابن رشد : تلخيص كتاب البرهان : حققه المرحوم محمود قاسم ، ص١٦٠ . الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ .

ولا يمكن أن تنفلت »(١) وهنا نجد تفرقة رائعة عند ابن رشد بين التغيير فى اطار مبدأ السببية وبين الغاء هـــذا المبدأ كلية • كما نتبين كذلك ارهاصا فكريا بمفهوم الاحتمال كما سبق أن ذكرنا • ونكتفى هنا بهذه الاشارة السريعة الى السببية كنسيج مطرد شامل فى عـــالم ابن رشـد باعتبارها فى تقديرى الركيزة الأساسية لعقلانيته •

وننتقل بعد ذلك الى ركيزة أخرى قريبة من مبدأ العلية • وأكاد أتبين هذه الركيزة فى احدى المقولات العشر ، هى مقـــولة الاضافة • فمقولة الاضافة تكاد أن تكون المقولة الوحيدة التى تتداخل فى مختلف مقولات الوجود مما يكاد يشكل علاقة موحدة بين مختلف أنحاء الوجود، مع اختلاف نسب هذه العلاقة • فمقولة الاضافة توجـــد فى مقولة الكم كالضعف والنصف والمساوى ، الى غير ذلك ، كما توجد فى مقولة الكيف كالشبيه والعلم والمعلوم ، كما توجد فى مقولة الأين كالتمكن والمكان ، وفى مقولة متى كالمتقدم والمتأخر ، وفى مقولة الوضع كاليمين واليسار ، وفى مقولة أن تفعل وأن تنفعل كالفاعل والمفعول وهى ـ كما يقول ابن رشد ـ قد تلحق سائر المقولات • وهى بالجملة ـ كما يقول كذلك ـ من المقولات الأول ومن المقـــولات الثـــوانى كالاضـــافة التى بين الجنس والنوع(٢) ويربط ابن رشد بين مقولة الاضافة ومقولة العلة أو السبب فى قوله « النار علة للأشياء النارية ، ولكن كونها نارا غير كونها علة ، ولذلك فهى من حيث هى نار فى مقولة الجوهر ، ومن حيث كونها علة فى مقولة الاضافة(٣) وليس شأن علم مابعد الطبيعـــة عنـــد ابن رشد ـ كما يقول ـ الا « أن ينسب أنواع الموجودات بعضها لبعض من جهـة ما بعضها أسباب لبعض حتى ينسب جميعها الى أســـبابها القصوى » ولهذا نسعى فى هذا العلم كما يقول « أن نتأمل ذلك فى جميع المعقولات وننظر كيف نسبة بعضها الى بعض فى الوجـــود »(١) • وهـــكذا فان

---

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الادلة ، ص ١١١ •

(٢) ابن رشد : كتاب مابعد الطبيعة : الطبعة الأولى ، ص ٨ •

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٧ •

(١) المرجع السابق ، ص ١٨ •

مقولة الاضافة تكاد تكون من الركائز الأساسية كذلك للرؤية العقلانية للعالم الرشدى فى ارتباطها مع مبدأ العلية ٠

على أننا نجد فى موقف ابن رشـــد من العلل ما يمكن أن يكون ركيزة أخرى من ركائز عقلانيته ٠ فلا شك أن ابن رشد يذهب مذهب أرسطو فى قوله بالعلل الأربع ، الفاعلة والمادية والصورية والغائية ٠ ولاشك كذلك فى أنه فى أكثر من موضع يؤكد على أن « السبب الغائى هو سبب الأسباب »(٢) ٠ فضلا عن استخدامه هذا السبب الغـائى فى تأكيده على بعض جوانب فلسفته كمبدأ العناية ممثلا فى أدلته على وجود الله(٣) ٠ وبرغم هذا فاننا نلاحظ أن السبب الفاعـــل أو العـــلة الفاعلة هى العلة الأساسية فى عالم ابن رشد ٠ والحق ، أنه بغير أولية العلة الفاعلة لانهدت بنية السببية التى تمسك بعالم ابن رشد ٠ فالعالم الرشدى فعل ، بل فعل مستمر ٠ والله عند ابن رشد هو الفاعل الأول وهو مصدر الفعل المستمر فى العالم ٠ وهو فى هذا على خلاف مع الاله الأرسطى فى مسالة حركة العالم ٠ فاله أرسطو محرك لا يتحرك ٠ وهو يحرك العالم بالعشق ٠ أى هو علة غائية ٠ أما الله عند ابن رشد فهو العـــلة الفاعلة الأزلية والمستمرة فى فاعليتها ٠ وفى تقديرى أن الأمر لا يفسر بتطويع الفلسفة الالهية الرشدية للدين الاسلامى فحسب ، فالقول بالعلة الفاعلة ركيزة أساسية للعالم الرشدى عامة ٠ وهذا تعبير عن اختلاف جوهرى فى المفاهيم الأساسية لكلا المجتمعين اليونانى والعربى الاسلامى ٠ فالقول بالعلة الفاعلة كعلة أساسية فى الفلسفة الأرسطية يتعارض ويتصادم مع بنية المجتمع اليونانى الذى كان يسوده النظام العبودى الذى كان العمل الأساسى فيه يقوم على عاتق العبيد ٠ فهـــم الذين يعملون ويتحركون بالولاء والتبعية لأسيادهم ، تماما كعالم ارسطو الذى يتحرك بالعشق نحو الهه ٠ ولو جعل أرسطو العلة الفاعلة هى العلة الأساسية فى عالمه بدلا من العلة الغائية لانقلبت بنية المجتمع اليونانى وأصبح عبيده سادة٠ لقد كان كل العاملين بأيديهم فى المجتمع اليونانى مواطنين من الدرجة

---

(٢) المرجع السابق ذكره ، ص ٤٥ ٠

(٣) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ، مرجع سابق ، ص ٦٠ ٠

الثانية حتى لو كانوا من عباقرة فن النحـــت ٠ أما المجتمع العـــربى الاسلامى ، فلم يكن مجتمع عبيد بل كان مجتمعا يقوم على علاقات انتاج مختلفة ومتقدمة عن المجتمع اليونانى العبودى ، فضلا عن أن رؤيته الدينية الاسلامية تتعارض فى جوهرها مع النظام العبودى ٠ ولهذا كان من الطبيعى أن تكون العلة الفاعلة هى العلة المهيمنة فى عالم ابن رشد لمـــا وراء الطبيعى والطبيعى على السواء ٠ ولقد استند ابن رشد على مفهوم العلة الفاعلة للقول بدليل الاختراع فى اثباته لوجود الله(١) ٠

وبهذه الركائز ، تبدو الدلالة العامة فى عالم ابن رشد هى وحدته الطبيعية المتمثلة فيما يتسم به من نظام وترتيب وتنضيد وعلاقاتضرورية شاملة بين أشيائه وأحداثه ٠ وهى ليست وحدة صوفية يتداخل فيهاما وراء الطبيعى بالطبيعى كوحدة عالم ابن عربى أو كحلولية الحـــلاج وانما هى وحدة طبيعية ، قوانينها من ذاتها بمقتضى مبدأ السببية ، وان نكن معلولة للسبب الأول الأزلى الذى هو مبدأ الفعل والحركة المستمرة ٠

هذه هى بعض الركائز الأساسية للعقلانية الانطولوجية فى فلسفة ابن رشد ٠ وهى كما رأينا عقلانية محايثة أى متحققة فى العلاقات بين موجودات العالم وفى بنيته العامة ، وان تكن معلولة لعلة أولى قديمة مفارقة ٠ وهكذا يلتقى ما وراء الطبيعى بالطبيعى لقاء مختلفـــا عن التداخل الصوفى أو الاشراقى ٠ فهو لقاء يجمع بين المفارقة والمحايثة ٠ وهذه الثنائية تشكل سمة أساسية من سمات العقلانية الرشدية ، وسنجد هذه الثنائية فى جوانب أخرى من البنية الفلسفية الرشدية ٠

٢ ـ العقلانية الابستمولوجية :

فى مجال العقلانية الابستمولوجية أو المعرفية سنجد جانبين للعقل، جانبا يشكل بنيته الذاتية ولهذا فهو أقـــرب الى أن يكون ذا طبيعـــة انطولوجية ، كما نجد جانبا آخر يشكل وظيفة العقـــل كأداة للمعرفة وهناك تمايز وتداخل بينهما فى وقت واحد ٠ وسنبدأ بالبنية الذاتية للعقل

---

(١) المرجع السابق : ص ٦١ ٠

عند ابن رشد . على أننا لن ندخل فى تفاصيل ما أضافه ابن رشد الى تحديد أرسطو للعقل الذى كان تحديدا غامضا ملتبسا ، ولن ندخل كذلك فى ما بينه وبين شراح أرسطو من اتفاقات واختلافات ، ولن نخوض فى تفاصيل الأقسام أو الوظائف المختلفة للعقل من عقل هيولانى أو مادى وعقل مستفاد أو عقل بالملكة أو عقل فعال ، مكتفين بعرض دلالة عامة مكثفة للعقل عند ابن رشد فى حدود هدفنا فى هـــذا التعليق الأخير للدراسة ، أى تحديد دلالة العقلانية الرشدية .

العقل عند ابن رشد هو قوة من قوى النفس . والنفس هى أحـد الأشياء الطبيعية فى فلسفته ، فهى موضوع للعلم الطبيعى ، وهى صورة أو كمال للبدن . ولهذا فهى تشكل مع البدن شيئا واحدا . والعقل كما ذكرنا قوة من قوى النفس . على أنها قوة مختلفة عن بقية قوى النفس كالقوة النباتية والغاذية من القوى المخالطة للبدن . أما العقل فانه وان كان محايثا للنفس ، فانه ليس مخالطا كهـــذه القوى الأخـــرى . لأنه لو خالط البدن فقد ماهيته وأصبح محدودا بحدود الحس الذى يخالطه، وستكون حدوده المعرفية محدودة بحدود هذا الحس . ولن يكون قادرا على معرفة المعقولات أو معرفة ذاته . ولهذا فالعقل رغم محايثته للنفس فهو مفارق لها فى الوقت نفسه . ومفارقته للنفس تجعل منه عقلا للنوع الانسانى كله ، وتمكنه من تقبل كل المعقولات فى الوجود . على أن العقل رغم أنه مفارق وشامل للنوع الانسانى كله ، فهو عقل فردى كذلك بمحايثته . لأنه لو كان عقلا للنوع الانســـانى كله لما تنوعت وتفاوتت المعارف بين الناس ولتوحدت المعارف . ولو كان عقلا فرديا فقط لما كانت هناك معرفة كلية أو علمية . ولهذا فالعقل الرشدى يجمع بين مفارقته للنفس ومحايثته لها فى وقت واحد . وهذه هى اشكاليته الخصبة واضافة من اضافات ابن رشد الفلسفية»(١) .

من هذه الطبيعة الفردية النوعية ، المحايثة المفارقة للعقل ، ننتقل

---

(١) قام الباحث المغربى محمد المصباحى بدراسة هـــذه الاشـكالية دراســة عميقة فى كتابه « اشكالية العقل عند ابن رشد » . المركز الثقافى العربى - بيروت ١٩٨٨ . راجع الفصل الأول من الكتاب .

الى وظيفته كأداة للمعرفة . ان مضامين العقل الرشدى ليست معارف فطرية ، وليست سابقة على التجربة شأن المعرفة فى النظرية الافلاطونية التى تتحقق بالتذكر . انما هى عند ابن رشد ثمرة التجربة . وهى كليات منتزعة من الموجودات الحسية والجزئية .والعقل ، كما يقول ابن رشد « ليس هو شىء أكثر من ادراك الموجودات بأسبابها ، وبه يفترق عن سائر القوى المدركة . فمن رفع الأسباب رفع العقل »(٢) وهنا يلتقى الجانب المعرفى للعقل بالجانب الانطولوجى للوجود « أما الترتيب الذى فى العقل فينا ـ كما يقول ابن رشد ـ فانه تابع لما يدركه من ترتيب الموجودات ونظامها »(٣) ويقول ابن رشد « العلم المخلوق فينا انما هو أبدا شىء تابع لطبيعة الوجود . فان الصادق فى الشىء انما على الحال الذى عليه فى الوجود . فان كان فى هذه الممكنات علم ففى الموجودات الممكنة حال هى التى يتعلق بها علمنا »(٤) ويؤكد ابن رشد هذا المعنى فى كتاب « ما بعد الطبيعة » بقوله « يقال على الصادق وهو الذى فى الذهن على ما هو عليه خارج الذهن (...) والوجود يرجع الى هذين المعنيين فقط أى الصادق والى ماهو موجود خارج الذهن »(٥) ويقول فى تلخيص النفس عن الادراك العقلى « ان الادراك فيه هو المدرك ولذلك قيل : ان العقل هو المعقول بعينه »(٦) على أن العلم بالموجودات ليس تطابقا مع جزئياتها « ولكنه علم للجزئيات بنحو كلى ، يفعله الذهن فى الجزئيات عندما يجرد منها الطبيعة الواحدة المشتركة التى انقسمت فى المواد . فالكلى ليست طبيعته طبيعة الأشياء التى هو لها كلى (...) . والكلى « هو شىء موجود فى طبيعة الاشياء المعلومة بالقوة ولولا ذلك لكان ادراكه للجزئيات من جهة ماهى كليات ادراكا كاذبا (...) ذلك أن « الطبيعة المعلومة (...) جزئية بالعرض وكلية بالذات . ولذلك متى لم يدركها العقل من حيث ماهى كلية غلط فيها ،

---

(٢) ابن رشد : تهافت التهافت : مرجع مذكور سابقا ، ص ٧٨٥ القسم الثانى .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ القسم الأول .

(٤) المرجع السابق . القسم الثانى ٧٩٦ .

(٥) ابن رشد مابعد الطبيعة : مرجع مذكور سابقا ، ص ٥ .

(٦) ابن رشد : تلخيص النفس : مكتبة النهضة ، الطبعة الأولى ، ص ٧٧ .

وحكم عليها بأحكام كاذبة • فاذا جرد تلك الطبائع التى فى الجزئيات من المواد ، وصيرها كلية ، أمكن أن يحكم عليها حكما صادقا والا اختلطت عليه الطبائع »(١) •

وهكذا يلتقى المعرفى بالوجـــودى ، ليشكلا الأساس الموضوعى للعقلانية المعرفية عند ابن رشد ، بل أساس اليقين عنده كذلك • فالبرهان بالجملة ـ عند ابن رشد ـ هو «قياس يقينى يفيد علم الشىء على ماهو عليه فى الوجود بالعلة التى هو بها موجود ، اذا كانت تلك العلة من الأمور المعروفة لنا بالطبع »(٢) هذا فضلا عن التجاء ابن رشد الى الجمع بين القياس والتجـــربة فى بعض الصناعات مثل صناعة الطب وتحضير الأدوية كما لاحظنا فى عرضـــــنا للدراسة الخاصة بابن رشد طبيبا ، وقوله فى نهاية كتاب الكليات « ان هذه الصناعة أحق صناعة ينزل فيها الى الأمور الجزئية » •

ننتقل بعد ذلك وأخيرا الى الجانب العملى من العقلانية عند ابن رشد • ونبدأ بمسألة قد تبدو بعيدة كل البعد عن الجانب العملى ، وهى مسألة العلاقة بين الشريعة والفلسفة • وفى تقديرى ، أن ابن رشد لم يقصد بكتابه « فصل المقال » التوفيق بين الشريعة والفلسفة أو بين الفكر الدينى والفلسفة ، ولم تكن جهوده الى تحديد ما بينهما من اتصال ، الا تأكيدا على ما بينهما من انفصال • فالقول بالاتصال يتضمن الانفصال والتمايز • وليس التأويل الذى خص به الفلسفة أو الراسخين فى العـلم الا محاولة لاعلاء شأن العقل فى مواجهة طغيان الفقهاء ورجال الدين دعما لدولة الموحدين • ولهذا كان موقفا سياسيا عمليا فى المحل الأول فى اطار رؤية عقلية للشريعة • ولســـت فى حاجة هنا الى اضافة شىء مكتفيا بما فصلته زينب الخضيرى فى دراستها فى هذا الكتاب • وكذلك الشأن فى ما يتعلق بمسألة الحرية ومسألة الخير والشر • فلست فى حاجة الى تكرار ما جـــــاء فى دراســة زينب عفيفى فى مسألة الحرية ودراسة

---

(١) تهافت التهافت : مرجع سابق • القسم الأول ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ •

(٢) كتاب تلخيص البرهان : مرجع سابق ، ص ٣٨ •

مرفت عزت فى مسألة الخير والشر . فمعالجة ابن رشد لهاتين المسألتين تستند الى تفسير موضوعى . فالحرية عنده ــ كما سبق أن رأينا ــ ليست حرية مطلقة وليست قيدا مطلقا وانما هى مشروطة بضرورات انسانية داخلية وضرورات موضوعية خارجية . انها اختيار فى اطار الضرورات مما يقربها من مفهوم اسبينوزا وهيجل للحرية . وكذلك الشأن فى مسألة الخير والشر فهما مرتبطان عند ابن رشد بالبنية السببية للكون من ناحية وبالبعد الميتافيزيقى للعالم القــــائم على الغائية والعناية الالهية التى تشمله من ناحية أخرى .

وهكذا يتبين لنا الأساس الموضوعى الذى يعالج به ابن رشد القضايا ذات الطابع الدينى والسلوكى والأخلاقى . كما تبين لنا من قبل ، الأساس الموضوعى لرؤية ابن رشد الانطولوجية والابستمولوجية .

ولهذا يمكن القول فى النهــــاية ان فلسفة ابن رشد هى فلسفة عقلانية موضوعية تقوم على ثنائيات متضايفة مثل ثنائية مابعد الطبيعى والطبيعى وثنائية الابستمولوجيا والأنطولوجيا ، وثنائية المحايثة والمفارقة وثنائية الضرورة والحرية وثنائية الكليات والجزئيات وثنائية الشريعة والفلسفة وثنائية وحدة الوجود ووحدة الحقيقة وثنائية القدم والحدوث الى غير ذلك وما أجدر هذه الثنائيات بدراسة مستقلة . الا أن المجال لا يسمح بذلك .

كلمة أخيرة : ان هذه المحاولة المتواضعة فى تحديد معالم العقلانية فى فلسفة ابن رشد ، ليست الا مقاربة تمهيدية ، أقرب الى التأملات العامة منها الى الدراســـة المدققة . على أنه من الواضح أن عقـــلانية ابن رشد ليست بعيدة عن الدلالة العامة لمفهوم العقلانية الذى عرضنا له فى مدخل هذه الدراسة . على أن فلسفة ابن رشد ، ماتزال فى حاجة الى مزيد من الدراسات المعمقة لبنيتها الشاملة وفى اطار تراثها وعصرها . لقد انتقلت فلسفة ابن رشد الى أوروبا فى القرن الثالث عشر الميلادى فأسهمت بعقلانيتها فى تفجير مرحلة حضارية جديدة ، على حين انها ماتزال محاصرة مجهضة فى مجتمعاتنا العربية .

وفلسفة ابن رشد ليست فلسفة ذات قيمـــة تاريخية فحسب ، بل ماتزال لها قيمتها الفلسفية الباقية الحية الملهمة التى نتطلع الى استلهامها وتمثلها تمثلا عقلانيا نقديا ابداعيا ، فى اطـــار مستجدات واقعنـــا وعصرنا ، وخاصة فى هذه المرحلة من تاريخنا الذى نســعى فيها الى تحقيق تنمية شاملة وتنوير عقلانى فى بلادنا حتى نستطيع أن نواجه مستجدات وتحديات ومتطلبات عصرنا الراهن ٠

العقلانية بين الخطابة والشعار

حسن حنفي

أولا ــ مقدمة : تواصل الجهود بين العمل والمراجعة :

ان أى جهد يعظم به صاحبه وان أى عمل حتى ولو كان ناقصا ـ فالنقص سمة من سمات الكمال الانسانى ــ أفضل من اللاعمل وسكون الموت ، كما يعظم الجهد بتوليده جهودا أخرى لاثراء العمل الأول ، اضافة عليه أو مراجعة له ٠

والمراجعة عمل علمى تعيد بناء العمل الأول ، وتبين امكانياته وحدوده ٠ وان بدايات التفلسف عند عديد من الفلاسفة مثل كانط وهوسرل وبرجسون كانت مراجعات لأهم مايصدر فى عصورهم من مؤلفات لبيان حدودها وامكانيات تجاوزها ٠ ليست المراجعة مجرد بيان المميزات والعيوب ، وهو المعنى الشائع ، انما المراجعة اعادة قراءة خلاقة لما يثيره العمل الأول من اشكالات أصيلة وليست مزيفة بغية اثارة الفكر وتوليد الأفكار وليس الاعلان عن النفس واطلاق الشعارات كنوع من العلاقات العامة ٠

والمشرف على اصدار كتاب ليس مسؤولا عن الافكار المعروضة فى البحوث ٠ فتلك مسئولية الباحثين ٠ انما مسئوليته فقط فى التجميع والتبويب ومطابقة عنوان الكتاب لاقسامه وعدم تكرار الموضوعات والمستوى العلمى المطلوب ٠ كما أنه مسئول عن التصدير الذى يجمع بين البحوث وبين منطقها ويربط بين موضوعاتها بحيث يبدو الكتاب وحدة حول موضوع واحد وان تعددت الآراء ٠

وطالما تخضع الكتب الجماعية للمادة العلمية المتاحة أكثر مما

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة ــ كلية الآداب بجامعة القاهرة ٠

تخضع للتخطيط المبدئى فى ذهن المشرف على الكتاب • فالبداية بالواقع المتاح خير من انتظار البداية المرغـــوب فيها • ومع ذلك تقع المسئولية على المشرف العام من حيث وجود الحد الأدنى من بنية الموضوع المعلن عنه على الغلاف ، وأن يعلن عن هـــذه البنية فى التصـــدير وأن يبين ماتحقق منها ومالم يتحقق حتى لايبدو التصدير مجـــرد خطابة فى الموضوع وليس تحليـلا له ، اعـــلان نوايا وليس تحقيقا له • ثم تأتى الموضوعات متفرقة لا رابط بينها ولا منطق لها • وبطبيعة الحال لايشترك فى الكتاب الا من يعرفهم المشرف عليه معرفة شخصيـــة ، وارتبط بهم بعلاقة الزمالة أو الصداقة أو الأستاذية • فبهذه العلاقات وحدها يمكن انجاز البحوث فى مجتمع تسوده العلاقات الشخصية أكثر مما تســوده العلاقات المؤسسية •

لذلك يبدو المشاركون وكانهم «شلة» مع استبعاد «شلة» أخرى • وهو مايحدث فى كل الكتب الجماعية • أما الكتب المؤسسية فانها تخضع لقياس علمى دقيـق من المتخصصين فى الموضــوع بصرف النظـــر عن العلاقات الشخصية بينهم وبين المشرف • وهو نفس الجـــدل بين ماهو كائن وما ينبغى أن يكون •

ويمكن مراجعة أى كتاب بطريقتين • الأولى الكتاب فى ذاته كما هو واقع من خلال منطقه الداخلى وبحوثه المكونة له طبقا للهدف المعلن عنه فى التصدير • وهى مراجعة الكتاب بنفسه وليس طبقا لما ينبغى ان يكون عليه الموضوع بتصـــور اخر بمشرف آخـــر ، بباحثين آخرين • والثانية مراجعة الكتاب طبقا لمعيار آخر ، ما ينبغى عليه أن يكون الكتاب عنوانا ، وموضوعا ،ومنهجا • وكلا الطريقتين مفيدة • الأولى للحكم على الكتاب كواقع • والثانية للحكم على الكتاب كمثال •

لذلك يمكن مراجعة كتاب « ابن رشد مفكرا عربيا ورائدا للاتجاه العقلى »(١) بطريقتين • الأولى مراجعة الكتاب ذاته ، والى أى حـد

---

(١) اشراف وتصدير عاطف العراقى • المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة١٩٩٣•

جاءت البحوث فيه محققة لهذه التسمية • المراجعة هنـــا للكتاب وليس لابن رشد • والثانية التحقق من صدق القضية من خلال مؤلفات ابن رشد نفسه بصرف النظر عن الكتاب • فابن رشد هو الأساس والكتاب هــــو المناسبة • بالطريقة الأولى يتحقق الغرض من المراجعة ويترك ابن رشد• وبالطريقة الثانية يتم تناول ابن رشد دون المناسبـــة • لذلك كان من الأفضل اتباع الطريقتين • الأولى مراجعة الكتاب ، والثانية مراجعـــة القضية ، وأن كانت الأولى تظل هى الغالبة •

ثانيا ـ أقســـام الكتاب :

ينقسم الكتاب بعد التصدير الى ثلاثة أقسام :

الأول ، « بحوث ودراسات باللغة العربية » دون تحـــديد للفرق بين البحوث والدراسات • ويضم ثمانية عشر بحثا • وهو الجزء الأكبر من الكتاب اذ يبلغ حوالى ٣٤٦ صفحة من مجموع الكتاب ٤٦٦ صفحة بما فى ذلك التصدير والفهرس •

والثانى « بحوث ودراسات بلغات أخرى » • وتضـم دراستين • الأولى باللغة العربية « ابن رشد فى عصر النهضة » (١٤ صفحة) • وتضم قائمة بمؤلفات ابن رشد فى ترجمتها اللاتينية ، طبعة البندقية مع ترجمة لها باللغة العربية • والثانية « ابن رشد والتصـــوف » باللغـة الانجليزية (٥ صفحات) • ففى هذا القسم لايوجد الا بحث واحد من خمس صفحات باللغة الانجليزية على غير عنوان هـــذا القسم الضخم « بحوث ودراسات بلغات أخرى » كما أن هـــذا القسم لايتجاوز تسع عشرة صفحة فى مقابل القسم الأول البالغ ٣٤٦ صفحة أى أن نسبة القسم الثانى الى القسم الأول نسبة ١ : ٢٥ •

والثالث « نصوص مختارة من مؤلفات وشروح الفيلسوف ابن رشد» (٣٤ صفحة) يضم تسعة نصوص متفرقة تتداخل فيهـــا المؤلفات مع الشروح • ونسبة هذا القسم الى القسم الأول نسبة ١ : ١٠ ، ومن ثم يبدو الكتاب فى أقسامه الثلاث مختل النسبة كما • فالقسم الأول هو تقريبـــا

كل الكتاب يمثل ٨٠٪ منه بينما القسم الثانى ٥٪ ، والثالث ٨٪ والتصدير فى نصه العربى وترجمته الفرنسية ٧٪ ٠

والتصدير بلا عنوان (٦ صفحات) ٠ ولكنه فى الفهرس تصدير بابرز جوانب حياته الفكرية وأهم مؤلفاته وشروحه ٠ وترجمته الفرنسية لم يقم بها المشرف على الكتاب بالرغم من نسبة الترجمة اليه فى الهامش(٢) ٠ ٠

ومع ذلك يمكن تصنيف البحوث الثمانية عشرة الى ثمانية موضوعات رئيسية ، أربعة منها تضم ثلاثة بحوث ومجموعها اثنا عشر بحثا واثنان منها يضم كل منهما بحثين ومجموعهما أربعة بحوث ٠ واثنان يضم كل منهما بحثا واحد ، ومجموعهما على النحو الاتى :

١ ـ الفلسفة والدين (ثلاثة بحوث)(٣) ٠
٢ ـ الفلسفة (بحثان)(٤) ٠
٣) الكلام (ثلاثة بحوث)(٥) ٠
٤ ـ التصوف (بحث واحد)(٦) ٠

---

(٢) ابن رشد ، ص ٧ ٠

(٣) أحمد محمود صبحى : هل أحكام الفلسفة برهانية ؟ دراسة نقدية لقضية التوفيق بين الدين والفلسفة (والعنوان الرئيسى فى صلب البحث هل أحكام الفلسفة برهانية ؟ دراسة نقدية لابن رشد فى ضوء منطق أرسطو وتقييمه لقضية التوفيق بين الدين والفلسفة) ٠

(ب) محمود حمدى زقزوق : الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد ٠

(حـ) حامد طاهر : قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد ٠

(٤) محمود زيدان : نظرية ابن رشد فى النفس والعقل ٠

ب ـ سعيد زايد : ابن رشد وكتابه « تهافت التهافت » ٠

(٥) على عبد الفتاح المغربى : التأويل بين الاشعرية وابن رشد ٠

ب ـ زينب عفيفى شاكر : مشكلة الحرية فى فلسفة ابن رشد ٠

حـ ـ مرفت عزت بالى : موقف ابن رشد من مشكلة الخير والشر ٠

(٦) أبو الوفا الغنيمى التفتازانى : ابن رشد والتصوف ٠

٥ ـ الطب (بحث واحد)(٧) ٠
٦ ـ ابن رشد والحضارة الاسلامية (بحثان)(٨) ٠
٧ ـ ابن رشد والحضارة اليونانية (ثلاثة بحوث)(٩) ٠
٨ ـ ابن رشد والحضارة الغـــربية فى العصر الوسيـــط (ثلاثة بحوث)(١٠) ٠

وواضح من هذا التصنيف أنه أقرب الى عرض جوانب فلسفة ابن رشد منه الى تناول الاشكاليتين الرئيسيتين المعلنتين على الغلاف : ابن رشد « مفكرا عربيا » و « رائدا للاتجـــاه العقلى » ٠ وهما القسمان الواجبان فى الكتاب ٠ كما أنه لايوجد ربط بين هذه الموضوعات الثمانية فى التصدير بحيث تبدو الاشكاليتيان واردتين ولو بصيغة ضمنية خلال البحوث الثمانية عشرة ٠ فرأس الكتاب الذى يمثله العنوان فى جانب ، وجسم الكتاب المتضمن للبحوث الثمانية عشرة فى جانب آخر ٠

ثالثا ـ الخطابة والانشـــاء :

وتسود الخطابة والانشاء فى ثنايا الكتاب كله ، فى تصديره واهدائه وشكره ومقال المشرف بل وفى البحوث الأخرى التى تنتسب الى نفس المجموعة ، الخطابة فى أهمية ابن رشد والانشاء فى أهمية العقل عنده٠ فالاهداء مملوء بالمبالغات والتضخيمات والتفخيمات والتعظيمات ٠ ابن رشد عميد الفلسفة العقلانية فى بلدان العالم العربى شرقا وغربا وكأن العقلانية منصب ٠ هو الهرم الفكرى الشامخ ، وعملاق الفلسفة العربية ٠

---

(٧) منى أحمد أبو زيد : ابن رشد طبيبا ٠
(٨) عبد الفتاح فؤاد : الفلسفة الرشدية مدخل الى الثقافة الاسلامية ٠
عاطف العراقى : فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعاصر ٠
(٩) ابراهيم مدكور : ابن رشد المشائى الاول بين فلاسفة الاسلام ٠
نبيلة ذكرى زكى : ابن رشد والمؤثرات اليونانية فى فلسفته الالهية٠
(١٠) مراد وهبه : مفارقة ابن رشد ٠
زينب الخضيرى : مشروع ابن رشد الاسلامى والغرب المسيحى ٠
جورج قنواتى : ابن رشد فى عصر النهضة (طبع جميع مؤلفاته المترجمة الى اللاتينية) ٠

هو الذى يقف على قمة عصر الفلسفة العربية . وتستمر هذه الخطابة فى التصدير اذ يحتل الفيلسوف مكانة كبيرة . ويقف على قمة عصر الفلسفة العربية . هذا الفيلسوف العميق التفكير ، عميـــد الفلسفة العقليـــة - مكررا - فى تاريخ الفلسفة العربية من مشرقها الى مغربها . أضاف الى مذهبه العقلى اتجاها نقديا ليس له نظير طوال تاريخ الفكر الفلسفى العربى . تجاوزت فلسفته حدود الزمان والمكان . هذا الفيلسوف العملاق الشامخ الفكر - مكررا - ى شروحه أكثر آرائه جرأة وصدقا . مؤلفات ابن رشد الفلسفية لها أسبابها التاريخية أما شروحه - التى يبدو أن ليس لها أسباب تاريخية - فانها تتخطى حدود الزمان والمكان - مكررا(١١). وقد شاء القدر كتابة تصدير الكتاب وروحه ترفرف فى السماء فى سعادة. فابن رشد خالد بكتاباته وبأثره العميق . لقد دخل الفيلسوف بأعمـــاله الفكرية الكبرى فى تاريخ الفلسفة من أوسع الأبواب وأرحبها ، ومن الحق أن نفخر به ، أعظم من أنجبتهم أمتنا العربية من فلاسفة ، ومن الواجب دراسة أفكاره ، ما أعمقها وما أروعها . وتستمر الخطابة فى مقال المترف نفسه . فابن رشد أعظم فلاسفة العرب ، ورائد وعميد الفكر العقلانى فى عالمنا العربى من مشرقه الى مغربه . الفيلسوف الأندلسى العمـــلاق ، ترك لنا المفكر الكبير ثمرات فكرية رائعة ، أعطى دروسا عقلية رائدة ، دروس هذا الفيلسوف المارد العملاق . وصل الى أرفع المناصب . وله حس نقدى بارز . تعمق فى دراسة علم الكلام . حياته كلها نشاط ، لايكل ولايمل . يقوم بمهمة عظمى جعلت له مكانة بارزة . يقف على قمـــة الفلسفة العربية ، صاحب الدور العقلانى الكبير ، الفيلسوف الذى تفخر بانجابه حضارتنا العربية ، رائد عقلى من طراز ممتاز(١٢) . وتستمر الخطابة على هذا النحو وكأننا فى مقال صحفى أو فى خطابة مدرسية .

وبنفس الخطابة التى يعظم بها ابن رشد يحقر بها الآخـــرون . فابن رشد وجد ليبقى . انه خالد بفلسفته ، خالد بفكره ، خالد باتجاهه النقدى ومذهبه العقلى . ومن يحاول أن يتخطى الدور الرائد الذى قام

---

(١١) ابن رشد ، تصدير ، ص ٨ .

(١٢) ابن رشد : فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعاصر ، ص ١٦٥ ص ١٧٦.

به فيلسوفنا الرائد العملاق فوقته ضائع عبثا. ومن يحاول تزييف آرائه فستلحق به لعنة الفلاسفة فى كل زمان ومكان . ولكن ماذا نفعل ازاء حالات التخلف العقلى أو الفكرى نجدها خلال العديد من الدراسات التى يزعم لها أصحابها أنها دراسات فى فلسفة ابن رشد ، وابن رشد منها براء . وصدقونى أيها القراء الأعزاء أقول لكم أننا ظلمنا ابن رشد حيا وميتا . لقد سبق أن أصدر المجلس عدة كتب عن الفلاسفة قدماء ومحدثين . أما آخر الفلاسفة العرب فان آراءه من أكثر الآراء تأثيرا حتى يومنا الحالى بشرط الفهم الحقيقى لها والابتعاد عن تزييف افكاره ونسبة آراء له لم يقلها . وان اختلاف الآراء حول الفيلسوف تدل على عمق أرائه وثراء فكره الخالد(١٣) . ويستمر التصدير والمقال فى جدل المدح والذم ، الصراع بين الخير والشر . فالناس نوعان ملائكة وشياطين .

وتستمر الخطابة فى الشكر والتقدير الذى لا حد له والتوجيهات المثمرة للمفكر العملاق والى مفكرنا الكبير والى الأستاذ الكبير والى المعاهد والمراكز العلمية المهتمة بتراث ابن رشد وفكره فى بلدان العالم العربى والعالم الأوروبى ، وكان الأمر لايعدو العلاقات العامة والتقرب الى الأساتذة الكبار بمدحهم والثناء عليهم(١٤) . وتتخلل الخطابة اللازمات المتكررة والاكليشيهات المعروفة مثل « غير مجد فى ملتى واعتقادى » التى تمتلىء بها مقالات الصحف انتسابا لأبى العلاء وتقليدا لأسلوبه كجزء من بناء الوهم أو تمسحا بالعقاد عدو المرأة الذى لم يتزوج أو فى معارك الأدب النسائى أو هل هناك فلاسفة فى مصر بغية الشهرة الفارغه . كما تتكرر عبارات الهاوية تحت أثر أجهزة الاعلام واستعارة من أسماء الأفلام .

والمبالغات فى الحقيقة احساس بالنقص فى الواقع وتعويض عنه بالانشاء ، ورغبة لاشعورية فى التحول من القليل الى الكثير ، ومن

---

(١٣) ابن رشد : تصدير ، ص ٨ ، ص ٩ ، ص ١٢ .

(١٤) مفكرنا الكبير (زكى نجيب محمود) ، الأستاذ الكبير (ابراهيم بيومه مدكور) ابن رشد : تصدير ، ص ٥ ، ص ١٠ .

النقص الى العظمة ، ومن المحدودية الى الاطلاق . وأحيانا يتحول ذلك الى ادعاء فى الاشارة الى « ترجمتنا الفرنسية للتصدير » دون معرفة باللغة الفرنسية بالرغم من تقـــديم الكتـــاب على أنه محاولة متواضعة مقدمة على استحياء . ومنذ أكثر من ربع قرن يتعلم على يدى أحـــد الرهبان ، يناقش فى حديقة الدير المترامية الأطـــراف ، ويتعلم من المستشرقين الكثير احساسا بالنقص وشكرا لأساتذته . ويظهـــر الادعاء أيضا فى نشر صورة الغلاف للجزء الخامس للترجمة اللاتينية لأعمـــال ابن رشد الطبيعية : السماء ، والكون والفساد ،والاثار العلوية ، والنباتات طبعة فينيسيا (البندقية) عام ١٥٦٢ وصورة أخرى للصفحة الأولى من الترجمة اللاتينية لشرح السماء من نفس الطبعة دون أن تكـــون لهـــا علاقة بموضوع الكتاب « ابن رشـــد مفـــكرا عـــــربيا ورائدا للاتجـــاه العقلى »(١٥) . كما يظهر النقص والتعـــويض فى استعمال الأسلوب الشخصى فى ضمير المتكلم المفرد مثـــل « وأعتقـــد من جانبى اعتقادا لا يخالجنى فيه أدنى شك » . فالعلم ليس اعتقادا شخصيا بل بنـــاء موضوعى(١٦) .

وتتحول الخطابة الى ماساة، ويصبح البحث العلمى موقفا دراميا. فمن الأمور المؤسفة أن الغرب عرف المكانة الحقيقية لابن رشد وفلسفته فى حين ظلمه العرب الذين لم يفهموا حق الفهم فلسفته وبالتالى عدم استفادتهم من دروسه . فمن المؤسف أن العرب لم يدركوا قيمة الشروح . ومن ثم تأتى المطالبة لمحاكمتهم لما يقومون به من تزوير فكرى . فهناك محاكم للغش والتزوير التجارى ولاتوجد محاكم للغش الفكرى(١٧) . واطلاق القول واصدار الأحكام العامة على العرب جملة واحـــدة مجاف للروح العلمى . فما أكثر الدراسات فى العالم العربى عن ابن رشد خاصة فى مصر والمغرب . بل يمكن القول أن هناك مدرسة رشدية مغربية حالية لنشر تراثه واعادة قراءة فكره على نحو علمى عقـــلانى وليس بطريقة

---

(١٥) ابن رشد : تصدير ، ص ٥ ، ص ١٠ ، ص ١٥ ، ص ١٧ .

(١٦) ابن رشد : فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعاصر ص ١٦٥ .

(١٧) ابن رشد : تصدير ، ص ٨ .

الخطابة والانشاء(١٨) ٠

ويتحول الهجوم على العرب بجعلهم جميعا يتغنون بالماضى منتقلا من العلم الى الصحافة ٠ انظروا معشر القــراء الى دولة كاليابان ٠٠ انظروا الى أوروبا فى عصر النهضة ٠ ان أوروبا لم تتقدم الا بأنها أدركت أنه لافائدة فى التغنى بالماضى لمجرد أنه ماضى لافائدة من البكاء على الاطلال بل لابد من التقدم الى الأمام وطرح الماضى جانبا(١٩) ٠ ومن ثم يظهر التناقض بين الدعوة لابن رشد وابن رشد جزء من الماضى ٠

وفى نفس الوقت الذى يتم فيه احتقار الباحثين العرب بلا تمييز يتم مدح المستشرقين كلهم بلا تمييز كذلك ولدرجة التملق والمداهنة والتقرب لأنهم يصفون الفلسفة الاسلامية بأنها عربية تأكيدا للأعراق وانكارا لوحدة الأمة وثقافتها الاسلامية التى ساهمت فيها كل الشعوب والأقوام وحديثهم عن العرب والعجم والبربر والترك كما يتم حاليا الحديث عن الأكــراد والدروز والشيعة والأقباط ٠فكان رينان على حق حين قال منذ أكثر من قرن بأن شروح أرسطو على درجة كبيرة من الأهمية لأن ابن رشد عبــر فيها عن آرائه الخاصة وليست مجرد شرح لأرسطو ٠ وأحدهم هو مفكرنا الكبير ورائدنا العظيم عاش السنوات الطوال وسط العديد من المكتبات العالمية شرقا وغربا ٠ ان دراسات المستشرقين جادة ٠ ويقينا أن دراسات المستشرقين أعظم بكثير من دراسات العديد من مؤلفى العــرب ولكن أكثرهم لايعلمون٠هذا الحكم المطلق يتنافى مع واقع الدراسات الرشدية٠ فقد أثبت عديد من الباحثين العــرب أهمية ابن رشد شارحا لأرسطــو مستعملا الشرح للوافد كوسيلة لنقد الموروث الأشعرى الكلامى والاشراقى الفلسفى ٠ كما أن كثيرا من المستشرقين اقتصروا على جعــل ابن رشد الشارح الأعظم دون اضافة أو جدة ٠ ان قيمة الدراسة فى ذاتها وليس لأن صاحبها مستشرق فتكون جيدة عالمة أو عربى فتكون سيئة جاهلة ٠ ولقد عقدت مؤتمرات عديدة عن ابن رشد وخرجت العديد من كتبه الى

---

(١٨) يكفى أن نذكر منهم محمود قاسم ، محمد عمارة ، جمال الدين العلوى ، محمد مصباحى ٠٠٠ الخ ٠

(١٩) ابن رشد : فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعاصر ، ص ١٧٣ ٠ (حوار حول ابن رشد)

النور والضياء . وهناك حركة رشدية كبيرة يقوم بها أناس آمنوا بربهم . فاذا كانت هذه الحركة فى الغرب فما دخل ايمانهم بالعلم ؟ ولقـــد كان رينان ملحدا بالرغم من عظمة « ابن رشد والرشدية » . واذا كانت داخل العالم العربى فلم يظلمه العرب . ولم احتقار الباحثين العرب واتهامهم بعدم فهم فلسفة ابن رشد واساءتهم له ؟ لو عرف العرب أهمية الشروح لما وقعوا فى العديد من الأخطاء عنـــــد اناس تحسبهم أساتذة وما هم بأساتذة . انهم أشباه أساتذة . وعديد من الدراسات العربية تعد جهلا على جهل . نقول الى الجحيم أيتها الدراسات التى تعتمد على السذاجة والسطحية والتزوير الفكرى . ان النقـــد العلمى يتطلب ذكر هـــذه الدراسات وتحليلها واعطاء نماذج منها على اخطائها المنهجية والموضوعية بدلا من هذا القذف والسباب والشتائم التى يعاقب عليها القانون . ويقدم هذا الكتاب على أنه تكفير عن ذنوب العرب الذين أساءوا الى ابن رشد وفلسفته طوال عدة قرون . وكيف يهمله العرب وهذا الكتاب ذاته بما به من أسماء عربية ليثبت عكس ذلك مع خطوط تحت أسمائهم نظرا لأهمية أشخاصهم وليس منهم مستشرق واحد مع مدح البعض بانه خير خلف لخير سلف الا اذا كانوا نكرة لم يسمع عنهم أحـــد فى مجال الدراسات الرشدية(٢٠) .

وأصبحت المبالغات سمة عامة تظهر أحيــانا على استحياء ودون فجاجة فى باقى البحوث . فابن رشد من أبرز المفكرين والفلاسفة الذين يمثلون ذروة الابداع الفلسفى العربى الاسلامى . يمثل التكوين البنائى للعقل العربى الاسلامى فى صورته التى لم يتجاوزها هذا التكوين حتى اليوم . تراكمت فى أعماقه كل الثقافات التى ســادت عصره ، توهج فتـــرة من الاعتصار الفـــكرى والمخاض العقـــلى(٢١) . ورينان هو المستشرق الفرنسى الشهير ودراسته الأكاديمية الشهيرة والرائدة « ابن رشد والرشدية » ،وابراهيم مدكور رائد الدراسات الفلسفية الاسلامية فى العالم العربى دون ذكـــر لمصطفى عبـــد الرازق ، وآخـــر له بحث

---

(٢٠) ان رشد : تصدير ، ص ٧ ، ص ٩ ، ص ١ - ١١ .

(٢١) ابن رشد : ابن رشد بين حضارتين ، ص ٣٠١ .

أكاديمى جاد ، وثالث باحث بولندى ممتاز(٢٢) . كما تجلت الخطابة والانشائية فى باقى البحوث من نفس المدرسة . فابن رشد هو الفيلسوف الواعى ، وروح القدرة على التحليل والنقد(٢٣) . كما أن مشكلة الخير والشر جد عظيمة ، وابن رشد آخر الفلاسفة العظماء فى الاسلام(٢٤).

وتتحول الخطابة والانشــــاء الى ربط ابن رشد بالعصر واستعماله لمهاجمة ما يسمى بالتطرف الدينى باسم العقل ولصالح الدولة ضد خصومها السياسيين . فالتطرف ظاهرة تؤرق المفكرين وتزعج المسئولين فى مصر وفى بلدان العالم الاسلامى . ويتم معالجة ظاهرة التطرف على نحـــو اعلامى بالهجوم عليه . فهو تستر بالدين ، والمتطرفون خوارج العصر دون تحليل للمصادر . والأخذ بالقيل والقال . التطرف يســـدد سهامه نحو مظاهر الحضارة . وهو دعوة مريحة الى الجهل ونبذ العلم باســـم الاسلام . كبرت كلمة تخرج من أفواههم . فلقد حظى العلم باعلى منزلة فى الدين. يروج التطرف للجهل ومعاداة الفكر العقلى ونبذه فى مجتمعنا المعاصر . وفى نفس الوقت يتم الدفاع عن الصحوة الاسلامية فقد نشأت الصحوة الاسلامية عقب هـــزيمة ١٩٦٧ وانتصار أكتوبر العظيم ١٩٧٣ يهاجمها العلمانيون متهمين اياها بالبقاء داخل صناديق الأسلاف المغلقة والكتب الصفراء للأسلاف . ثم يعود البحث للهجوم عليها حماية للشباب من التطرف والعناد . وفلسفة ابن رشد صالحة لذلك ، فهى نبذ للتعصب ومحاربة للتطرف والالحاد . فابن رشد هو الحـل للصراع الحالى بين السلفيين والعلمانيين ، وضد تجار الشريعة وأدعياء الدين الذين يقدمون لضحاياهم زادا فكريا مسموما(٢٥) . ويرى وضع الفلسفة الرشدية ضمن مقررات الثقافة الاسلامية حتى يجد الشبـــاب اجابات عن الأسئلة فى صدورهم بدلا من الحيرة والبحث عما يروى ظمأ المعرفة ، بدلا من أن

---

(٢٢) ابن رشد : مشروع ابن رشد الاسلامى والغرب المسيحى ، ص ١٤٥ ـ ١٤٧ ، ص ١٥٠ .

(٢٣) ابن رشد : مشكلة الحرية فى فلسفة ابن رشد ، ص ٢٤٥ .

(٢٤) ابن رشد : موقف ابن رشد من مشكلة الخير والشر ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(٢٥) ابن رشد : الفلسفة الرشدية مدخل الى الثقافة الاسلامية ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٩ ، ص ١١٦ .

يجدوا ضالتهم عند تجار الشريعة وأدعياء الدين ودعاة الارهاب . ويتكرر نفس الهدف فى مقال المشرف ربطا لابن رشد بقضايا العصر . فالعرب فى أمس الحاجة الى العقل اذا أردنا طريق التقدم . ونحن فى أمس الحاجة الى التفسيرات العقلية فى مجال الفقه . فابن رشد ضد الفهم المتحجر للدين ، ضد جماعات التكفير والهجـــرة التى تعد جهــــلا على جهل ، وتهاجم العلم والحضارة ، وتتحـــدث عن الغــــزو الفكرى كما تصورها أحلامهم الفاسدة وضيق عقولهم وقصور أفهامهم . طالب ابن رشد بفتح النوافذ حتى يتجدد الهواء حتى لانصاب بالاختناق والصعود الى الهاوية وبئس المصير . انظروا معاشر القراء لدولة كاليابان .. انظروا الى عصر النهضة ... ونحن ان لم نستفد فى حياته فلنستفد بعد موته بعد شيوع الخرافة والتفـكير اللاعقلانى حتى بين كثير من مثقفى الأمة العـربية للأسف الشديد . لقد أسرفنا فى طبع التراث دون أن نسأل اذا كان يعبر عن العقل أو اللاعقل مما يؤدى الى عدم وجود فلاسفة مستقبلا . الطريق مسدود ، الطريق منغلق ، طريق الظلام وما فيه من عى وحيرة وما فيه من اغتراب عن الحاضر وعن المستقبل . لن نتقدم اذا نظرنا الى التراث نظرة ضيقة متحجرة مع هجوم الكثيرين فى جيوش البلاد وأنصار الظلام على آرائه بعد موته ينتســــبون الى الفـكر والفـكر منهــــم براء . هل يصــــبح الرجـــــل العربى رجـــلا فرنســـيا اذا ارتدى الـــزى الأوروبى ؟ (٢٦) . ومع ذلك تربط بعض البحوث بين ابن رشد والعصر بطريقة أكثر علمية ضد من يعتبر الفلسفة مجرد ترف عقلى أو مماحكات غير مفيدة مثل التصور الشعبى الساذج . فابن تومرت أقل صمودا للنقد فى حين صمد ابن رشد(٢٧) . كما يتم الربط بين الحرية عند ابن رشد وتجربة الحرية فى الفكر العربى المعاصر عند أحمد لطفى السيد(٢٨) . واذا أمكن نقد الغزالى لهجومه على العلوم النقلية فان ابن تيميه ليس

---

(٢٦) ابن رشد : فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعـــاصر ، ص ١٦٩ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٥ .

(٢٧) ابن رشد : قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد ص ١٣٤ ص ١٤١ .

(٢٨) ابن رشد : مشكلة الحرية فى فلسفة ابن رشد ، ص ٢٤١ .

عدوا للمنطق بل ناقد للمنطق الصورى ومؤسس لمنطق جديد يقوم على تحليل اللغة وقياس الغائب على الشاهد واعطاء الأولوية للحس والتجربة على العقل الصورى كما هو الحال فى المنطق الاستقرائى(٢٩) ٠

ان العقل ليس هو الخطابة والانشاء ولا هو الأهواء البشرية ودخول العلم بمنطق المحبة والكراهية ٠ العلم له مقاييسه الموضوعية ٠ والموضوع يسبق الذات ، والبحث له أولوية على الباحث والا عاش الباحث على تراث الأموات والأحياء يتكسب به ويعيش عليه ٠

رابعا ـ الاعادة والتـــكرار :

ومع الخطابة والانشاء هناك فى كثير من البحوث الاعادة والتكرار لأشياء معروفة سلفا قيلت عشرات المرات ولا جديد فيها ٠ فتذكر عديد من البحوث أن ابن رشد ولد ببلاد الأندلس فى المغرب العربى ، وتبدأ بحياته ومؤلفاته فى عبارة أو فقرة أو فى عـــدة صفحات بلا صاحب ، وأغلب الظن أنها من المشرق ، وكأنها مادة قاموسية مكررة موجودة فى أى قاموس أو أى كتاب مدرسى عن ابن رشد ، حياته ومؤلفاته وتصنيفها الى فلسفية خاصـــة أو شروحه الأرسطية أو شروحه على أفلاطـــون ، وكلامية ، وفقهية ، وطبية دون ذكر لطبعاتها بالرغم من وجود كتـاب بأكمله عن مؤلفات ابن رشد(٣٠) ٠ ويتكرر ميلاده وحياته وموته أكثر من مرة فى عديد من البحوث ، بل عنـــد نفس الباحث(٣١) ٠ ويبدو التكرار فى بحث « ابن رشد وكتابه التهافت » حيث يغيب الجديد ، وتغيب القضية ، وتتكرر الأفكار النمطية مثل أهمية ابن رشد وأثره على الغرب المسيحى وكأنها مادة قاموسية تبدأ بحياته وعصره واسمه ونسبه وكنيته وشهرته اعتمادا على المراجع الثانوية وتكـــرارا للشروح وكأنه صاحب الفهرست لابن النديم دون تحديد لطباعتها ، مجرد قوائم وكأننا

---

(٢٩) ابن رشد : فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعاصر ، ص ١٦٦ ٠

(٣٠) ابن رشد : حياة ومؤلفات ابن رشد ، ص ١٩ ـ ٢١ ٠

(٣١) ابن رشد : فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى اعاصر ، ص ١٦٦ ، ابن رشد بين حضارتين ، ص ٣٠٢ ٠

فى مجال الحصر دون تحـــديد لوجودها أو لفقدها ٠ ودون تحـــديد لطبعاتها أو مخطوطاتها خاصة غير الشائع منها ٠ ثم يتم عرض « تهافت التهافت » وكأنه ملخص مدرسى ابتداء من التوفيق بين الفلسفة والدين ، وامتدادا الى الفلسفة الطبيعية حتى الفلسفة الالهية تم تخصيص المسائل الثلاث التى كفر فيها الغزالى الفلاسفة : قدم العـــالم ، وانكار علم الله بالجزئيات ، وانكار حشر الأجساد(٣٢) ٠ كما يبدو التكرار فى البحوث الثلاثة عن ابن رشد متكلما مع انها كان يمكن أن تصب فى الاجابة على الاشكال المطروح ، ابن رشد رائدا للعقلانية ٠ يبين البحث الأول «التأويل بين الأشعرية وابن رشد » أهمية الموضوع ومعنى التأويل عند الأشاعرة وعند ابن رشد والدافع الى التأويل ووجود المتشابه والموقف منه ثم قانون التأويل ، مايجوز وما لا يجوز منه ، ومن يقوم بالتأويل ومن يصرح لهم بالتأويل وحكم المخطىء فى التأويل وتطبيقات التأويل سردا لموضوعات « الكشف عن مناهج الأدلة » بداية بالتنزيه ٠ أما الخـــاتمة فلا تضيف جديدا ، وتعيد نفس الموضوعات السابقة، صعوبة التأويل وخطورته، من الذى يصلح للتأويل ، الله أم الراسخون فى العلم ، الاتفاق على التنزيه بين الأشاعرة وابن رشد ، وابن رشد أقـــرب الى السلف من متأخرى الأشاعرة ، وأكثر تسامحا مع مخالفيه ، موقفه من التأويل كنتيجة لثقافته الفقهية والفلسفية ٠ كان يمكن لهذه النتائج أن تكون فى صلب القضية ، « ابن رشد رائدا للعقلانية » ، وكيف يحل التأويل قضية التعارض بين العقل والنقل ، بين الفلسفة والدين(٣٣) ٠

ويعرض البحث الثانى « مشكلة الحرية فى فلسفة ابن رشد » موقف ابن رشد النقدى من مشكلة الحرية مكررا لفظ النقد دون تحـــديد لمعنى اللفظ ووصف ابن رشد له ٠ ويكرر ما هو معـــروف عن ابن رشد وما أجريت فيه عدة رسائل علمية فى عديد من الجامعات العربية مثل مبدأ السببية وتقرير العلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها ، والعناية الالهية التى تلائم بين حرية العبد ونظام الكون ، ثم يضاف موضوعان :

---

(٣٢) ابن رشد : ابن رشد وكتابه « تهافت التهافت » ، ص ١٨١ ـ ٢٠٠ ٠

(٣٣) ابن رشد : التأويل بين الأشعرية وابن رشد ، ص ٢٠٢ ـ ٢٣٧ ٠

حرية الارادة أساس الفعل الاخلاقى ، والحرية أساس العمل السياسى وصلاح المجتمع فى اطار مقارن من تاريخ الفكر الانسانى العام اعتمادا على بعض المصادر المترجمة والمراجع الثانوية(٣٤) : ويختفى دور العقل كسند للحرية . مع أن خلق الافعال هو الشق الأول من مبحث العدل عند المعتزلة والافعال عند الأشاعرة ، والعقل والنقل أو الحسن والقبح العقليان . الشق الثانى . يتفرد الأشاعرة عن الله بخلق الأفعال « أنا حر فأنا اذن موجود » وليس بالعقل كما هو الحال فى الكوجيتو الديكارتى « أنا أفكر فأنا اذن موجود » . ثم يأتى العقل بعد ذلك سندا للحرية حتى تكون الحرية عاقلة مسئولة .

ويكرر البحث الثالث « موقف ابن رشد من مشكلة الخير والشر » ما جاء فى « مناهج الأدلة » و « تهافت التهافت » دون ابراز لدور العقل ، المبحث الثانى فى العدل . كما يبدو التكرار والاعادة أيضا فى « ابن رشد المشائى الأول بين فلاسفة الاسلام » اشارة الى شروحه الثلاث ، الشرح والتلخيص والجامع والى ترجماتها اللاتينية والعبرية دون اضافة جديد فى علم القراءة والتأويل(٣٦) .

خامسا ـ ماذا تعنى العقلانية ؟

ولا يجد بحث واحد لتحديد معنى العقلانية كمذهب فى تاريخ الفكر الفلسفى الاسلامى أو الغربى ، الشرقى أو الغربى حتى يمكن الحكم بناء على هذه المذاهب على « ابن رشد عقلانيا » ولا يوجد بحث واحد مقارن بين اتجاهات مختلفة للعقلانية ومذاهب تاريخية سابقة على ابن رشد أو لاحقة عليه لمعرفة معنى الريادة والسبق اذا كان للشعارات وزن وللكلمات معنى . وبدلا من ذلك يقوم المشرف من جديد بخطبة عصماء فى التصدير وفى المقال عن أهمية العقل عند ابن رشد وفى حياتنا المعاصرة . والعقل ليس خطابة . ويصدق عليه القول الخطابى

---

(٣٤) ابن رشد : ابن رشد المشائى الأول بين فلاسفة الاسلام ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٣٥) ابن رشد : موقف ابن رشد من مشكلة الخير والشر ، ص ٣٥٩ ـ ٣٧٢ .

(٣٦) ابن رشد : ابن رشد المشائى الأول بين فلاسفة الاسلام ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

طبقا لتقسيم ابن رشد لأنواع الأقاويل الخطابية والجدلية والبرهانية. ماذا يعنى أن ابن رشد دعا الى دور العقل والتمسك به وجعـــله المعيـــار والدليل والحكم ؟ لقد تحول العقل الى دعوة ، والعقلانية الى خطابة . ماذا تعنى أعمال ابن رشد التى تقوم على العقل وتستند اليه ؟ كل عمل يقوم على العقل . وماذا تعنى العبارات الانشائية عن العقل عن تحديد معنى العقل ؟ الدروس العقلية الرائدة ، طريق العقل هو طريق التقدم ، الزعامة الفكرية طريق الحضارة والتنوير ، العقل الهادى لنا الى ســـواء السبيل ، المرشد لنا الى طريق الحق واليقين ، المنارة التى نعتصم بهـــا بحيث تهدينا الى كل مافيه الخيــــر لأنفسنا وللأمة العـــربية ، أساس التنوير ، ودعامة اليقظة الفكرية ، ومحـــور الصحوة الكبرى ، وركيزة التطور الخلاق الى الأمام دائما . ماذا يعنى تمسك ابن رشد بالعقـــل بلا حدود ، وجعل العقل هو المعيار والحكم ، وأنه ملتزم بالمنهج العقلى؟ وبدلا من تحديد معنى العقل ينطلق العنـــان للخطابة فنحن فى أمس الحاجة الى العقل وأحكامه . اذ لاتقدم الا عن طـــريق العقل . فقد تم التجديد عند محمد عبـده وطه حسين وزكى نجيب محمود بالطـــريق العقلى . الخير فى جعل العقل هو الدليل والمرشد لتخطى ظلمات الجهل والتقليد والعبور الى نور المعرفة والتقدم . واذا كان موقف ابن رشـــد التمسك بالعلم والتمسك بالعقل فعلينا الأخذ بأسباب العلم وأحكامه مع أن التقليد ليس من أحكام العقل حتى ولو كان تقليدا لعقلانية ابن رشد . لقد التزم ابن رشد بالعقل ومنهجه . أما نحن فأمامنا طريقان لا ثالث لهما : الايمان بالعقل وجعله الهادى فى الحيـــاة النظرية والعملية أو التباعد بيننا وبين العقل والسخرية من العقل وهو طـــريق الضياع ، الطريق المغلق . لقد نقد ابن رشد الاتجاهات التى لا تعتمد على العقل لانه رائد عقلى من طراز ممتاز عميد الفلسفة العقلية فى بلادنا العربية. أطلق العنان للعقل ولكننا للأسف الشـــديد مازلنا نتحـــدث عن كائنات خرافية هلامية وعن أشياء لامعقولة . فهل ياترى سنعود الى الحق يوما ؟ هل ياترى نستوعب دروس ابن رشد ، الدروس التى تقوم على احترام العقل ، الجزء الخالد من نفوسنا ، الجـــوهر الذهبى وأنفس مافينا ؟ كان المثل الأعلى لفكره محوره العقل ، ركيزته الى فتح النوافذ والابتعاد تماما عن طريق الظلام والسكون والجمود . انها دعـــوة من جانبى .

فهل ياترى ستجد صداها فى نفـــوس المهتمين بتراثنا الفكرى وقضايانا الثقافية ؟ (٢٧) • كل هذه الانشائيات دون تحديد لمعنى العقل ، هل هو العقل المنطقى الصورى أم العقـــل التجريبى الحسى أم العقل الحيوى الارادى •

والقضية المحورية التى تلمس قضية العقل هى العلاقة بين الفلسفة والدين كما تعالجها بحوث ثلاث ، اعتمادا على « فصل المقال »(٣٨) • والحقيقة أن « فصل المقال » حـــكم شرعى كما هو الحــــال فى فتاوى الفقهاء اجابة على سؤال : هل الفلسفة واجبة النظر بالشرع أو مندوبة أو مكروهة أو محرمة أو مباحة بناء على احكام التكليف الخمس • فهـــو مقال ينظر الى الفلسفة من منظور فقهى • واللفظان شرعيان : الحكمة والشريعة وليست الفلسفة والدين ، دراســـة للفلسفـة من منظور أصول الفقه • يقول الفقهاء أنهم يستعملون ما ينهون عنه • ويقول للجمهور ان كليهما واحد فلم قبول أحدهما دون الآخر • فالحكمة صاحبة الشريعة ، والأخت الرضيعة وأنهمـــا مصطحبتان بالطبع ، متحابتان بالجوهـــر والغريزة • النظر البرهانى موجود فى كليهما • ما سكت عنه الشرع يمكن معرفته قياسا • وما عـــرف به موافق للشرع • وأن خالف فتأويل الشرع ضرورى •

واذا صح قول ابن رشد بالحقيقتين فكيف يكون ابن رشد عقلانيا ؟ لذلك يرفض بحث « الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد » نظرية الحقيقة المزدوجة بوضوح ويبين وحدة العقـــل والسمع عند ابن رشد • فكلاهما تأمل فى الطبيعة ورفض للكهنوت ، ضد الأسرار ، وهو

---

(٢٧) ابن رشد : تصدير ، ص ٩ ، فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعاصر ، ١٦٥ ص ١٦٧ ص ١٧٣ ـ ١٧٧ •

(٣٨) أحمد محمود صبحى : هل أحكام الفلسفة برهانية ، دراســـة نقدية لقضية التوفيق بين الدين والفلسفة ، ص ٥٩ ـ ٨٨ •

محمد حمدى زقزوق : الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية عند ابن رشـد ص ٩١ ـ ١٠٤ •

حامد ظاهر : قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومـرت وابن رشد ، ص ١١٩ ـ ١٤١ •

موقف اسلامى اصيل عبر عنه ابن رشد . حقائق القرآن لا يوجد أتم اقناعا وتصديقا للجميع منها . تقبل النصرة بالطبع حتى يصل أهل التاويل فيها الى البرهان . الحق لايضاد الحق بل يوافقه ويشهد له . ابن رشد اذن برىء من القول بالحقيقة المزدوجة وبرىء من دعــوى الالحاد ، وبرىء من دعوى التناقض بين الحقيقتين الدينية والفلسفيــة ، وبرىء من جعل الفلسفة اعلى من الدين (٣٩) .

وتثبت الدراسة الثانية « هل أحكام الفلسفة برهانية ؟ » أن فلسفة ابن رشد جــدلية لابرهانية ، ولا تتعلق بنظرية فى التأويل . وتثبت جدلية فلسفة ابن رشد من حيث نقطــة البــداية فى فلسفته ومن حيث مقدماتها ونتائجها . فمن حيث البداية الجدل نقد للسابقين وهو مايفعله ابن رشد . ومن حيث المقدمات ، مقدمات ابن رشد مشهورة مثل قضايا الجدل ، صادقة على الأكثر أو يتعادل فيها الصدق والكذب مما يقتضى تعليق الحكم أو صادقة نادرا . فمقدماته ليس بها صدق مطلق ، ومن ثم فهى ليست برهانية بالضرورة . ووجــود الله أمر يقيــنى برهانى . والوقائع غالبة لا دائما . وتكافؤ الأدلة فى قدم العالم وحدوثه . أما من حيث النتائج فلا توجد حلول حاسمة فى أية قضية .

ويثبت البحث الثالث « قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد » عقلانية ابن رشد عن طريق التضاد . فالشريعة عند عند ابن تومرت قائمة بذاتها ، مستقلة عن العقل الانســانى ، لايتوقف ثبوتها على أحكام العقل . والدليل على ذلك أن العقل امكان وجــواز فى حين أن الشريعة يقين ، وأن ضرورات العقل ثلاثة والشريعة ليست كذلك، وأن أعيان الاشياء متساوية عقليا والشريعة بها حظر واباحة ، وأن الله مالك الأشياء وليس العقل . ويبدو التناقض عند ابن تومرت فى استعمال

---

(٣٩) وحدة الحقيقة اسلامية بدليل عندما سئل اعرابى : لم امنت بمحمد ؟ فقال: ما رأيت محمدا يقول فى أمر افعل والعقل يقول لا تفعل . وما رأيت محمدا يقول فى أمر لا تفعل والعقل يقول افعل ، ابن رشد ، الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد ، ص ٩٢ .

الأدلة العقلية لاثبات غياب الدليل ! أمـــا ابن رشد فانه يستعمل المنهج الشرعى لاثبات عكس ما يثبته ابن تومرت • فالنظر واجـــب بالشرع • وهو أوسع من القياس الفقهى • ومع ذلك يتشابه القياس العقلى والقياس الفقهى فى لزوم البرهان • النظـــر فى القياس ضرورى حتى ولو كان صاحبه على غير ملة الاسلام • يشترك الدين والفلسفة فى الهدف البعيد ، من المصنوع الى الصانع ، لاتضر الفلسفة الدين فى شىء • والقائل بضرر الفلسفة اما لنقص فى فطرته أو بسبب سوء ترتيب نظره فيها أو من قبل غلبة شهواته عليه أو أنه لم يجد معلما ومرشدا أو لاجتماع الأسباب كلها أو أكثر من سبب • والتأويل ضرورى لأن الشريعة بها ظاهر وباطن • فالناس على ثلاث طبقات : الحكماء أو الفلاسفة وهم أهـــل البرهان ، وأهل الموعظة الحسنة والارشاد مثل العامة وهم أهل الخابة،والمتوسطون وهم أهل الجدل • وقد استعملت الشريعة المناهج الثلاثة • ويظلم ابن رشد اذا قيل أنه كان يعنى بالعقل على حساب الشرع •

ان ابن رشد لايقول بقـدم العـــالم ولكنه يبين أن قدم العالم له ما يؤيده فى النقل والعقل • ومن ثم يكون تكفير الغزالى للفلسفة لقولهم بقدم العالم اتهاما بغير دليل • قال ابن رشد ذلك دفاعـــا عن الفلسفة فى « تهافت التهافت » ضد اتهام الغزالى لهم فى « تهافت الفلاسفة »• كما يبين ضعف أدلة الأشاعرة لاثبات الحدوث سواء كان دليل الجوهر والاعراض أو دليل القدم والحدوث أو دليل الجوهر الفرد أو دليـــل الممكن والواجب ، وأن العقل قادر على اعطاء أدلة أفضل من ذلك مثل دليل العناية ودليل الاختراع • فابن رشد لا يقول بقدم العالم انما يبين احتمال ذلك فى النقل والعقل ، ولا يرفض القول بالحـــدوث انما يبين ضعف أدلة الأشاعرة لاثبات حدوث العالم • يعـــرض ابن رشد حالتين خاصتين ، حالة الفلاسفة وحالة الأشاعرة ولايصدر حكمين مطلقين على قدم العالم أو حدوثه •

وهناك ثلاثة أبحاث مساندة تتصل بالعقل عند ابن رشد ، نظرية ابن رشد فى النفس والعقـــل ، وابن رشد والتصـــوف ، وابن رشـد

طبيبا(٤٠) . الأول مستقل بذاته ولايوظف فى الاشكال الرئيسى ، ابن رشد رائدا للعقلانية وكان يمكن توظيفه مادام يبدأ بتحديد العقل النظرى عند ابن رشد لتحديد الصلة بين الجانب المعرفى والجانب الميتافيزيقى فيه . فاذا كانت المعانى الجزئية تجريدا من الصفات الحسية فى الأشياء فان الكليات لاتعتمد الا على العقل . ولكن البحث فى معظمه يركز على علاقة ابن رشد بارسطو فى موضوع صلة النفس بالعقل والتوفيق بين القول بفناء النفس عند أرسطو والقول بخلودها عند ابن رشد مما يجعله أدخل فى ابن رشد بين الحضارتين الاسلامية واليونانية والغربية فى العصور الوسطى والحديثة من ناحية أخرى . ومع ذلك ينتهى البحث بنقد نظرية ابن رشد فى العقل وتصوره لجوهرية النفس دون تحديد لمعنى الجوهر وتناقضه فى القول بأن العقل الهيولانى استعداد وأنه ليس به شىء بالقوة ، وأن العقل الفعال جزء من الانسان وليس فرديا بل للنوع الانسانى ، وبالتالى فشله فى الدفاع عن خلود النفس .

ويعرض البحث الثانى قضية العقلانية فى التصوف مبينا أن التصوف عند ابن رشد مجموعة من القيم الاخلاقية . كما أن الحدس عند الحكيم مصدر من مصادر المعرفة . فابن رشد ، على غير ماهو شائع عنه ، لايرفض التصوف على الاطلاق بالرغم من رفض الصوفية المتأخرين لابن رشد . ومع ذلك تظل الرواية الخاصة بمقابلة ابن رشد مع ابن عربى ، على فرض صحتها ، أو انتحالها ، تبين وحدة الطريقين ، طريق العقل وطريق الذوق(٤١) .

والبحث الثالث « ابن رشد طبيبا » كان يمكن أن يقدم نوعا آخر من عقلانية ابن رشد المرتبطة بالعلم والتجربة ولكنه اقتصر فى غالبيته على تحليل آراء ابن رشد الطبيب مع اشارة مقتضبة فى أول البحث الى

---

(٤٠) محمود زيدان : نظرية ابن رشد فى النفس والعقل .
أبو الوفا الغنيمى التفتازانى : ابن رشد والتصوف .
منى أحمد ابو زيد : ابن رشد طبيبا .

(٤١) روى أن ابن عربى وابن رشد تقابلا عرضا فقال ابن رشد عن ابن عربى : أنه يشاهد ما أعقل . وقال ابن عربى عن ابن رشد : أنه يعقل ما أشاهد .

علم الفلك اعتمادا على المراجع الثانوية • كما يبين أهمية ابن رشد فى علم الطب اعتمادا على المصادر القديمة والمراجع الحديثة • كما يعرض مؤلفاته الطبية مع اشارات مقتضبه الى « الكليـــات » مخطوطا أو الى رسائل ابن رشد الطبية المطبوعة • ومع ذلك يحاول البحث اثبات قيام المسائل العامة فى « الكليات » على العقل فى القسم الخاص بعلاقة الطب بالفلسفة عند ابن رشد • فالطب أحد فـــروع الحكمة العملية يبحث فى الجسم • فهو جـــزء من الفلسفـــة الطبيعية يتطلب ضرورة تحـــديد المصطلحات ، ومعرفة المنطق ، والجمع بين القياس والتجربة • وتشتمل صناعة الطب على معرفة موضوعاته ، والغـــايات المطلوب تحصيلها ، والآلات التى تحصل بها • أما أخلاقيات الطب فتضمن الاعتراف بفضل القدماء ، والاعتـــراف بالحقيقة العلمية ، والانتساب الى العلم حقيقة لا ادعـــاء •

سادسا ـ ابن رشد بين الحضارتين اليونانية والمسيحية :

بالرغم من أن هذا الموضوع فى حد ذاته أقرب الى التفاعل الحضارى بين الحضارة الاسلامية من ناحية والحضارتين اليونانيـــة والغربية فى عصريها الوسيط والحديث من ناحية أخرى الا أنه كان يمكن أن يوظف فى اشكالية العقلانية عند ابن رشد ومقارنة العقلانية الاسلامية بالعقلانية اليونانية بالعقلانية الغربية ، الوسيطة والحديثة • ولكن انصبت البحوث كلها فى هذا الموضوع فى قضية الأثر والتـــأثر ، تأثر ابن رشد بالحضارة اليونانية ممثلة فى أرسطو وتأثر الغرب بالحضـــارة الاسلامية ممثلة فى ابن رشـــد •

وتتناول علاقة ابن رشد بالفلسفة اليونانيـــة ثلاثة بحوث • الأول « ابن رشد المشائى الأول بين فلاسفة الاسلام » يجعل ابن رشد شارحا لأرسطو وتابعا له فيما لايتجاوز صفحتين عن ابن رشد وشروحه الثلاث ، الشرح والتلخيص والجامع وترجماته الى اللغـــة اللاتينية والعبرية دون اضافة جديد على ماهو معروف وشائع (٤٢) •

---

(٤٢) ابن رشد : ابن رشد المشائى الأول بين فلاسفة الاسلام ص ٢٧ ـ ٢٨ •

والثانى «ابن رشد والمؤثرات اليونانية فى فلسفته الالهيـــة» ٠ والعجيب رصد هذه المؤثرات فى أبعد الموضوعات عنها وهو الالهيات ٠ يبدو فيه ابن رشد معجبا باليونان باشخاصهم وليس بسبب البرهان ٠ مهمته تقديم ارسطو بعيدا عن أخطاء الشراح ٠ ويرصد الباحث هـــذه المؤثرات فى استعمال ابن رشـــد للمصطلحات الفلسفية التى شاعت فى الحضارة الاسلامية منذ عصر الترجمة والتى استعملها المسلمون للتعبير عن تصوراتهم الاسلامية على ماهو معروف فى ظاهرة «التشكل الكاذب»٠ فهل هناك مؤثرات يونانية فى مشكلة قدم العالم لان ابن رشد يستعمل مفاهيم الازلية والابدية والقوة والفعل ؟ وهل هناك مؤثرات يونانية فى الادلة على وجود الله لأن ابن رشد يستعمل مصطلحات الحد والبرهان والقوة والفعل والسبب والمسبب ؟ ويستمر البحث على هـــذا المنوال ، رصد المؤثرات اليونانية فى مشكلة الذات والصفات ومدى استفادته من أدلة اليونان فى حديثه عن الصفات والعلم والارادة والقدرة ، وفى مشكلة القضاء والقدر واستفادته من آراء اليـــونان عن الجوهر والعرض وفى مشكلة خلود النفس واستفادته من اراء اليونان حول النوع والعدد والنفس الكلية وأنواع العقول ، وكأن ابن رشد لم يفكر فى شىء الا اعتمادا على اليونان وكانه ، وهو رائد العقلانية ، مقلد لليونان(٤٣) ٠

وقد ظهر منهج الأثر والتاثر فى بحث «هل أحكام الفلسفة برهانية، دراسة نقدية لقضية التوفيق بين الدين والفلسفة» وفى بحث «نظرية ابن رشد فى النفس والعقل (٤٤) ٠ فأرسـطو فى البرهان هو الأساس وابن رشد يقاس عليه ، والبحث فى أرسطو أولا هل كانت فلسفته برهانية أم جدلية ٠ ويضيع الموضوع فى العلم الغزير بين اليونان والغرب والانتهاء الى عموميات تجعل من ابن رشد جدليا لا برهانيا٠ والحقيقة أن ابن رشد لايشرح أرسطو بل يقرؤه ٠ فارسطو الموضوعى لاوجود له الا من خلال القراءة ، كل شرح قراءة تضع الوافد فى اطار الموروث٠فابن رشد يستخدم

---

(٤٣) ابن رشد : ابن رشد والمؤثرات اليونانية فى فلسفته الالهية ص ٢٦٥ــ٢٩٨٠

(٤٤) ابن رشد : هل أحكام الفلسفة برهانية ، دراسة نقدية لقضية التوفيق بين الدين والفلسفة ص ٥٩ ــ ٨٨ وأيضا نظرية ابن رشد فى النفس والعقل ص٤١ــ٥٥

أرسطو كعلوم وسائل لاكعلوم غايات.وتتكرر فكرة الأثر الأرسطى فى البحث الثانى دون الاستفادة من علوم القراءة والتفاعل الحضارى . يبدأ البحث بتعريف النفس عند أرسطو وقواها عند أفلاطون وشروح ابن رشد لهـــا وكان الفلسفة اليونانية عند أفلاطون وأرسطو هى الأصل وشروح ابن رشد هى الفرع.أرسطو يبدأ وابن رشد يتبع ، أرسطو يبدع وابن رشد يشرح ، أرسطو يضع وابن رشد يكمل كما هو الحال فى طبيعـــة العقل . فاذا كانت النفس عند أرسطو صورة البدن فلامكان لخلود النفس عنده .لذلك يوفق ابن رشد بين رأى أرسطو فى العقل وعقيدة خلود النفس متابعا الاسكندر فى تقسيمة العقل الى هيولانى .، والعقل بالملكة داخل النفس ، والعقل الفعال خارجها.فغاية ابن رشد الدفاع عن العقل النظرى المفارق للبدن لافساح المجال لخلود النفس . فالعقلانية عند ابن رشد من نوع مخالف للعقل عند أرسطو ،عقلانية متصلة بالنفس من أجل اثبات الخلود. وينتهى البحث بنقد التراث اليونانى حول الثنائية وكذلك التراث الغربى الحديث.ويتحول الباحث الى مفكر له رأى فى وحدانية النفس ضـــد الثنائية القديمة والحديثة مما يعتبر خروجا على الموضوع .

أما البحث الثالث المباشر فى التفاعل الحضارى فهو « ابن رشـــد بين حضارتين » فهو أطول بحوث الكتاب على الاطلاق ، ولا يتطرق الى الفلسفة اليونانية الا فى الصفحات الخمس الأخيرة بعد الحديث عن البيئة الفكرية والحضارة العربية الاسلامية عامة والاندلس خاصة وتفصيل بنى عباد فى اشبيلية والمرابطين والموحـــدين فى الأندلس ، ومظاهر الحضارة العربية فيها . وفى النهـــاية الترجمات والروايات فى المشرق والمغرب من القدماء والمحدثين ، واعجاب ابن رشد بأرسطو وبتفاعله مع اليونان . وينتهى البحث الى نتيجتين ، أن ابن رشد عـــــرف الفـــكر اليونانى ، وأن الثقافة العربية الاسلامية هى القاعدة الأصلية فى تكوين العقل العربى الاسلامى عند ابن رشد . الأولى تكرار لمـــا هو معروف ، والثانية افتراض دون برهان(٤٥) .

---

(٤٥) ابن زشد : ابن رشد بين حضارتين ص ٣٠١ ـ ٣٥٥ .

وهناك ثلاث بحوث حول صلة ابن رشد بالحضارة الغربية المسيحية فى العصر الوسيط ٠ الأول « مفارقة ابن رشد » يبدأ بالتعريف المنطقى للمفارقة وهى القضية التى تبدو متناقضة ومع ذلك تدل على حقيقة ما٠ والحقيقة أن المفارقة المقصودة ليست المفارقة المنطقية الصورية بل المفارقة التاريخية المادية ، اضطهاد ابن رشد فى الحضارة الاسلامية ، وهو أساس التنوير فى الغرب ٠ وفرق بين المنطق الصورى والواقع التاريخى ٠ المنطق الصورى لامكان له ولا زمان ، ولا يتعلق بالصراعات الاجتماعية والسياسية فى حين أن الواقع التاريخى ميدان الصراع ٠ كان الصراع حول ابن رشد فى الحضارة الاسلامية ،بين الفقهاء وأحرار الفكر ، وانتصر التزمت ٠ وكان الصراع فى الغرب كذلك ٠ وتم اضطهاد انصار ابن رشد اللاتين ورد عليه البير الكبير وتوما الأكوينى ، وكفرته الكنيسة ، وحرمت كل أنصاره من الرحمة الالهية ٠ كما اضطهد الغرب مفكرين أحرار آخرين مثل ابيلار واسبينوزا ٠ ومحاكم التفتيش فى نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث شاهدة على ذلك(٤٦) ٠

والثانى « مشروع ابن رشد الاسلامى فى الغرب المسيحى» يستعرض مواقف الباحثين وتعدد آرائهم عن ابن رشد ٠ فالمستشرقون يجعلونه مجرد شارح لأرسطو أو على أكثر تقدير توفيقى أو فقيه ، والعرب يجعلونه أصيلا مبدعا ٠ ويقرر البحث أن ابن رشد لم يكن مغتربا بل كان مجتهدا ٠ فالعقيدة الدينية واحدة والفكر الدينى متعدد ٠ وأنها مسئولية الغزالى الذى قضى على التعددية نظرا للظروف السياسية والاجتماعية التى كانت تمر بها الأمة فى عصره ، بداية الحروب الصليبية وضرورة تقوية الدولة والدفاع عن الأشعرية فى العقيدة ، والشافعية فى الفقه ، ونقد كل فرق المعارضة مثل الباطنية والمعتزلة ، تشريع أيديولوجية القوة للسلطان وأيديولوجية الطاعة الممثلة فى التصوف للناس(٤٧) ٠

والبحث الثالث « ابن رشد فى عصر النهضة » يعطى معلومات عن

---

(٤٦) ابن رشد : مفارقة ابن رشد ص ٣١ - ٣٨ ٠

(٤٧) ابن رشد : مشروع ابن رشد الاسلامى فى الغرب المسيحى ٠

ابن رشد فى الغرب تبين عظمة الغرب مع ثبت بأسماء مؤلفاته المترجمة الى اللاتينية ثم ترجمتها للعربية دون دراسة أو تحليل أو رأى فى عقلانية كما هو الحال فى الاستشراق الموسوعى الخالص(٤٨) ٠

سابعا ـ النصوص العشوائية :

وفى القسم الثالث توجد نصوص مختارة اختيارا عشوائيا من مؤلفات وشروح ابن رشد لاتصب فى الاشكاليتين الرئيسيتين المعلنتين على الغلاف ٠ ابن رشد مفكرا عربيا ورائدا للاتجاه العقلانى ٠ وعددها تسعة ٠ تبدأ بثلاثة نصوص من مؤلفاته الثلاثة «بدايةالمجتهد» و «مناهج الأدلة « و « فصل المقال » ٠ ثم تعقبها ثلاثة نصوص من تلخيصين « المقولات » و « تلخيص مابعد الطبيعة » وشرح « تفسير ما بعد الطبيعة »٠ ثم يظهر النص السابع من مؤلف «تهافت التهافت» ،والثامن من تلخيص « تلخيص السماء والعالم » والتاسع من رسائله الطبية « الترياق »(٤٩)٠ ولا يوجد تحليل لهذه النصوص التسع لبيان ماتتضمن

---

(٤٨) ابن رشد : ابن رشد فى عصر النهضة (طبع جميع مؤلفاته المترجمة الى اللاتينية) ٠

(٤٩) ١ ـ نص من كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد فى الفقه ، ابن رشد ص ٤٢٥ ـ ٤٢٨ ٠

٢ ـ نص من كتاب الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، ابن رشد ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣١ ٠

٣ ـ نص من كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ابن رشد ص ٤٢٣ ـ ٤٢٦ ٠

٤ ـ نص من كتاب المقالات تحقيق الأب موريس بوييج ، ابن رشد من ٤٣٧ـ٤٣٨٠

٥ ـ نص من كتاب تخيص مابعد الطبيعة ، ابن رشد ص ٤٣٩ ـ ٤٢٢ ٠

٦ ـ نص من كتاب تفسير مابعد الطبيعة ، المقالة الأولى الالف الصغرى ـ تحقيق الأب موريس بوييج ، ابن رشد ص ٤٤٣ ـ ٤٤٥ ٠

٧ ـ نص من كتاب تهافت التهافت لابن رشد تحقيق الأب موريس بوييج،ابن رشد ص ٤٤٧ ـ ٤٤٩ ٠

٨ ـ نص من تلخيص السماء والعالم لابن رشد ، ابن رشد ص ٤٥١ ـ ٤٥٣ ٠

٩ ـ نص من كتاب الترياق لابن رشد ، ابن رشد ص ٤٥٥ ـ ٤٥٨ ٠

من ريادة للفكر العربى أو للاتجاه العقلانى . كما تغيب الاحالاتالكاملة لطبعات هذه النصوص بل يوحى بأنها مستقاة من مخطوطات دون تحديد لأرقامها أو لاماكنها أو لعددها .فالنص الأول من «بداية المجتهد ونهاية المقتصد فى الفقه » لاتذكر طبعته بل تذكر نسخة فاس ولا يتضمن الا تغيير كلمة فى النص « أن اثبت لنفسى » وفى نسخة فاس « التنبيه لنفسى » وكأنها القراءة الوحيدة من نسخة وحيدة فى حين أن الكتاب مطبوع . والنص الثانى من « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » دون ذكر أية طبعة وأية صفحات . والثالث من كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » دون ذكر الطبعة وأرقام الصفحات . والرابع نص من كتاب « المقولات » دون ذكر هل شرح أم تلخيص ام جامع ، وذكر محققه المستشرق الأب موريس بويج ، ودون تحديد طبعته وأرقام الصفحات . والخامس نص من « تلخيص ما بعد الطبيعة » دون ذكر لطبعته هل حيدر آباد أم عثمان أمين ولا لأرقام الصفحات . والسادس نص من « تفسير ما بعد الطبيعة » مع تحديد المقالة الأولى ، الألف الصغرى ، تحقيق الأب موريس بويج لأنه مستشرق ودون ذكر لأرقام الصفحات . والسابع نص من « تهافت التهافت » تحقيق الأب موريس بويج دون ذكر لأرقام الصفحات . والثامن نص من « تلخيص السماء والعالم » دون تحديد ، والنص طبعة جمال الدين العلوى ولكن الاحالة الى المخطوط مع هامش واحد عن كلمة « الجرم السماوى » قراءة المشرف مع زينب الخضيرى وكأنها هى الوحيدة العويصة دون تحديد لرقم المخطوط أو مكانه أو أرقام الصفحات . والتاسع نص من « الترياق » ضمن رسائل ابن رشد الطبية تحقيق الأب جورج قنواتى وسعيد زايد ودون تحديد لأرقام الصفحات . يذكر من المحققين المستشرقون الأصدقاء ولا يذكر العرب الاعداء . والهوامش كلها من المحققين مع عدم تطابق أرقامها مع الأرقام فى أعلى الصفحات ، وكأنها مجرد نقل دون تمييز أو اعادة ترتيب .

وعدم ذكر الاحالات الكاملة للمصادر والمراجع سمة عامة فى الكتاب كله وليست فقط فى القسم الثالث ، فلا توجد احالات الى دور النشر

وسنواته وأماكنها وأرقام صفحاتها(٥٠)٠ وبعض البحوث مشفوعة بقائمة من المصادر والمراجع والبعض الآخر خالية منها ٠ وبحث المشرف خال من الاحالات فى الهوامش الى المصادر والمراجع لأنه خال من المـــــادة العلمية المحللة اعتمادا على الخطابة والانشاء ، بالرغم من وجود بعض المصادر والمراجع فى نهـــاية البحث دون ذكر للناشر أو السنة أو مكان النشر أو الطبعة سواء العربية أو الأجنبية، الفرنسية والانجليزية والباحث لا يعرفهما ، وكأنها قوائم ثابتة تلحق بكل بحث(٥١) ٠

ومع ذلك ، فان تواصل الجهود مطلوب وتراكم الخبرات الفلسفية أساس الوعى الفلسفى التاريخى ٠ فـــلولا كتاب « ابن رشد مفكرا عربيا ورائدا للاتجاه العقلى » ماتمت المراجعة ، وما حدث نقاش وحوار بين أساتذة الفلسفة فى مصر ، فالجهد يولد جهدا ٠ والسكون يعقبه الموت ٠

---

(٥٠) ابن رشد ص ٥٠ ص ٥٤ ص ٨٦ ص ١٨٩ ـ ٢٠٠ ص ٢٠٤ ـ ٢٢٤ ص ٢٤٣ ـ ٢٦٠ على سبيل المثال لا الحصر ٠

(٥١) ابن رشد ص ١٧٧ ٠

ابن رشد واشكالياته المعاصرة
بحث نقدى حول الكتاب التذكارى

فؤاد زكريا

مقدمة لابد منها :

لست أعرف سببا محددا لعقد هذه الندوة . فالسبب المعلن عنه لايبدو مقنعا ، ذلك لأن مناقشة كتاب تذكارى عن ابن رشد كان يكفيها مقال نقدى ، أو مجموعة من المقالات ، فى مجلة ثقافية . واذا لم يكن هناك بد من عقد ندوة ، فتكفى فى ذلك جلسة واحدة يتناقش فيها عدد من المتحدثين . أما أن تخصص لغرض كهذا ندوة ذات جلسات متعددة، تطلب فيها أوراق البحث مقدما من الكتاب ، ويدعى لها عدد كبير من المتحدثين والمحاورين ، فهذا أمر لم يجر عليه العرف فى مناقشة الكتب المنشورة . ويزداد العجب اذا كانت فكرة عقد الندوة قد انبثقت من بعض من أسهموا فى الكتاب ذاته ، وكانت نسبة كبيرة من المتحدثين فيها من بين هؤلاء . ومن هنا فان تلبيتى للدعوة الى الاسهام فى هذه الندوة لا تعنى أننى مقتنع بفكرتها من حيث المبدأ . فلابد أن أقرر ، منذ البدء ، أن فى هذا الموضوع حلقة مفقودة ، لا أدرى ماهى ، وأن هدفه المعلن لا يفسر نفسه بنفسه تفسيرا كافيا .

ومن ناحية أخرى فاننى أقدر مدى الصعوبة التى يواجهها من يخططون لمشروع كهذا ، فالوضع الأمثل هو أن يسير كل شىء وفقا لخطة عامة وهدف مشترك يحدده المشرفون على اصدار الكتاب مقدما ، ويتم تكليف كل باحث بمهمة محددة ضمن هذا الاطار . ولكن صعوبات البحث فى بلادنا ، والضغوط المتزايدة على حياة الباحثين وفكرهم ، ترغم المشرفين على هذا النوع من المشروعات الثقافية على قبول ما يرد

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية الاداب - جامعة الكويت (سابقا) .

اليهم ، وعلى أن يكيفوا تخطيطهم - ان وجـــد - تبعا لما يتقـــدم به الباحثون ، لا العكس ٠

وهكذا فان جميع الانتقادات التى يمكن أن توجه الى الهيكل العام للمشروع ، من حيث الافتقار الى خطة موحدة أو الى ترتيب الأبحاث ترتيبا منطقيا - هذه الانتقادات تنطلق فى الواقع من وجهة نظر مثالية يمكن التخلى عنها على الفور حين نتأمل الموضوع فى ضوء المصاعب الواقعية ومشاكل البحث ومشاغل الباحثين فى بلادنا ٠ وهذه حقيقة أساسية أرجو أن تكون دائما فى ذهن أى قارىء للصفحات التالية من هذا البحث النقدى ٠

ملاحظات نقدية موجزة :

لما كان أحد الأهداف التى أعلن عنها لعقد هذه الندوة هو « تقييم » الكتاب التذكارى ، فقد رأيت من واجبى أن أقدم بعض الملاحظات النقدية السريعة ، آملا أن يوضع فى الاعتبار ما ذكرته منذ قليل عن صعوبات التخطيط لهذا النوع من الكتب ٠

١ - كان هناك اهمال شنيع فى مراجعة تجارب الطباعة ، مما أدى الى ظهور أخطاء مطبعية هائلة العدد ، فادحة التأثير فى فهم المعانى، وهو أمر لا يليق بكتاب كهـــذا ، ولا يتناســب مع أهميتـــه (كمثال ، انظر ص ١٩) ٠

٢ - كانت لهجة **عاطف العـــراقى** ، فى بعض مواضع التصدير ، متحمسة أكثـــر مما ينبغى ٠ فهو يتحـــدث عـــن « اناس تحســبهم أســاتذة وما هم بأساتذة ٠انهم اشبـــاه أساتذة » ٠ وبعد قليل يصف ما يرتكبه أشباه الأساتذة هـــؤلاء بأنه « تزوير فكرى » ، وهو أخطر أنواع التزوير ، ويتمنى وجود محاكم « للغش الفكرى » تنزل القصاص العادل بهؤلاء المزورين الذين ستلحقهم على أية حال « لعنة الفلاسفة » فى كل زمان ومكان ٠ وينتقل مباشرة الى وصف العديد من الدراسات التى صدرت عن ابن رشد بأنها « حالات من التخلف العقلى أو الفكرى»، وبأنها « جهل على جهل » ، وينتهى بهتـــاف حماسى هـــو : « الى

الجحيم أيتها الدراسات التى تعتمد على السذاجة والسطحية والتزوير الفكرى » .

وأنا على يقين من أن الحماسة المتدفقة لعاطف العراقى ، وتعايشه الطويل والمثمر مع فكر ابن رشد ، هما اللذان أمليا عليه هذه العبارات الحادة ولكن مقدمات الكتب ، وبخاصة الكتب التذكارية ، تكون عادة أخف لهجة من ذلك ، حتى تتيح للقارىء فرصة تكوين رأيه الخاص . والأهم من ذلك أن هذا الهجوم الحاد قد اتخذ صيغة المجهول ، ولم يحدد اى الأسماء والعناوين يقصد . وقد تكون هذه الصيغة المجهولة جائزة فى الفضائح الصحفية التى تكتفى أحيانا بالتلميح بدلا من التصريح . اما فى حالة البحث العلمى فلا مجال لمثل هذا التلميح المجهل ، ولا أظن أن القارىء سيرتاح حين يستمع الى كل هذه العبارات الحادة دون أن يعرف من هو المقصود ، بل انه سيشعر بالقلق لأنه يود على الأقل أن يتجنب تأثير هؤلاء الباحثين « المزورين » وكتبهم « المتخلفة » .

٣ - أما القضية التى اتخذ منها مراد وهبه موضوعا لبحثه وهى « مفارقة ابن رشد » ، فلا تنطوى فى رأيى على أية مفارقة . فهو يرى أن « مفارقة ابن رشد تكمن فى أنه كان ممهدا للتنوير فى أوروبا ، فى حين أنه كان موضع اضطهاد من أمته » . (ص٣١) غير أن هذه ليست مفارقة على الاطلاق ، لأن جميع الممهدين للتنوير ، حتى فى الحضارة الأوروبية ذاتها ، كانوا موضع اضطهاد ، وظلوا كذلك حتى بعد مضى أكثر من أربعة قرون على عصر ابن رشد . وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدد حرق جوردانو برونو فى أول عام من القرن السابع عشر ، ثم محاكمة جاليليو ومصادرة فكر ديكارت واضطرار اسبينوزا وليبنتس الى التزام الحذر الشديد - وكل هؤلاء كانوا من الممهدين للتنوير ، بل من أقوى دعائمه ، ومع ذلك فان أحدا من الباحثين لم يصف العلاقة بين دورهم التنويرى وبين اضطهادهم بانها « مفارقة » ، بل انها قد عدت من طبيعة الأشياء فى مرحلة الانتقال الحاسم الى عصر جديد .

أما اذا كان مراد وهبه يقصد بالمفارقة ، التضاد بين

الاضطهاد الذى لقيه ابن رشد فى عالمه العربى ، والترحيب الذى وجده لدى الغرب ، فان هذا بدوره لا ينطوى على أية مفارقة ، لأن طريق ابن رشد فى أوروبا لم يكن كله مفروشا بالورود ، ولأنه ، بقدر ما كان يوجد فى أوروبا من « الرشديين » المتحمسين ، كان هناك خصوم ألداء للرشدية وكان على رأس هؤلاء الكنيسة المسيحية ، التى لم يكن نقدها الحاد لابن رشد يختلف كثيرا عن تحامل الفقهاء المسلمين عليه .

٤ - قدم أحمد صبحى بحثا فلسفيا رصينا ، قد لا يتفق المرء مع كل حججه واستنتاجاته ، ولكنه ينطوى على وجهة نظر تتسم بالأصالة ، وتقوم وجهة النظر هذه على أن من طبيعة الحجج الفلسفية فى عمومها أن تكون جدلية ، لا برهانية كما تصور ابن رشد ، وهذا يؤدى الى هدم التقسيم الثلاثى للأدلة الى خطابية ، تأخذ بها العامة ، وجدلية ، يطبقها المتكلمون والفقهاء ، وبرهانية ، ينفرد بها الفلاسفة والعلماء ، وهو التقسيم الذى اقتبسه ابن رشد عن أرسطو ، بعد تعديله وفقا لظروف مجتمعه .

ولقد بنى أحمد صبحى رأيه القائل بأن من طبيعة الحجج الفلسفية عامة أن تكون جدلية ، على الفكرة القائلة أنها لا ترتكز على مقدمات يقينية : فهى لم تعرف طوال تاريخها سوى مذاهب متعارضة وتيارات متناقضة ، وهى فى ذلك تختلف اختلافا أساسيا عن العلم النموذجى القائم على البرهان ، وهو الرياضيات وتؤدى وجهة النظر هذه الى ازالة الفوارق بين المتكلمين والفلاسفة ، من حيث المنهج الفكرى ، والقضاء على « الاستعلاء » الذى ظهر واضحا لدى ابن رشد كما تؤدى الى الشك فى وجود حقيقة فلسفية أسمى من ظاهر الحقائق التى يقول بها الايمان الساذج ، كما اعتقد ابن رشد .

وأود ، التزاما منى بالجانب الفلسفى البحت فى هذا الموضوع ، أن أشير سريعا الى بعض الآراء التى ظهرت خلال تاريخ الفلسفة ، والتى تتيح مناقشة فكرة أحمد صبحى عن جدلية الفلسفة فى اطار أوسع من الاطار الأرسطى :

(أ) كان أفلاطون بدوره يرى أن الفلسفة مرتبطة « بالجدل » ، ولكن الجدل عنده كان يحمل معنى مختلفا كل الاختلاف : فهو يوصل الى أسمى الحقائق ويؤدى الى « رؤية المثل » بعين العقل ، وهو أعلى مرتبة من الحقائق المبرهن عليها بالاستدلال ، كالرياضيات ، وهذه وجهة نظر مغايرة تماما لكل ما ارتكز عليه أنصار ابن رشد وناقدوه ، وضمنهم أحمد صبحى ٠

(ب) كان تمييز كانت بين القضايا التحليلية والتركيبية من جانب، والقضايا القبلية والبعدية من جانب آخر ، مؤديا الى رؤية جديدة لطبيعة القضايا الفلسفية ٠ فتلك القضايا فى نظره « قبلية تركيبية » وهى بهذا الوصف يمكن أن تؤدى ــ فى المسائل الميتافيزيقية ــ الى « نقائض » متعارضة حول الموضوع الواحد ٠ غير أن هذا التناقض لا يحول دون مواصلة العقل البشرى استكشاف ميادينها ، لأن الفلسفة تعبر عن نزوع أصيل ورفيع لدى ذلك العقل الى استطلاع مشكلات حدية ، حتى ولو كان يعلم مقدما أنه لن يصل فيها الى أى حل نهائى ٠

(حـ) كان برتراند رسل ، ومعه كثيرون ، يقسمون الفلاسفة الى أصحاب النزعة المنطقية وأصحاب النزعة الصوفية ، مما ينفى عن القضايا الفلسفية أى طابع أحادى الجانب ، ويحول دون اصدار حكم قاطع على طبيعة الحجج الفلسفية فى علاقتها بالمنطق أو الرياضيات ٠

هذه مجرد نماذج ثلاثة لحالات تثبت أن الموضوع الذى تصدى له **أحمد صبحى** ، وهو الطابع الجدلى ، لا البرهانى ، للفلسفة ، معقد غاية التعقيد ، لا تكفى فيه الأحكام الأحادية الجانب ٠

٥ ــ وبالمثل كان بحث **محمود زقزوق** يتسم بالأصالة ، ويسير فى خط مواز ــ الى حد لافت للنظر ــ لبحث **أحمد صبحى** ٠ فهو يستهدف نفى فكرة ازدواجية الحقيقة مابين دينية وفلسفية ، ويسعى الى تأكيد « وحدة الحقيقة » فى الاسلام ٠ وحين يطبق هذه الفكرة على ابن رشد ، ينكر وجود أية خصومة بين الدين والعقل ، ومن ثم لايكون الانسان فى وضع يرغمه على الاختيار بينهما ٠ ويبدو لى أن الجهد

المشكور الذى بذله محمد زقزوق يمارس كله على ميدان مثالى ، يعالج فيه الباحث ماينبغى أن يسكون عليه الوضع بين الحقيقتين الدينية والفلسفية ، من وجهة نظر مفكر متدين مستنير ٠ ولكن ابن رشد لم يكن يفكر فى هذا الموضوع من منطلق مثالى كهذا ، وانما كان يمارس فكره على واقع اجتماعى وسياسى رفضت فيه الحقيقة الفلسفية وحوربت بضراوة ٠ أى أن آراء ابن رشد فى هذا الصدد لم تكن استكشافا نظريا خالصا لآفاق العلاقة بين الحقيقتين ، وانما كانت تستهدف مواجهة صعوبات رهيبة فى الواقع العملى المحيط به ٠ ويبدو أن الطريقة الوحيدة التى كان ابن رشد يستطيع بها أن يضفى على الفلسفة مشروعية ، فى ظل هذا الواقع غير المواتى ، هى أن يميز بين الحقيقتين ٠ ومع ذلك فان هذا التمييز لم يكن يمثل الخطوة الأخيرة فى مسيرته الفلسفية ، اذ أن هناك مرحلة تعلو على هذه الازدواجية ، هى مرحلة وحدة الحقيقة فى عين « الحكيم » الراسخ فى العلم ، الذى يتجاوز الثنائية ويدمج طرفيها ، من خلال التأويل ، فى حقيقة أرفع وأسمى ٠ وهكذا فان مرحلة الفصل بين الحقيقتين ، التى تركز عليها نقد محمود زقزوق لم تكن هى الكلمة الأخيرة بين العامة ومن سايرهم وبين الفلسفة ٠

وهكذا فان محمد زقزوق حين طرح المشكلة على مستوى مثالى هو : هل كان توفيق ابن رشد بين الحقيقتين راجعا الى مؤثرات أفلاطونية محدثة ، أم الى تعمقه فى الاسلام ذاته ، ثم انحاز الى الرأى الأخير - يبدو أنه حين فعل ذلك لم يكن يعمل حسابا لبعد آخر ، هو البعد التاريخى والاجتماعى ، الذى كانت فيه الفلسفة تبحث لنفسها ، بمشقة هائلة ، عن مبرر لوجودها وضمان وأمان للمشتغلين بها وسط مجتمع متحامل عليها بقوة ٠ وبعبارة أخرى فقد كان ابن رشد فى وضع دفاعى ، يسعى فيه الى ايجاد مكان للحقيقة الفلسفية فى بيئة معادية لها ، أكثر مما كان يهدف الى الاستعاضة بها عن الحقيقة الدينية ٠ واذا بدا ظاهريا أن هذه نتيجة مشابهة لتلك التى خلص اليها محمود زقزوق ، فمن المؤكد أن هناك اختلافا جوهريا بيننا فى طريقة تعليل هذه الظاهرة ٠

٦ - ويبدو أن بحث زينب الخضيرى يتضمن ردا غير مباشر على رأى محمود زقزوق ، لأنها عادت فأكدت فكرة الانفصال بين

الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية (انظر مثـــلا ص ١٥١ و ١٥٧) ٠ ولكن أهم أجزاء هذا البحث فى نظرى هو الجزء الأخير ، الذى تطرقت الباحثة فيه الى بعض النتائج العملية التى تؤدى اليهـــا فكرة انفصال الحقيقتين الدينية والفلسفية : فهذا الفصل يؤدى الى فصل مواز له ، بين السلطة الروحية أو الدينية والسلطة الزمنية أو السياسية ٠ وهكذا فان أفكار ابن رشد حين نقلت الى أوروبا ، قـــد أثرت فى كتاب أوروبيين كانوا روادا فى الدفاع عن فكرة فصل سلطتى الدين والدولة ، وبالتالى فى التمهيد للمبادىء الأساســية التى قامت عليها النهضـــة الأوروبية الحديثة ٠

هذه فى رأيى فكرة لها أهميتها البالغة ، وكانت جديرة بأن تكون موضوعا لبحث مستقل يشكل اضافة لها قيمتها الى هذا الكتاب التذكارى، لاسيما وأن هذا الكتاب لم يعالج فكر ابن رشد فى السياسة معالجة كافية. ولا جدال فى أن الربط بين أفكار ابن رشد النظرية فى الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية ، وبين فكرة فصل السلطتين الدينية والسياسية ، هو مدخل هام لفهم أحد الأسباب التى كان ابن رشد من أجلها ، ولايزال ، مكروها بين الداعين الى الجمع بين هاتين السلطتين ، أى الى تسييس الدين أو تديين السياسة ٠ بل ان مثل هـــذا البحث كان كفيلا بأن يلقى ضوءا مبكرا على مشكلة لاتزال تطرح بجدية وحماسة وهى مشكلة الغزو الثقافى ، والتضاد بين الوافد والأصيل فى الثقافة ٠ فقد اتخذ ابن رشد موقفا متفتحا من هذه المشكلة ، منذ أن أخذ على عاتقه مهمة شرح مؤلفات أرسطو الفلسفية والمنطقية شرحا متعـــدد المســـتويات ٠ بل ان موقف ابن رشد فى هذا الصـــدد ربما كان أصـــعب من أى موقف راهن ، لأن الثقافة التى أدخلها الى العالم الاسلامى كانت ثقافة « وثنية » ٠ وبالمثل فقد تقبل المتنورون الأوربيون آراءه دون حساسية ، برغم حدة الخلافات بين الاسلام والمسيحية فى ذلك الحين ٠ وهكذا أثبت الطرفان ، منذ ذلك العهد المبكر ، أنهما فوق مستوى الحديث الفج عن « الثقافة المستوردة »، الذى يشيع بيننا على مشارف القرن الحادى والعشرين ٠

٧ ـ وأخيرا ، فانى أود أن أجمل بعض الملاحظات النقدية الموجزة

تحت فئة واحدة . فى الكتاب قدر من التكرار فى الحديث عن حياة ابن رشد ومؤلفاته كان يمكن تجنبه بقليل من التنسيق . كما أن النصوص التى نشرت فى آخر الكتاب لم تحمل عناوين ، وانما وصف كل منها بأنه « نص من كتاب كذا ... » ، وكان الأفضل تحديد الموضوع الذى يعالجه كل نص ولو بصورة تقريبية .

ويبقى أخيرا أن بعض البحوث قد أجهدت نفسها فى الدفاع عن أمور بديهية معروفة ، وأخص بالذكر بحث « ابن رشد بين حضارتين »، الذى ربما كان أطول بحوث الكتاب جميعا . فهدف هذا البحث هو اثبات مالايحتاج الى اثبات ، وتأكيد ما لم ينكره أحد ، وهو أن ابن رشد ، وان تأثر بالفلسفة اليونانية تأثرا قويا ، كانت له جذوره الاسلامية العربية الراسخة . فحتى القائلين بأن ابن رشد لم يكن الا شارحا لأرسطو ، لا يمكنهم أن ينكروا أن هذا الشارح مفكر نشأ وعاش وتعلم فى بيئة عربية اسلامية ، ولا أتصور أن أحدا منهم كان يهدف ، كما تصور الباحث (فى ص ٢٥٠) ، الى أن «يجرد ابن رشد من ثقافته العربية الاسلامية».

اشكاليات ابن رشد ، من منظور معاصر :

لابد لى ، قبل مناقشة هذا الموضوع الأساسى ، من أن أعلن أننى فوجئت قبل أسبوع واحد من موعد انعقاد هذه الندوة ، وبعد مضى شهور على ظهور فكرتها ، وبعد أن كنت قد أنجزت من هذا البحث أكثر من نصفه (مما أرغمنى على اعادة كتابة كل شىء فى أقل من يومين !) ـ أقول اننى فوجئت ببرنامج للندوة يحمله الى البريد ، ويحدد لدراساتنا فى هذه الندوة اشكاليتين ، الأولى هى : هل كان ابن رشد فيلسوفا عربيا أم اسلاميا أم كليهما معا ؟ والثانية : ما مدى عقلانية ابن رشد ؟ وكانت المفاجأة الأكبر هى أننى وجدت نفسى مصنفا ، دون أدنى علم منى ، ضمن من ينبغى عليهم معالجة الاشكالية الثانية !

واسمحوا لى بأن أعلن ، بوضوح ، أننى لا أؤمن بأن هاتين القضيتين هما أهم القضايا التى يمكن أن ندرس من خلالها ابن رشد من منظور معاصر ، بل ان هناك قضايا أخرى أحق منها وأولى بالدراسة ،

أشار الكتاب التذكارى نفسه الى بعضها ، دون توسع ، وان كان قد فاته أن يشير الى البعض الآخر .

١ - أولى هذه القضايا التى أعتقد أنها جديرة ببحث معاصر متعمق فى فلسفة ابن رشد ، تتعلق بظاهرة أشير اليها مرارا فى الكتاب التذكارى ، ولكن دلالتها لم تستخلص فيه بالقدر الكافى . تلك الظاهرة هى أن العالم العربى فى عصر ابن رشد وحتى القرن الرابع عشر الميلادى ، كان متفوقا على أوروبا بصورة كاسحة ، وكان ينطوي على جميع مقومات التقدم التى تؤهله ليكون نقطة انطلاق النهضة الحديثة كلها . كان متفوقا على أوروبا فى العلوم والرياضيات تفوقا هائلا . بل ان مؤرخى العلم الغربيين أصبحوا يعترفون في العقود الأخيرة بأن جميع الأسس الرياضية والأشكال التوضيحية التى بنى عليها كبرنيكس نظريته الثورية فى علم الفلك - تلك النظرية التى كانت نقطة البداية الحقيقية للعلم الحديث - كانت معروفة لدي ابن الشاطر والطوسي وغيرهما من الفلكيين العرب ، وكانت هذه مطابقة بصورة مذهلة لما دونه كبرنيكس فى كتابه المشهور عن « دورات الأفلاك السماوية » . ومع ذلك فان أحدا من هؤلاء العلماء العرب لم يخط الخطوة الحاسمة فيعلن أن الأرض متحركة ، تدور حول الشمس ، وترك هذا الاعلان العلمى الثورى لراهب بولندى يجوز جدا أنه اطلع على أبحاثهم واستخلص النتيجة الضرورية منها ، فافتتح باعلانه هذا عصرا جديدا فى تاريخ المعرفة البشرية .

وفى ميدان الاقتصاد ، كان العالم العربى يحوى ثروات هائلة ، وكان محور التبادل التجارى فى العالم القديم كله ، وكانت الفنون والصنائع والعمارة وتخطيط المدن ، بل والحياة اليومية للناس العاديين، أرقى بكثير من نظائرها لدى الأوروبيين ، ومع ذلك لم ينتقل العالم العربى الى مرحلة الرأسمالية الحديثة ، التى ينعقد الاجماع - حتي لدي الباحثين الماركسيين - على أنها أساس النهضة الاقتصادية والاجتماعية الكبرى لأوروبا . فلماذا لم تحدث هذه النقلة الحاسمة فى العالم العربى، مع أنه كان مؤهلا لذلك بجدارة ؟

وفى ميدان الفكر والفلسفة ، كان ابن رشد وابن باجه وابن طفيل، ومن قبلهم كوكبة لامعة من فلاسفة المشرق ، يحملون لواء الفكر الانسانى، ويستوعبون التراث القديم بأفق واسع ، فى وقت كانت فيه أوروبا غارقة فى مجالات مدرسية ولاهوتية معظمها عقيم . وكان لهؤلاء الفلاسفة ، بالاضافة الى ابداعاتهم الخاصة ، الفضل فى اعادة تعريف أوروبا نفسها بتراثها اليونانى ، مما اتاح لها أن تتجاوز مدرسية العصور الوسطى ، وتتخذ من جذورها اليونانية منطلقا لنهضتها الفكرية الحديثة . فلماذا لم تظهر هذه النهضة عندنا ، مع أننا كنا نحمل أهممقوماتها ؟ لا أعتقد أن الاجابة التى وردت فى أولى صفحات تصدير عاطف العراقى للكتاب التذكارى ، والقائلة أن الغرب أفاد من ابن رشـــد « لأنه عرف مكانته الحقيقية » ، وعلى حين أن العـــرب « لم يفهموا فلسفته حق الفهم » - لا أعتقد أن هذه الاجابة شافية فى هذا المقام . بل ان الأمر يحتاج الى استقصاء أبعد غورا بكثير كيما نعرف لماذا أفلتت عقلانية ابن رشد من قبضتنا ، بينما امتصتها أوروبا الغربية وجعلت منها أساسا من أسس نهضتها الحديثة .

هذه أسئلة تشكل فى رأيى ثلاثة اشكالات كبرى تستحق أكبر قدر من اهتمام العرب المعاصرين فى ميـــادين العـــلوم والاقتصاد السياسى والفلسفة ، وربما كان فى الاجابة عنها مفتـــاح لفهم سر التخلف الذى انتابنا فى ذات الوقت الذى بدأت فيه أوروبا قفزتها الكبرى فى هـــذه الميادين ، ومن ثم مفتاح لمعـــرفة الأسس التى يمكن بواسطتها تدارك هذا التخلف .

ولقد كان الكتاب التذكارى لابن رشد فرصة لاثارة واحد من هـــذه الأسئلة الجوهرية ، كما كانت الندوة فرصة أخـــرى للتعمق فى هـــذا الموضوع الحيوى الذى يمثـــل فى رأيى اشكالا أهم بكثير من الاشكالين « المقررين » فى البرنامج الحالى للندوة . ولـــكن الفرصتين ، على مايبدو ، قد ضاعتا على الباحثين والمحاورين معا .

والقضية الثانية التى كانت فى رأيى أجدر بالمعالجة ، هى قضية

« القطيعة المعرفية » بين فلاسـفة المغرب العـربى ، وعلى رأسهم ابن رشد ، وبين فلاسفة المشرق ، وهى القضية التى آثارتها كتابات محمد عابد الجابرى الأخيرة ، وأصبحت تمثل موقف مدرسة كاملة فى المغرب العربى . هذه المدرسة تذهب الى أن الفلسـفة العربية قد اكتسبت فى المغرب طابعا برهانيا ، عقلانيا ، يمثل « قطيعة معرفية » مع فلسفة المشرق التى توصف بأنهـا « اشراقية » ، ومن ثم فانها « عرفانية » لا تقوم على العقل والبرهان . وأنا شخصيا أعتقد أن هذا تقسيم متعسف، بل متعصب ، تسعى فيه الثقافة المغربية المعاصرة ، بعـد أن اكتشفت نفسها ، الى الثأر من ثقافة المشرق التى ظلت طويلا مصدرا لتنويرها . ومع ذلك فلن نستطيع أن ننكر أن هذه الأفكار قد أصبحت فى السنوات الأخيرة واسعة الانتشار ، قوية التأثير .

ألم تكن هذه الاشكالية أجدر بالبحث من تلك الاشكالية التى أكل عليها الدهر وشرب ، أعنى ما اذا كان ابن رشد فيلسوفا عربيا أم اسلاميا أم كليهما معا ؟ ومع ذلك فان الكتاب لم يتعرض لها من قريب أو بعيد ، ولم يستكتب أحدا ممن أثاروها وأعتنقوها ، كما أن الندوة لم تحاول اجراء حوار حـولها ، على الرغم من الأهمية المعاصرة والحيـة لهذا الموضوع .



وأخيرا ، فلعل أهم الاشكاليات التى كان ينبغى أن يتصدى لهـا الكتاب ، وأن تبرزها الندوة ، هى الأهمية المعاصرة لابن رشد ، أو الدور الذى يمكنه القيام به بوصفه مصدرا يستفاد منه فى الصراع الحالى بين السلفية والعقلانية . ولكى نبحث فى هـذه الاشكالية ، ينبغى أن نرجع الى الجذور ونتساءل : ماذا يعنى « كتاب تذكارى عن ابن رشد »؟ ان الكتب التذكارية تصدر بوصفها اهداء لشخصيات ثقافية أو علميـة كبيرة ، اعترافا بفضلها خلال حياتها ، أو وفاء لذكراها بعـد وفاتها بوقت ليس بالبعيد ، أما الكتب التى تصدر عن شخصيات قـديمة ، فلا تظهر الا فى مناسبات خاصة ، كمضى عـدد معين من السنوات أو القرون على ميلادها أو وفاتها . وهـذا كله لا يتوافر فى الكتاب الذى نحن بصدده .

وعلى ذلك فان التعليل المعقول لصدور كتاب تذكارى عن ابن رشد، دون انتظار لذكرى مرور ثمانمائة عام على وفاته ، وهى الذكرى التى ستحل بعد أربع سنوات فقط ، هو أن ثمة احساسا بأهمية العودة الى افكار ابن رشد فى هذه المرحلة بالذات من تاريخنا ، وهو احساس عاجل لا يحتمل الانتظار . فهل يعنى ذلك أننا نواجه فى أيامنا هذه أوضاعا مماثلة لتلك التى واجهها ابن رشد فى عصره ؟ ان التاريخ لا يعيد نفسه ، مهما قالت التعبيرات الشعبية البلاغية ، ومع ذلك يبدو أن الهاجس الذى الح على المسئولين فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وفى لجنة الفلسفة والاجتماع ، هو أن لدى هذا الفيلسوف ما يمكن الافادة منه فى المعركة الراهنة التى تدور فى مصر وكثير من البلاد العربية فى سبيل الدفاع عن قيم التنوير .

ان تصدير عاطف العراقى ، المشرف على اصدار الكتاب ، قد كشف عن هذه المسألة بوضوح حين قال : « ونظرا لأهمية فلسفة ابن رشد ، واعتقادنا بأن العديد من الدروس المستفادة من فلسفته يمكن أن تقدم الكثير من الحلول لمشكلاتنا الفكرية الحالية ، فقد اتجه تفكير أعضاء لجنة الفلسفة والاجتماع فى المجلس الأعلى للثقافة الى اصدار مجلة عن هذا الفيلسوف .. ص ٩ . كما يتحدث التصدير بعد قليل عن آراء ابن رشد فيصفها بأنها « قد تكون من أكثر الآراء تأثيرا حتى يومنا الحالى » .

وهكذا يمكن أن تكون أفكار ابن رشد سلاحا فى يد قوى التنوير ، تستخدمه ضد القوى الظلامية التى تستهدف الغاء عنصر العقل من ماضى هذه الأمة وحاضرها . واذا كانت هذه القوى تستعين بالتراث ، وبما تسميه « العودة الى السلف الصالح » من أجل تبرير دعوتها الى فرض سلطة « نقلية » صارمة ، فان أصحاب فكرة اصدار هذا الكتاب رأوا أن يستعينوا بجانب آخر من التراث من أجل تحقيق هدف مضاد هو الدفاع عن التنوير .

اذا كانت هذه هى الاشكالية التى يعالجها هذا الكتاب التذكارى ، فان مثل هذه الاشكالية تبدو أوسع بكثير من اشكالية العقلانية المطروحة

فى برنامج الندوة ، بل ان اشكالية العقلانية لا تعدو أن تكون مجـــرد جانب واحد ـ له أهميته الكبرى بالطبع ـ من التساؤل الأهم والأخطر : ماذا يمكن أن يعنى لنا ابن رشد فى صراعاتنا الفكرية والثقافية الراهنة ؟

ومع ذلك فان تحديد الكتاب لهـــذه الاشكالية كان يقتضى تخطيط موضوعاته بحيث يعمل معظمها على تحقيق هـدف الاجابة عن التساؤل سالف الذكر . ولســـت أعنى بذلك « تسييس » الكتاب أو صبغه بصبغة دعائية أو أيديولوجية فجة ، لكنى أعتقد أن نظرة ابن رشد الرحبة الى الدين والعقل ، وموقفه الحاسم ازاء أنصار النقل الحرفى ، واستخدامه الذكى لفكرة التأويل ضدهم ـ كل هـــذه موضوعات كان يمكن أن تملأ كتابا كاملا يحقق الهدف الوارد فى التصدير ، ويضفى على أجزائه مزيدا من الوحدة والترابط . ولكن الذى حدث هو أن الكتاب لم يعمـل على تحقيق الهدف المذكور فى مستهله الا فى حدود ضيقة ، وكانت نسبة غير قليلة من موضوعاته تقليدية ، بل مدرسية بمعنى الكلمة .

واقع الأمر أنه ليس من المطلوب فى كتاب كهذا تقديم « تعريف » بمختلف جوانب فلسفة ابن رشد ، ذلك لأن ابن رشـــد ليس بالفيلسوف المجهول ، بل ان المكتبة العربية ـ ولا أقول الأجنبية ـ تضم عددا غير قليل من المؤلفات القيمة ، بعضها بأقلام بعض المشاركين والمشاركات فى الكتاب التذكارى . وفى وضع كهذا لا تكون عملية التعريف مطلوبة ، وانما ينبغى تحديد « تيمة » متفق عليها ، تدور حولها بحوث الكتاب ، ويبدو أن هذه « التيمة » قد حددت فى التصـدير ، ولكنها لم تعالج فى الكتاب نفسه معالجة كافية .

أعود مرة أخرى فاذكر القارىء بما قلته فى مستهل هذا البحث من أن الصعوبات العملية كثيرا ما تحول دون الالتزام بالتخطيط الدقيق لأى مشروع ثقافى وارجو ألا تؤخذ ملاحظاتى النقدية الا على أنها سعى فى سبيل المزيد من الكمال ، ويظل للمشرفين على الكتاب والمسهمين فيـه فضل المشاركة فى عمل علمى جاد يستحق كل مابذل فى سبيل اعداده ومناقشته من وقت وجهد .

حقيقة مذهب ابن رشد من منظور الفلسفة العربية

عاطف العراقى

تمهيـــــد

أود أن أشير فى بداية دراستنا لحقيقة الفلسفة الرشدية من خلال منظور الفلسفة العربية الى أن هدفنا ليس ابعاد ابن رشد ، وفلسفته عن دائرة الاسلام ، اذ لابد أن نضع فى اعتبارنا أنه لا تعارض بين كـون ابن رشد مسلما ، وكون فلسفته ، فلسفة عربية ·

وهل يمكن أن نتغافل عن حقائق ثابتة نجدها فى كتب الســير والتراجم من جهة ، وفى مؤلفات ابن رشد وشروحه من جهة أخــرى · لقد كان ابن رشد قاضيا ، وقاضيا للقضاة ، وكتب العديد من الرسائل والكتب الفقهية ومن أبرزها كتابه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، بالاضافة الى وجود مؤثرات دينية فى فلسفته ، وان كان قد فهمها فهما خاصا يلتقى وكونه فى الأساس وبالدرجة الأولى فيلسوفا عربيا يعد صاحب أصرح اتجاه عقلى تنويرى فى فــكرنا الفلسفى العــربى من مشــرقه الى مغربه ·

كان ابن رشد وكما سيتبين لنا من خلال عرض بعض نماذج من فلسفته ملتزما بخصائص الفكر الفلسفى · لم يكن مجرد مدافع عن الفكر الاسلامى ولو على الأقل عند الفرق الاسلامية ، بل كان يضع فى اعتباره أساسا الالتزام كما قلنا بخصائص الموقف الفلسفى وذلك بصرف النظر عن اتفاقنا معه أو اختلافنا فى رأى أو أكثر فى الآراء التى قال بها ·

بل ان الخلاف بينه وبين الأشاعرة والغزالى والصوفية ، كان خلافا معبرا فى جوهره عن التزامه بشروط الموقف الفلسفى والوقفة الفلسفية ،

(*) أستاذ الفلسفة العربية ــ قسم الفلسفة بكلية الآداب ــ جامعة القاهرة ··

وأحسب أن الغزالي إذا كان قد التزم بتلك الوقفة ، لما أدى بموقفه حول تكفير الفلاسفة في بعض الآراء التي قالوا بها ؛ ونحن نعلم ان ابن رشد قد خالف الغزالي نظرا لأن ابن رشد - كما قلنا - كان معبرا في أفكاره عن الابتعاد عن مسالة التحريم والتكفير لأنه بالدرجة الأولى كان فيلسوفا عربيا ملتزما بالقول بأن الفكرة انما تعد فكرة فلسفية صحيحة اذا كانت معبرة عن الالتزام بخصائص الفكر الفلسفي . لقد كان يقدم أفكاره بصرف النظر عن مدى اتفاقها أو اختلافها مع الدين . وهكذا فعل الفلاسفة ، فلماذا اذن نطلق على فلسفاتهم بأنها فلسفات اسلامية .

اننا اذا كنا نثير في دراستنا اليوم ، قضية تسمية الفلسفة التي تركها لنا اجدادنا ، وهل نسميها فلسفة عربية أم نطلق عليها فلسفة اسلامية ، فان ذلك لا يعني اننا نود بعث قضية دار حولها الخلاف والجدل بين عديد من الدارسين والمهتمين بفلسفتنا ، سواء كانوا باحثين عرب ، أو كانوا من الباحثين الغربيين المستشرقين .

لا نريد اذن من جانبنا مجرد بعث قضية اثيرت منذ نصف قرن من الزمان أو يزيد ولكن قصدنا هو التنبيه الى عدد من الاخطاء واوجه التعسف التي تشيع الآن وللأسف الشديد في بلداننا العربية ، والتي كان شيوعها نتيجة منتظرة ومتوقعة حين فضل بعض الباحثين والرواد القدامى تسمية فلسفتنا بالفلسفة الاسلامية . ويقيني أن الباحثين والرواد القدامى ، ومنهم من لا يزال يثرى حياتنا الفلسفية بالعديد من الثمار الفكرية الرائعة ، لو كانوا قد ادركوا ما ستؤدى اليه تلك التسمية ومستقبلا من مخاطر وسوء استخدام ، لترددوا ألف مرة قبل استخدام مصطلح « الفلسفة الاسلامية » .

ومن الأمور التي تلفت النظر ان الرواد - سواء في مصر أو غيرها في بلدان العالم والذين استخدموا مصطلح الفلسفة الاسلامية قد نظروا الى الفلسفة نظرة دقيقة الى حد كبير ، وكانت عقلياتهم متفتحة ، بحيث نبهوا الى اضرار كل فكر لا عقلاني ، اما الآن وللأسف الشديد فاننا نجد عند بعض من يفضلون تسميتها « بالفلسفة الاسلامية » تشجيعا للفكر اللاعقلاني ، ونشرا للخرافة ، وحشرا لموضوعات داخل اطار فلسفتنا

ليس لها صلة بالفلسفة من قريب أو من بعيد . ولنعترف بصراحة وموضوعية أن أكثر دراستنا الحالية وخاصة من حيث المنهج ، منهج دراستها ، أصبحت اضحوكة عند الباحثين والمستشرقين الأوربيين . وهل من المعقول إن يصبح فكر ابن تيمية والذى يعد عدوا لكل فكر ناضج متفتح ، هو الفكر المسيطر على إذهان المشتغلين ببعض الأقسام الفلسفية فى مصر والعالم الغربى وذلك على الرغم من لاعقلانية هذا الرجل وسذاجه بعض آرائه . نعم ان من حق المستشرقين الأوربيين أن يضحكوا على ما نطلق عليه فى عالمنا بحوثا فلسفية فى حين أنها لا تنتسب الى الفلسفة من قريب أو من بعيد وتختلف تماما عن الفلسفة كما ينبغى أن تكون ، قلبا وقالبا .

كل هذه المآسى والكوارث قد نتجت بطريقة غير مباشرة عن تسمية فلسفتنا بأنها « فلسفة اسلامية » لماذا ؟ لسبب بسيط جدا وهو ان فريقا منا قد خلط خلطا شنيعا بين خصائص الفكر الدينى ، وخصائص الفكر الفلسفى ، وأدى هذا الى النظر الى أفكار الفيلسوف من خلال منظور الدين ، وهذا من أخطر الاشياء لأنه يؤدى إلى تفسير اراء الفيلسوف تفسيرا خاطئا . فاذا قلنا مثلا : « ان الفارابى يعد من فلاسفة الاسلام ، وفلسفته تعد فلسفة اسلامية ، وحين نجد الفارابى يقول صراحة بقدم العالم ، فان البعض من إشباه الباحثين فى الفلسفة ، يقوم بتأويل آراء الفارابى تأويلا فاسدا ، لماذا ؟ لأنه ينظر اليه من خلال كونه فيلسوفا اسلاميا وان فلسفته تعد فلسفة اسلامية ، وان الفيلسوف الاسلامى لا يصح فى نظرهم أن يقول بقدم العالم ، ومن هنا فلابد من انطاق الفارابى بآراء لم يقل بها اطلاقا وذلك حتى يتفق ذلك مع كونه فيلسوفا اسلاميا .

وهكذا الى آخر التفسيرات والتأويلات الفاسدة والتى تعد بالمئات وكلها تجعلنا نقول : ايتها الفلسفة التى يطلق عليها البعض منا انها اسلامية ، كم من الاخطاء والاباطيل والضلال ترتكب باسمك ..

هل من المعقول ان أنظر الى فلسفة الفيلسوف من خلال منظور التوفيق بين الدين والفلسفة ، فى الوقت الذى نجد فيه ان فلاسفة العرب

لم ينجح واحد منهم فى التوفيق بينهما ؟ هل يمكن أن ننسى قول ابن رشد « بالحقيقتين » أو بالحقيقة ذات الوجهين ؟

لا أكون مبالغا فى القول اذا قلت اننا نحن العرب قد أسأنا ابلغ الاساءة الى فلسفتنا وكان المستشرقون ومازالوا أكثر عمقا ودقة منا فى النظر الى فلسفتنا . لقد أصبح فهمنا لفلسفتنا يدور حول الأساليب الخطابية اللامعقولة والتى نجدها عند أصحاب الفكر المتزمت ، الفكر الرجعى ، الفكر الذى يعد تعبيرا عن الصعود الى الهاوية ، بل - نقول بصراحة - انالنظرات المتجمدة والخاطئة لفلسفتنا انما ساعد علىانتشارها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة نوع من الفكر المعادى للفلسفة والذى يسود فى بعض الدول البترولية العربية .

يضاف الى ذلك ان المناخ الفكرى السائد فى أكثر البلدان العربية انما يعد تعبيرا عن الترحيب بالفكر الذى لايمكن اعتباره عقلانيا وبالتالى الذى يضيق بالفكر الحر، الفكر العقلانى، ولنضرب على ذلك مثالا واحدا. اذا قام فرد منا بدراسة عن ابن تيمية تقوم على الترحيب بآراء الرجل بحق وبغير حق ، فانه سيجد الأموال والجوائز تسعى اليه من أكثر البلدان البترولية . وعلى العكس من ذلك تماما اذا قام بتأييد الفكر العقلانى ممثلا فى ابن رشد على سبيل المثال . وهذا قد يؤدى الى الاعتقاد بالصلة بين الغنى والتأخر الفكرى ، وبين الفقر والتقدم الفكرى . أليس من الملفت للنظر أننا نجد عالمنا العربى بوجه عام قد ارتضى لنفسه آراء الغزالى فأدى به هذا الى نوع من التأخر الفكرى ، فى حين أن أوربا بوجه عام قد ارتضت لنفسها فلسفة ابن رشد ومبادىء ابن رشد فأدى بها ذلك الى التقدم الفكرى .

ان العبرة اذن ليست بالتسمية ، فلسفة اسلامية أم فلسفة عربية ، وان كنا نفضل من جانبنا تسميتها : فلسفة عربية . ان مصطلح الفلسفة العربية سيجنبنا أي فهم خاطىء لفلسفتنا . سيباعد بيننا وبين التفسيرات والتأويلات الفاسدة . سيجعلنا ننطلق انطلاقة ايجابية بحيث نفهم فلسفتنا كما ينبغى أن يكون الفهم ، ونربط بينها وبين متطلبات عصرنا الحالى وما سيجىء بعده من عصور المستقبل . وكم كان أكثر المستشرقين

على صواب تماما فى استعمالهم لمصطلح الفلسفة العربية • ومن الذى قال ان فلاسفتنا القدامى كانوا منطلقين من نقطة بداية اسلامية • أننا لو قلنا بهذا القول الخاطىء فكيف نبرر اذن هجوم الغزالى على الفلسفة وذهابه الى تكفير الفلاسفة فى مجموعة من الآراء التى قالوا بها • فأى الفريقين اذن هو المنطلق من بداية اسلامية ؟ الفلاسفة أم الغزالى ؟ اذا قلنا الفلاسفة ، فمعنى هذا أن الغزالى لا صلة له بالاسلام من قريب أو من بعيد لأنه قام بتكفير من نطلق عليهم : فلاسفة الاســـلام • واذا قلنا ان الغزالى هو الذى انطلق من نقطة بداية اسلامية ، فمعنى هـــذا أنه من الصحيح تماما الاعتقاد بخطأ وصف فلسفة فلاسفتنا بأنها اسلامية •

ان الحل الذى يبدو لى ، أنه الحل الملائم والذى يعد معبرا عن رؤية عقلانية مستقبلية هو ان نسمى فلسفتنا بالفلسفة العربية • واننى أعلم تماما ماقد يثيره هذا الرأى من ضـــيق فى نفوس البعض وتأويله تأويلا فاسدا • ولكن ينبغى أن نعلم تماما ان العبرة بالحضارة وليس بأصل هذا الفيلسوف أو ذاك من الفلاسفة • فالفارابى اذا كان من أصل تركى فارسى ، الا أنه يعد من فلاسفة العرب لأنه عاش فى ظل الحضارة العربية•والدليل على ذلك أنه كتب أساسا باللغة العربية•ولو كان المعيار هو الأصل ، لكانت كتب الفارابى بالفارسية ، وما يقال عن الفارابى ، يقال عن ابن سينا وهكذا الى آخر الفلاسفة والذين يعد أصلهم غير عربى، ولكن أفكارهم جاءت تعبيرا عن الحضارة العربية ، وكانت أكثر كتاباتهم باللغة العربية •

اننا اذا كنا نجـــد من أساتذتنا أمثـــال مصطفى عبد الرازق ، وابراهيم مدكور من يفضـــلون مصـطلح الفلســـفة الاســـلامية ، ومن أساتذتنا أمثال أحمد لطفى السيد من يذهبون الى تسميتها بالفلســـفة العربية ، فاننى من جانبى لا اتردد فى أن اطلق عليها مصطلح الفلسفة العربية•وكفانا ماحدث من سوء فهم ، وكفانا ما يلجأ اليه البعض من أوجه التعسف واطلاق الاحكام غير الواضحة والتى تذكـــرنا بالكلمات المتقاطعة • واذا كنا لانطلق على علم الهندسة مثلا ، أنها هندسة مسيحية أو هندسة اسلامية • واذا كنـــا لا نطلق على علم النفس ، عـــلم نفس

مسيحي أو علم نفس إسلامي ، لأن الهندسة هي الهندسة في حد ذاتها ، وعلم النفس هو علم النفس في حد ذاته . فلماذا اذن نطلق على فلسفتنا مصطلح الفلسفة الاسلامية ؟ ان فلسفتنا فلسفة عربية قلبا وقالبا . وهذا هو الصحيح فيما اعتقد به وأدافع عنه ، تماما كما نقول فلسفة انجليزية وفلسفة المانية وفلسفة فرنسية ، وغير مجد في يقيني واعتقادي الاصرار على تسميتها بالفلسفة الاسلامية مع ما في التسمية من اخطاء ، وان كان اكثرهم لا يعلمون .

لابد اذن من تحديد مجال الفلسفة وذلك حتى لا نقع في اخطاء لا حصر لها . واعتقد من جانبي ان الشيخ مصطفى عبد الرازق قد جانبه الصواب حين رأى أن علم أصول الفقه يعد مبحثا من مباحث الفلسفة . لقد أدى هذا الرأي الى أخطاء لا حصر لها ، اذ لاتجد صلة بين خصائص الفكر الفلسفي وخصائص علم أصول الفقه .

شروح ابن رشد على أرسطو وحقيقة الفلسفة الرشدية :

اذا كنا قد أشرنا منذ قليل الى أننا سندرس مجموعة من آراء ابن رشد والتي تعد معبرة عن كون فلسفتنا انما هي في أساسها وجوهرها تعد فلسفة عربية ، فاننا نجد من الضروري القول بأن الدارس للفلسفة الرشدية ، يجد انه من أهم الاشياء ان يضع في اعتباره ، أهمية شروح ابن رشد على أرسطو . ان الدارس لهذه الشروح يجد أنها قد تضمنت أهم وأكثر عناصر فلسفته . فطالما نجد بين تضاعيفها نقدا حرا جريئا للمتكلمين وغيرهم من مفكري العرب . وطالما نجد فيها أيضا دعوة الى اللجوء الى البرهان ، وتجاوز ما عداه من أساليب اقناعية وخطابية وجدلية .

ولكن قد يقال ان هذه الشروح لاتمثل وجهة نظر الحقيقة . اذ ان العادة قد جرت على ان المفكر حين يؤلف كتابا يودعه أفكاره الخاصة . وحين يشرح أو يفسر كتابا لغيره يقتصر على ايراد أفكار واضع الكتاب نفسه . ولكن ردنا على ذلك أن ابن رشد على وجه الخصوص يختلف تماما عن ذلك . فهو :

أولا - يبدى اعجابه الشديد بأرسطو كما سيتبين لنا بعد قليل .
وثانيا - نجد بين ثنايا مؤلفاته تأييدا يذهب اليه فى شروحه على أرسطو .

وهذا ان دلنا على شىء فانما يدل على ضرورة الرجوع مباشرة إلى شروح الفيلسوف وبحيث نضمها الى مؤلفاته اذا أردنا فهم فلسفته فهما دقيقا بل ان مؤلفاته تعد من بعض الزوايا ، أقل أهمية من شروحه .

نوضح ذلك بالقول ان مشكلة التوفيق بين الدين والفلســفة تعد مشكلة زمنية ، بمعنى أن فلاسفة العرب كان واجبهم فى عصرهم قبل البدء فى تقرير نظرياتهم وضع محاولة للتوفيق بين الدين والفلسفة . وهذا هو دافع ابن رشد مثلا لكتابة « فصل المقال » و «مناهج الأدلة » وهذان الكتابان طالما احتفلنا بهما وبالغنا فى بيان عمقهما متغافلين عن شروحه . بالاضافة إلى ان كتابه « تهافت التهافت » انما كان الهــدف الاساسى منه مجرد الرد على الغزالى ، بمعنى أنه يتضمن عرضا نقديا .

قلنا ان فيلسوفنا ابن رشد قد أبدى اعجابه بأرسطو . دليل هــذا أننا اذا رجعنا الى شروحه وبعض تآليفه وجــدناه يفضله على جميع الفلاسفة الذين سبقوه والذين أتوا بعده حتى ابن رشد . فهو مثلا يقول فى مقدمة تفسيره لكتاب الطبيعيات : « مؤلف هذا الكتاب أكثر الناس عقلا . هو الذى ألف علوم المنطق والطبيعيات وما بعــد الطبيعة ، وســبب قولى هذا أن جميع الكتب التى ألفت فى هذه العلوم قبل مجىء أرسطو لا تستحق جهد التحدث عنها » .

ويقول ابن رشد فى مقدمة تلخيصه لكتاب الحيــوان لأرسطو : نحمد الله كثيرا على ذلك الرجل - أى أرسطو - فنضــعه فى اسـمى درجــات الفضل البشرى والتى لم يستطع أن يصــل اليها أى رجل فى أى عصر .

ونود أن نشير من جانبنا فى معرض دعوتنا الى هذا المنهج الذى قلنا انه يتمثل فى المطالبة بالرجوع الى شروح الفيلسوف على أرسطو ، الى أن هذا الاعجاب من جانب فيلسوفنا لم يكن منه بمجرد شعور طارىء

فحسب بل نحسب أنه كان صادرا عن عقيدة • ودليلنا على ذلك ان هذا الاعجاب من جانبه قد استحال الى محاولة لتأييد أرسطو وتبرير أقواله فى أكثر نظرياته • فهو يتاثر بارسطو ويرى أنه لم يكن مخطئا لأنه اتبع المنهج البرهانى • واذا فهمنا ما يعنيه بالبرهان - كما سيتضح بعد قليل - استطعنا القول بلا أدنى تردد أن شروحه هذه تعنى جزءا لاينفصل عن نظرياته الفلسفية ، بحيث لا يمكن دراسة نظرية من نظرياته الا اذا استخلصنا فهما لها وتاويلا من خلال تلاخيصه وشروحه على أرسطو بوجه خاص ، بل لابد أن نستمد أساس نظرياته من خلال شروحه وتفسيره • فهو دائما ما يعمد الى عرض ارائه الخاصة فى سياق شروحه • وهو اذا كان يفسر كتب أرسطو ويعلق عليها فانه بدوره يتجاوز التفسير والتعليق ويتطرق الى بعض القضايا الفلسفية اللاهوتية ولاسيما فى معرض رده على الاشاعرة بصفة خاصة والمتكلمين على وجه العموم • ونستطيع أن نؤكد ذلك من جانب آخر • اننا اذا تعمقنا فى شروحه وتلاخيصه وجدنا من جانبه مغزى غاية فى الدلالة • هذا المغزى يتمثل فى أنه اذا كان ينقد رأيا من الآراء فذلك لأنه لا يتفق مع فلسفته ومع مبادىء أرسطو وفلسفته التى قلنا فيما سبق أنه يؤيدها تأييدا ظاهرا •

نضرب على ذلك مثالا واضحا من تلخيصه لكتاب من كتب أرسطو• يقول ابن رشد فى تلخيص السماع الطبيعى لأرسطو : « أن قصدنا من هذا القول أن نعمد الى كتب أرسطو فنجرد منها الاقاويل العلمية التى يقتضيها مذهبه أعنى أوثقها ونحذف ما فيها من مذاهب غيره من القدماء اذا كانت قليلة الاقناع وغير نافعة فى معرفة مذهبه ، وانما أعتمدنا نقل هذا الرأى من بين آراء القدماء كان قد ظهر للجميع أنه أشد اقتناعا وأثبت حجة • وكان الذى حركنا الى هذا أن كثيرا من الناس يتعاطون الرد على مذهب أرسطو من غير أن يقفوا على حقيقة مذهبه فيكون سببا لخفاء الوقوف على ما بها من حق أو ضده •

يحاول ابن رشد اذن الدفاع عن القضايا الأرسطية • وهذا ظاهر ظهورا بينا من خلال شروحه وتفاسيره ومن خلال مؤلفاته أيضا • واذا كنا ندعو من جانبنا اليوم الى منهج جديد يتمثل فى الاعتماد - كما قلنا -

على شروحه بصفة خاصة فان تحت يدنا الكثير من النصوص التى تنهض دليلا على تأييد دعوتنا اليوم وقد آن لنا معشر المشتغلين بالفكر الفلسفى العربى أن نبحث فى فلسفة ابن رشد بحثا ينظر اليها من منظور يختلف عن ذلك المنظور الذى بحثت فلسفته على أساسه ، وهو ذلك المنظور التقليدى الذى يبحث فيها من خلال مؤلفاته كفصل المقال ومناهج الأدلة وتهافت التهافت ، من خلال بيان اتفاقها واختلافها مع الجانب الدينى.

طريقة البرهان :

اذا كان ابن رشد - كما اتضح لنا - يؤيد أرسطو دون غيره فان سبب ذلك أنه يحاول الارتفاع الى مستوى البرهان - كما قلنا - ومحاولته الارتفاع الى هذا المستوى البرهانى هو الذى جعله ينقد المتكلمين تارة والفارابى وابن سينا تارة أخرى ، مبينا ان الكثير من أقوالهم لاتعدو كونها طرقا اقناعية أو على أحسن الفروض طرقا جدلية ، وكل من الطريقتين تعدان فى مرحلة أدنى من مرحلة البرهان .

نقول هذا اليوم ونؤكد على قولنا هذا . وطالما قلنا أن هناك الكثير من النصوص التى تقطع بذلك قطعا لا مجال للشك فيه . فهو يقول فى تفسيره لكتاب مابعد الطبيعة لأرسطو : « فليس بواجب أن نفحص فحصا بالغا عن أقاويل الذين حكمتهم شبيهة بالزخارف ، بل ينبغى أن نفحص ونسأل الذين قالوا ما قالوا بالبرهان .

واذا قال قائل بأن هذا القول فى مدلوله يعد قولا أرسطيا ، فاننا من جانبنا نسوق قولا من تهافت التهافت لابن رشد يؤيد اتجاه فيلسوفنا الى البرهان . فهو يقول : « أعنى بالحكمة النظر فى الأشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان ، كما يقول فى معرض تفضيله الطريق البرهانى على ماعداه من طرق أخرى : ان الأوقايل البرهانية قليلة جدا حتى انها كالذهب الابريز من سائر المعادن والدر الخالص من سائر الجواهر ، كما يقول فيلسوفنا أيضا فى معرض رده على الغزالى - ان الفلاسفة يبحثون على أساس هذا البرهان فهم قد طلبوا معرفة الموجودات بعقولهم لامستندين الى قول من يدعوهم الى قبول قوله من غير برهان . بل ربما خالفوا الأمور المحسوسة .

ابن رشد يقول هذا في مؤلفاته . وقد استفاد ذلك كله من خلال شرحه لمؤلفات أرسطو . لنستمع إليه يقول في تفسيره لكتاب الميتافيزيقا لأرسطو - في معرض رده على علماء الكلام الذين هم أساسا فيما يرى أهل جدل لا برهان - يقول فيلسوفنا : فإنه لما كان هذا العلم - يقصد به نصرة آراء قد اعتقدوا فيها أنها صحاح ، عرض لهم أن ينصروها بأي نوع من الأقاويل سواء كانت سوفسطائية ، جاحدة للمبادىء الأولى أو جدلية ، أو خطابية ، أو شعرية ، وصارت هذه الأقاويل عند من نشأ على سماعها من الأمور المعروفة بنفسها(١) .

ونستطيع أن نستخلص من ذلك كله أن ابن رشد ينقد الطريقتين ويرتضي لنفسه طريقا ثالثا فهو ينقد الأدلة الخطابية - وهذا هو الطريق الأول - لأنها جعلت لأهل الاقناع الذين يسلكون المسلك الاقنـاعي في جوانب بحثهم واعتقادهم .

وهو ينقد أيضا الأدلة الجدلية ، وهذا هو الطريق الثاني - اذ أنها خاصة بالجدليين أصحاب علم الكلام . ونقده لهم أعنف من نقده لأصحاب المسلك الاقناعي . فهم لم يقفوا عند حدود الأدلة الاقناعية وما فيها من بساطة ، كما لم يستطيعوا الصعـود الى مستوى البرهان ، بل نقدوا مسلك كل من أهل الاقناع والفلاسفة .

اما الطريق الثالث - وهو كما قلنا أن ابن رشد يرتضيه لنفسه - فهو طريق البرهان وهو عنده خاص بالفلاسفة ، أو ينبغي أن يكـون كذلك . وابن رشد يؤيد المسلك البرهاني أو القيـاس البرهاني لأنه فيلسوف أصلا ، والمبادىء التي يلتزمها أهل البرهان هي المبادىء العقلية والمنطقية التي لا يستطيع أي فيلسوف التخلي عنها في بحثه في قضايا الفلسفة .

---

(١) انظر في تفصيل ذلك في كتابنا : النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ، ص ٥٠ وما بعدها ، وكتابنا : المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد ، وكتابنا : تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية وأيضا كتابنا : ثورة العقل في الفلسفة العربية .

، اذا رجعنا الى تلخيص ابن رشد لبرهان أرسطو ، وجدنا ابن رشد يقول : ان البرهان يقرر أننا نعلم الشيء علما حقيقيا متى علمناه لا لأمر عارض على نحو ما يفعل السوفسطائيون بل متى علمناه بالعلة الموجدة لوجوده ، وعلمنا انها علته أنه لايمكن أن يوجد دون تلك العلة .

كما يذهب الى أنه كان من الضرورى أن يفيد البرهان علم الشيء على ماهو عليه فى الوجود بالعلة التى هو بها موجود ـ اذا كانت تلك العلة من الأمور المعروفة لنا بالطبع ـ فانه يجب أن تكون مقدماته صادقة ، وأوائل ، وغير معروفة بحد أوسط ، وان تكون أعرف من النتيجة وأن تكون علة النتيجة بالوجهين جميعا : أى علة لعلمنا بالنتيجة وعلة لوجود ذلك الشيء المنتج نفسه .

بالاضافة الى ان هذه المقدمات تعرف بالعقل وهو الذى يدرك اجزاء القضية المعروفة بنفسها . دليل هذا ان النتيجة الضرورية ـ فيما يرى ابن رشد ـ لاتكون الا عن مقدمات ضرورية .

واذ كان من شرط العلم الحق أن تكون النتيجة ضرورية ، فانه يجب أن تكون مقدمات البرهان ضرورية أى غير مستحيلة ولا متغيرة .

نظرية المعرفة :

قلنا ان ابن رشد قد ارتضى طريق البرهان مستمدا أساسه من أرسطو وذلك من خلال شروحه ، ثم حاول تطبيقه على كافة المشكلات الفلسفية . وهذا يؤدى بنا الى التأكيد على القول بضرورة الاعتماد أساسا على الشروح ، بحيث أننا اذا وجدنا ثمة تعارض بين قضاياه التى بثها فى تضاعيف شروحه وقضاياه التى ذهب اليها فى مؤلفاته فان الأساس عندنا هو الشروح لا المؤلفات ، التى لا يخفى ـ كما قلنا ـ أن بعض ما فيها قد وضع لظروف وأسباب تاريخية .

واذا كنا قد سقنا فيما سبق بعض الأقوال التى ذكرها ابن رشد والتى تهدينا الى الطريق الذى ارتضاه فاننا أيضا اذا رجعنا الى الأسس الرئيسية التى تتحكم نظرياته وجدنا مصدق ذلك بمعنى أنه من

السهل علينا رد عناصر فلسفته الى مبادىء استقاها عن أرسطو وتوصل اليها - كما قلنا - من خلال قيامه بالشرح والتفسير ، مقدما لنا الدليل تلو الدليل على صحة ما ارتضاه وقرره ، ويمكن أن ندلل على ذلك بأمثلة موجزة غاية الايجاز قاصـــدين من ذلك ، الدعــوة الى تجـاوز ذلك الطريق التقليدى والذى طالما بحثت فلسفته على أساســه ، ومن بينها نظرية المعرفة .

فهو مثلا فى هذه النظرية يتجاوز المعرفة الحسية ليصل الى المعرفة العقلية ، طبقا لما يقول به من تدرج الوظائف العقلية ، وبناء على رأيه الذى يذهب فيه الى أن المعقولات تستند الى المحسوسات .

وهذا ان دلنا على شىء فانما يدلنا على أن فيلسوفنا شأنه فى ذلك شأن أرسطو ، يصعد من الحسى الى العقلى ومن الجزئى الى الكلى ، فليس العلم علما للمعنى الكلى ، ولكنه علم للجزئيات بنحو كلى يتمثل فى قيام الذهن بتجريد الطبيعة الواحدة المشتركة التى انقسمت فى المواد .

من هذه النقطة - فيما نعتقد - يبدأ ابن رشد فى بيـــان رأيه فى مشكلة غاية فى الأهمية لعبت دورا هاما عند فلاسفة ومتصوفة العرب ، فاذا كنا نجد طريقين للاتصال : اتصال يبدأ بالمحسوسات حتى يصـــل حصول المعقولات فى عقلنا واتصال يعتمد على القول بأنه موهبة الهية لاتتيسر الا للسعداء ، فان ابن رشد يقول بالطـــريق الأول وذلك طبقا لمذهبه فى تدرج المعرفة الانسانية من المحسوسات حتى تصل الى المعقولات ، أى يقول بتطور طبيعى للعمرفة منكرا طريق التصوف ، وذلك - كما قلنا - يتمثل فى اعلانه أنه لا سبيل الى الاتصال الا بالعلم أى عند النقطة التى تصل فيها ملكات الانسان الى أقصى قوتها .

العلاقات بين الأسباب والمسببات :

قلنا أن ابن رشد قد بحث فى مجالات وموضوعات عديدة واذا اردنا أن ننتقل من البحث فى المعرفة الى البحث فى الوجود عند ابن رشد وجدنا أنه كما انتصر للعقل فى بحثه فى المعرفة ، فانه فعل ذلك حين بحث فى الوجود . لقد ابتعد ابتعادا تاما عن كل رأى لايتفق مع العقل .

واذا كان البحث فى الوجود يعد بحثا متشعب الجوانب ، فاننا سنقتصر على بعض الجوانب فى بحثه فى الوجود .

فالواقع أن الدارس للفكر الفلسفى العربى يلاحظ أن المفكرين الذين يتجهون اتجاها عقليا كابن رشد يقررون أن العلاقات بين الاسباب والمسببات تعد علاقات ضرورية ولكن المفكرين الذين لا يعتمدون على العقل كالاشاعرة والغزالى يذهبون الى ان العلاقة بين الاسباب والمسببات تعد علاقات غير ضرورية بل ترجع الى مجرد العادة ، والله تعالى قادر على خرق العلاقات بين الاشياء لانه تعالى يؤثر فى الاشياء بطريقة مباشرة وارادته مطلقة غير مقيدة بضروريات فكل شيء ممكن بالنسبة له تعالى وكل حركة وكل تغيير مصدرها الله . ومعنى هذا ان نفى القاعدة السببية يعد مبدأ من مبادىء الاشاعرة ، بدليل ذهابهم الى أن الله اذا اراد تغيير النظام الذى يبدو لنا فى الكون لاستطاع ذلك ، وبدل العادة وخلق عرضا بدلا من عرض آخر ، وهذا يؤدى بدوره الى حدوث معجزة، اذ المعجزة ما هى الا خرق للعادة .

هذه أدلة تنهض على نفى القاعدة السببية ، اى عدم الاعتراف بالعلاقات الضرورية المحددة المعينة بين الاسباب والمسببات .وهم لهذا يؤكدون باستمرار عمل ما يسمونه بالعلة الاولى ، اما ما يسمى بالعلل القريبة فانهم لايعترفون بها اذ من الممكن أن يحدث الشبع رغم عدم تناول الطعام ومن الممكن أن يحدث الجوع رغم تناول الطعام وهكذا الى آخر هذه الامثلة ، ومعنى هذا ان ما يبدو من عمل العلل القريبة يعد من قبيل الوهم ، لان الله هو الذى يخلقها كما يخلق لنا ما يظهر من آثارها.

واذا كان الاشاعر يذهبون الى نفى القاعدة السببية ، فان الغزالى قد تاثر بهم أكبر تاثر ، بحيث أن موقفه فى هذا المجال يعد موقفا أشعريا قلبا وقالبا . فهو قد سار على نهج طائفة من كبار الاشاعرة كابى الحسين الاشعرى والباقلانى ، فيما يختص بقولهم ان الاقتران بين ما يعرف بالسبب وما يعرف بالمسبب ، انما هو اقتران مرده الى العادة، لا الى الضرورة العقلية .

وقد عرض الغزالى موقفه الذى سار فيه على نهج الاشاعرة ، فى العديد من كتبه كالمنقذ من الضلال وتهافت الفلاسفة ، لكى يبين لنا أنه من الجائز مثلا وقوع الاتصال بين القطن والنار دون حدوث احتراق او تحول القطن الى رماد محترق دون ملاقاة النار .

هذا عن التيار الأشعرى الذى تابعه الغــــزالى ، فمـــا هو موقف فيلسوفنا ابن رشد ؟ لقد اهتم ابن رشد اهتماما كبيرا بالبحث فى هــذا المجال لأنه يتعلق تعلقا تاما بنظرته الى الوجود . ونستطيع أن نقول أن نظرة ابن رشد لمشكلة السببية تعد ــ كما سبق أن ذكــــرنا ــ انتصارا للعقل ، ويتمثل هذا الانتصار للعقل سواء فى الجانب النقدى الذى اهتم فيه ابن رشد بنقد الأشاعرة والغزالى ، أو فى الجانب الايجابى الذى عبر فيه عن موقفه . ولنقف الآن وقفة قصيرة عند هذا المجال ، مجال السببية عند ابن رشد ، حتى يتبين لنا كيف انتصر ابن رشد للعقل .

لقد كان ابن رشد حريصا على نقد رأى الأشاعرة الذين لم يعترفوا ــ كما ذكرنا ــ بالعلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها . ان أقوالهم فى نظره تعد أقوالا سوفسطائية ومخالفة لطباع الانسان فى اعتقاداته وفى أعماله ، ومن هنا يكون انكار وجود الأسباب الفاعلة التى نشاهدها فى المحسوسات انما هو من قبيل الافعال السوفسطائية .

ولكن ماذا يعنى ابن رشد بالأقوال أو الافعال السوفسطائية حتى ينقد الأشاعرة ؟

انه يعنى أننا نتصرف فى حياتنا بناء على ان لـــكل شىء طبيعة ثابتة . فطبيعة الماء هى البرودة وشرب الماء لابد أن يؤدى الى الارتواء . فاذا قلنا انه لاتوجد علاقات ضرورية بين الماء والارتواء أو بين النــــار والحرارة فان هذا يعنى أن أقوالنا لاتتفق مع تصرفاتنا وافعالنا .

ومن هنا يذهب ابن رشد الى أننا نجد لكل شىء طبيعة خاصة وفعلا معينا . فالنار مثلا اذا قربت من الشىء القابل للاحتراق ولم يكن هناك عائق يعوقها عن الاحراق ، فان هذا يؤدى الى الاحتراق ضرورة .

ونود أن نشير الى ان ابن رشد يبين لنا أن موقفه يعد موقفا متفقا مع الدين اذ أن الاعتقاد بالعلاقات الضرورية بين الأسباب والمسببات ، والاعتقاد بأن لكل شىء طبيعة معينة وخاصية محددة ، سيؤدى بنا الى أن نتعرف على الحكمة الالهية والعناية والغائية فى هذا الكون . يقول الله تعالى : « صنع الله الذى اتقن كل شىء » ويقول تعالى : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

قلنا ان نظرة ابن رشد فى هذا المجال تعد انتصارا للعقل ، اذ أنه بعد أن قرر ان العلاقات بين الأسباب والمسببات تعد علاقات ضرورية ذهب الى أن من يلغى الأسباب ولا يؤكد على وجودها فانه يلغى العقل الذى يدلنا على أسباب الموجودات ، اذ ان العقل ليس شيئا أكثر من ادراك الموجودات بأسبابها ومن رفع الأسباب فقد رفع العقل .

وبهذا ينتهى ابن رشد الى الربط بين السبب والعقـــل ، فالحكمة هى معرفة الأسباب التى تقوم على منطق العقـــل . ومن هنا لاتكون الآراء التى ارتضاها الاشاعرة لأنفسهم معبرة عن العقل وهذا هو السبب الرئيسى الذى دفع ابن رشد الى نقد موقفهم وكل موقف يشابه موقفهم معبرا عن انتصار العقل فى هـــذا المجال من المجالات الفلسفية التى يبحث فيها .

قـــدم العـــالم :

هذا عن مشكلة العلاقة بين الأسباب والمسببات ، فاذا انتقلنا الى مثال ثان من بين عشرات الأمثلة التى تنهض على تأييده الاتجاه الارسطى ومحاولة الوصول الى الطريق البرهانى اتضح لنـا ضرورة الرجوع الى شروحه بصفة خاصة .

هذا المثال يبدو فى أدلته على قدم العالم والتى فند بها اعتراضات الغزالى التى تقوم على القول بحدوث العالم .

ففى الدليل الأول نراه يؤيد مواقف الفلاسفة ويقيم دليله على فكرة الحركة الأرسطية . وهو بذلك قد ابتعد عن الطريق الجدلى والاقناعى

حتى يصل الى مرتبة البرهان بحيث يبدو لنا أن مفتاح فلسفة ابن رشد كلها انما يتمثل فى هذه التفرقة بين الطرق الثلاث مختارا منها الطريق الثالث الذى يعده أكثر الطرق سموا ويقينا وهو طريق البرهان كما قلنا .

اما الدليل الثانى فيقيمه على فكرة الزمان . واذا تعمقنا فى دراسة هذا الدليل وجدنا تأثره بأرسطو الى حد بعيد . اذ أنه يربط دائما بين آراء أرسطو وآرائه هو فى الطبيعة الضرورية لكل موجود .

وفى الدليل الثالث يناقش فليسوفنا فكـــرة الامكان أو الاحتمال ويذهب الى دحضها تماما . وهو يتساءل عن المبرر والباعث على تجدد الموقف بالنسبة لله الذى لايتغير أبدا .

اما فى الدليل الرابع والأخير فنجده يناقش فكرة وجود مادة أو محل قابل للشىء الممكن ذاهبا الى أنه لايمكن أن يتكون شىء عن لاشىء فان معنى التكون هو انقلاب الشىء وتغيره مما هو بالقـــوة الى ما هو بالفعل . ولذلك لا يمكن أن يكون عدم الشىء هو الذى يتحول وجودا ولا هو الشىء الذى يوصف بالكون أعنى الذى نقول فيه أنه يتكون .

خاتمـــــــة :

اذا كان الفيلسوف العربى ابن رشد ، قد انتقل الى دار الخلود فى العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨م ، فاننا تخليدا لذكراه لابد وان نشير الى بعض الدروس التى يمكن الاستفادة منها فى حياتنا التى نحياها ، أى حياتنا الفكرية ، وذلك بعد أن أشرنا الى بعض نماذج فكره كفيلسوف عربى ، فاذا كنا نتحدث اليوم عن قضايا كالتراث والأصـــالة والمعاصرة والتجديد ، وموقفنا من الحضارة الغربية ، وموقفنا من العقل وعلاقته بتراث الأقدمين ، أقول اذا كنا نتحدث اليوم عن هذه القضايا والجوانب، فانه من الضرورى ـ فيما أرى من جانبى ـ الرجوع الى تراث هـــذا الفليسوف ابن رشـــد ، اذ أننى أعتقد أن الآراء التى قال بها تفيـــدنا فى تحديد موقفنا من أكثر هذه القضايا .

لقد قدم لنا هذا المفكر العملاق ، نسقا فلسفيا محكما يعد تعبيرا عن

ثورة العقل وانتصاره ، وبذل فى التوصل الى الآراء التى يتكون منها نسقه الفلسفى جهدا ، وجهدا كبيرا واذا كانت بعض آرائه قـــد لاقت الكثير من أوجه المعارضة سواء فى أوربا أو فى بلداننا العربية فانها قد لاقت الاعجاب أيضا . بل ان هذه المعارضة فى حد ذاتها تعد دليلا ودليلا قويا على ان آراءه كانت ومازالت آراء حية تعبر عن فكر مفتوح لافكر مغلق وكان ابن رشد بهذا كله جديرا بأن يدخل تاريخ الفكر الفلسفى العالمى من أوسع وأرحب أبوابه .

ويقينى أن أى دارس لتاريخ الفلسفة العربية لن يكون بامكانه ، اذا كان منصفا وموضوعيا فى أحكامه تخطى أو تجاوز آراء هذا الفيلسوف الممتاز التفكير سواء فى جانبها النقـــدى أو جانبها الايجابى . هـــذا الفيلسوف الذى قدر له أن يكون آخر فلاسفة المغرب العربى ، بل آخر فلاسفة العرب ، بالمعنى الدقيق لكلمة الفلسفة وكلمة الفيلسوف .

واذا أردنا أن نبحث عن نقطة انطلاق لما نتحدث عنه اليوم من قضايا الأصالة والمعاصرة ، واذا أردنا وصل ما انقطع ، أى أن نجـــد مستقبلا فلاسفة فى وطننا العربى ، فلا مفر فيما يبدو لنا — من تدبر آراء هذا الفليسوف ودراستها دراسة دقيقة ، وكم فى فلسفتـــه من آراء مازلنا فى القرن العشرين فى حاجة ماسة اليها .

ويكفى فيلسوفنا فخرا أن فلسفته كانت معبرة عن عظمة الفكر التى تتلاشى أمامها ولا تقترب منها أى عظمة أخرى . يكفى فيلسوفنا فخرا أن فلسفته لم تكن محصورة فى نطاق العلاقة بين الدين والفلسفة ، وكأنه ادرك أنه يجب النظر الى الفكر الفلسفى فى حد ذاته وبصرف النظر عن اقتراب هذا الفكر أو ابتعاده عن موضوع العلاقة بين الدين والفلسفة .

أننا اذا نظرنا الى ابن رشد كمجرد فيلسوف اسلامى ، فان هذه النظرة تعد خاطئة قلبا وقالبا ولا يصح أن نقلل من أهمية نقده للغزالى وكيف أن منطلقات ابن رشد ، تختلف اختلافا جـــذريا عن منطلقات الغزالى فاذا حصرنا فلسفة ابن رشد فى النطاق التوفيقى فكيف نبرز اذن هجوم الغزالى ولجوئه الى تكفير الفلاسفة ؟

ان ابن رشد اذا كان قد استفاد من فلاسفة اليونان وفلاسفة العرب فى المشرق العربى وفى المغرب العربى والذين سبقوه ومهدوا له الطريق، طريق العقل ، الا أنه قدم لنا مذهبا لانستطيع أن نقول أنه يعد مجرد صدى لآراء من سبقوه ، بل كان تعبيرا من جانبه عن آراء فريدة ودقيقة وناضجة صادرة عن منهج ارتضاه لنفسه هذا الفيلسوف الذى يعد - فيما نرى من جانبنا - أكبر عميد للفلسفة فى بلاد المشرق والمغرب معا وصاحب اتجاه يقوم على اعلاء كلمة العقل فوق كل كلمة .

غير مجد فى ملتى واعتقادى اهمال فلسفة وفكر هذا الفيلسوف ومن الأمور التى يؤسف لها أننا فى عالمنا العربى لم نستفد بعد من دروسه الاستفادة الكاملة . هذا على الرغم من أن أوربا قد استفادت من آراء هذا الفليسوف واستوعبت دروسه جيدا . لقد أدت آراؤه العلمية والعقلية الى التقدم الفكرى لأوربا التى أخذت بآرائه فى حين تأخر الشرق بوجه عام لأنه كان عالة على الغزالى ، هذا المفكر الذى حشر حشرا فى زمرة الفلاسفة وقال بآراء غير عقلية .

أننا يجب أن نأخذ عظة من التاريخ ، أى الربط بين تقدم أوربا وفكر ابن رشد من جهة وتأخر العرب والشرق وفكر الغزالى من جهة أخرى . فهل استفدنا جيدا من هذا الدرس ؟ واقعنا الفكرى اليوم يقول أننا لم نستفد شيئا .

أن عالمنا العربى اليوم من مشرقه الى مغربه تسوده وتسيطر عليه اتجاهات غير عقلية اتجاهات تدخل فى مجال اللامعقول ، وما احوجنا الى أن نتذكر تماما دروس أعظم فلاسفة العقل عند العرب على وجه الاطلاق ، وهو فيلسوفنا ابن رشد .

أننا نعانى اليوم من فقر فكرى واضح ، نعانى من جدب عقلى ، وأعتقد اعتقادا راسخا أنه بالامكان تجنب هذا الفقر الفكرى والابتعاد عن حالة الجدب العقلى بالرجوع الى فلسفة ابن رشد التى كانت معبرة كما قلت عن ثورة العقل ، مؤيدة لانتصار العقل .

لقد ترك لنا ابن رشد كتبا ورسائل فى مجال الفقه ، وقد بحث فى مجال الفقه من خلال منظور عقلانى ٠ وقد آن لنا الآن - بعد ان وصلنا الى حالة من التخلف الفكرى - الرجوع الى آرائه الفقهية ، أو على الأقل الاستفادة من منهجه فى هذا المجال ٠

لقد اشتغل ابن رشد بالطب وترك لنا أكثر من كتاب ورسالة وقدم لنا الكثير من الآراء العلمية فى هذا المجال ٠ واقدام ابن رشد على التأليف فى مجال الطب يدل على أنه كان يعتز بالعلم وما احوجنا أن نستفيد من دفاعه عن العلم ، فان هذا أفضل لنا ٠ اننا لو كنا فعلنا ذلك لما وجدنا ما يشيع الآن فى عالمنا العربى من تيارات تسخر من العلم ، تسخر من الحضارة ٠ ان هذه التيارات الخرافية واللاعقلانية اذا قدر لها الاستمرار والنمو ، فسوف نصبح اضحوكة بين الأمم وستلحق بنا لعنة السماء ٠

لقد دعا ابن رشد من خلال أكثر كتبه الى الانفتاح والاستفادة من أفكار الأمم الأخرى وما احوجنا الآن الى تلك الدعوة ٠

أقول اننا الآن وفى أمس الحاجة الى الاستفادة من دعوة ابن رشد الى الانفتاح على أفكار الأمم الأخرى ٠ عار علينا الاستماع الى تلك الدعوات التى تصدر الآن عن بعض العقول الضيقة ، عقول العصر الحجرى ، والتى تصف لنا أفكار الأمم الأخرى بأنها تعد كبحر من الظلمات ٠ نعم مازلنا نجد بيننا فى بلداننا العربية وفى الوقت الذى نحن فى أمس الحاجة الى الانفتاح على علم الغرب وحضارة الغرب ، اقول ما زلنا نجد بيننا من يصور لنا الانفتاح الفكرى وكأنه كفر فهل بعد هذا نطمع فى التقدم ؟

أننا اعتقد اعتقادا راسخا بأننا اذا كنا قد استمعنا الى صوت العقل ، صوت المنطق ، صوت ابن رشد وهو ينادى فى كتبه بوجوب الاقبال على علوم الآخرين ، وما كان منها صوابا قبلناه منهم ، وما كان منها ليس بصواب ، نبهنا اليه لكان الحال غير الحال ٠ هذا ما قاله لنا ابن رشد وينبغى ان نستوعب هذا الدرس جيدا ومن الغريب أن هذا

الصوت قد انطلق منذ أكثر من ثمانية قرون من الزمان ، ولكننا صممنا آذاننا عن الاستماع اليه حتى وصلنا الى تلك الحالة التى يرثى لها .

نعم لقد حذرنا ابن رشد من كل دعوة لاتقوم على العقل . نبهنا الى مغالطات الاشاعرة مثلا كفرقة من الفرق الكلامية التى تعد مسئولة عن طرح العقل جانبا بل السخرية منه . فهل نفهم الآن ما نبهنا اليه . أننا لم نفهم شيئا فوقعنا فيما وقعنا فيه من الابتعاد عن العقل . واذا ابتعدنا عن العقل ، فمعنى ذلك الوقوع فى اللامعقول ، بل أقول الوقـــوع فى الخرافة والأساطير .

رحم الله ابن رشد الذى حذرنا من اخطـــاء ومغالطات مفـــكر كالغزالى . فهل استمعنا اليوم الى تحذيره ؟

أننا اليوم اذا كنا بين أمرين اثنين لا ثالث لهما ، اما الاحتكام الى العقل وجعله الدليل والرائد ، أو اللجـــوء الى اللامعقول والخرافة ، فيقينى أننا لابد وان نختار الطريق الأول الذى دعانا اليه ابن رشد منذ أكثر من ثمانية قرون ، دعانا الى هذا الطريق منبها ومحذرا من مخاطر الطريق الثانى ، الطريق المظلم ، الطريق المسدود ، الطريق المغلق .

اذا أردنا لأنفسنا الحياة ، اذا أردنا تجديد فكرنا الفلسفى والعربى ، فينبغى علينا أن نستمع الى صوت ابن رشد ، صوت الأستاذ ، صوت عميد الفلسفة العقلية فى عالمنا العربى . هذا ما نقوله اليوم ونحن نحلل هوية فكر ابن رشد ، هوية فلسفتنا وكيف أنها أساسا تعد فلسفة عربية حتى لا ننظر اليها من خلال المنظور التوفيقى ، المنظور الذى باعد بيننا وبين الالتزام بخصائص الفكر الفلسفى . فهل ياترى سيجد هذا القول من جانبنا صداه ، هل سيجد آذانا صاغية فى عالمنا العربى المعاصر من مشرقه الى مغربه ؟

الحوار

حـــــوار النـــــدوة

منى أبو سنه

الاشـــكالية الأولى

حسن عبد الحميد : أستاذ الفلسفة بآداب عين شمس

الاشكالية الأولى المطروحة فى هذه الندوة والتى تدور على الجدل حول ما اذا كانت الفلسفة اسلامية أم عــــربية هى اشكالية عفى عليها الزمان ٠ انها من صنع المستشرقين فى القرن التاسع عشر وفى القــرن العشرين ٠ فعندما قال هؤلاء بثقافة اسلامية وفلســـفة اسلامية وحضارة اسلامية كان هذا القول لســـبب فى نفس يعقوب من أجــل أن يقيموا معارضة بين العربية والاسلامية ٠ وبالتالى فأنا لا أريد أن أدخل فى هذه الاشكالية الزائفة كما قال حامد طاهر واكتفى بالقول بأن هــذه الثقافة أو هذه الحضارة هى ثقافة عربية وحضارة عربية مولت بأموال المسلمين عن طريق الجزية والخراج ٠

أما قول حامد طاهر بأن الفلسفة ، فى زمن ابن رشـــد ، تعنى المنطق فأنا أود مناقشة هذا القول وأتساءل : ماهو المنطق وما علاقته بأرسطو وما علاقته بابن رشد ؟ ان « الأورجانون » عند أرسطو وبالذات « التحليلات الأولى » سمحت له أن يطل على الانسانية من عالمه ٠ وأنا لا أتصور مفكرا فى التاريخ بلغ حجم الاكتفاء الذاتى مثلما بلغه أرسطو بعد اكتشافه مبدأ القياس ٠ وهذا الاكتشاف مردود الى قـــراءة أرسطو النقدية لأفلاطون ٠ وبعدها ربط بين المنطق وفلسفته ٠ ولهذا فعندما يقول حامد طاهر ان الفلسفة هى المنطق فأنا أفهم من ذلك أن الميتافزيقا عند كل من أرسطو وابن رشد مرتبطة بالمنطق ٠

(*) استاذ ورئيس قسم اللغة الانجليزية ـ كلية التربية ٠ جامعة عين شمس ٠

وثمة ملحوظة أخيرة وهى ضرورة طرح كل الاشكاليات فى الفلسفة الاسلامية ، فى علاقتها التاريخية بالتراث الهيلينى لأن هذا التراث هو الوسط الثقافى الذى من خلاله نشأت الثقافة الاسلامية • وفى نفس الوقت يجب دراسة ابن رشد بمنظور معاصر لنرى كيف يمكن الافادة منه كما أفادت منه أوروبا وبالذات فى عصر النهضة وذلك لتأسيس ثقافة عربية اسلامية •

سيدى عشماوى : مدرس بقسم التاريخ بآداب القاهرة

الاشكالية الأولى ، فى هذه الندوة ، ليست زائفة فهى لم تحسم لصالح طرف دون آخر كما تصور فتح الله خليف • وفى تقديرى أن التعامل مع هذه الاشكالية ينبغى ان ينطلق من مقولة أن ثمة خصوصية عربية للاسلام رغم عالمية الدين الاسلامى • فالوحى نزل على محمد النبى العربى ، ومعجزة الدين الاسلامى القرآن ، والعرب هم الذين بشروا بهذا الدين وهم الذين أسسوا الدولة العربية الاسلامية • ومعنى ذلك أن ليس ثمة تناقض بين ما هو اسلامى وما هو عربى • ولكن عدم وجود تناقض لا يعنى أن حل الاشكالية يأتى بالتلفيق وانما يعنى أن يأتى الحل بالتوفيق بين ماهو عربى وما هو اسلامى •

أحمد عبد الحليم عطية : أستاذ مساعد الفلسفة بآداب القاهرة

هذه الندوة مواكبة لمجموعة من الأحداث يمر بها الوطن العربى • وليس فى امكان أحد أن يفصل بين الفلسفة والوطن العربى فقد ثار جدل ، منذ فترة وجيزة ، حول مؤتمر الأقليات والآن نثير جدلا وهميا حول فلسفة عربية أو اسلامية • وهنا انوه بأن الجامعة الأهلية فى بداية هذا القرن كانت تضم مستشرقين يتبنون تسمية « فلسفة عربية » ، وعندما تحولت الى جامعة مصرية أصبحت التسمية « فلسفة اسلامية »، والآن ثمة محاولة تدعو الى أن ابن رشد ينتمى الى حضارة شرق أوسطية وأنه هونفسه فيلسوف شرق أوسطى • وهى محاولة تريد نزع الهوية الاسلامية •

سعيد مراد : أستاذ مساعد الفلسفة بآداب الزقازيق

طرحت الاشكالية الأولى ، فى هــــذه النــــدوة ، حول الفلسفة الاسلامية منذ بداية هذا القرن . هناك من ذهب الى أنها فلسفة عربية لان رجالها كانوا يكتبون آثارهم بالعربية ، ويأتى على رأس القائلين بهذا من المستشرقين « موريس دى ولف » فى كتـــابه « تاريخ فلسفه القرون الوسطى » وكذلك المستشرق « برييه » فى كتابه «تاريخ الفلسفة» وقد تابعهم من العرب لطفى السيد ومحمود الخضيرى وفؤاد الأهوانى . وجميل صليبا وعاطف العراقى .

ومنهم من يقول فلسفة اسلامية مثل «هورتن» الألمانى و « دى بور» فى كتابه « فى تاريخ الفلسفة الاسلامية » و « جوتييه » و « البـــارون كارادى فو » وغيرهم وحجتهم فى ذلك أن جمهرة الفلاسفة ليسوا من أصل عربى .. وقد تابعهم من العرب ابو ريده وعلى سامى النشار . وقد عرض الشيخ مصطفى عبد الرازق كل هذه الأراء فى كتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » (ص ١٦ ـ ص ٢٤) . والشيخ مصطفى عبد الرازق يذهب الى القول بانها فلسفة اسلامية حيث وردت عبارات « فلاســـفة الاسلام » وحكماء الاسلام » فى كتاب « أخبار الحكماء » و « مقدمة ابن خلدون » وظهير الدين ابى الحسن البيهقى فى كتاب « تاريخ حكماء الاسلام » .

ويقدم زكى نجيب محمود حلا لهذه الاشكالية وهو يعرض لمشكلة الانتماء فى محاولة لفض النزاع بين القائلين بالعروبة والقائلين بالاسلام فيقول « العروبة نمط ثقافى ، من عاش فى حياته منخرطا فيه كان عربيا بغض النظر عن عرقه ، ومن أهم المقومات التى يتألف منها ذلك النمط الثقافى ، اللغة والدين وفلســـفة القيم الأخـــلاقية والجمالية ، والأعراف والتقاليد والدعائم الأساسية التى يقام عليها النظام الاجتماعى من الأسرة وما يضبط العلاقات بين أفرادها من قواعــد ، الى المجتمع القومى من حيث هو بناء موحد ،تسرى فى انحائه ضروب من الروابط بين الأفراد .. وهنالك فى التاريخ العربى رجال لم يكن انتماؤهم العرقى عربيا ، اذا جعلنا العروبة مقيدة بحدود جغرافية معينة ، وهى شــبه

الجزيرة العربية لكن احدا منا لا يتردد فى ضمهم الى « العروبة » من زاوية الاطار الثقافى الذى قضوا فيه حياتهم ونشاطهم وفكرهم وعقائدهم، والا فمن الذى يريد منا ان يخرج من العروبة رجالا من امثال البخارى والترمذى ، وابن سـينا ، والغـزالى ، لكونهم ينتمون الى فارس من الناحية العرقية ؟ وليست العروبة بدعا وحدها فى كونها قائمة على نمط ثقافى معين لا على انتماء عرقى » (فى مفترق الطرق ، ص ٣٦٠) والقول بأن العروبة نمط ثقافى يلغى التعدد العرقى داخل هذا الاطار الثقافى .. ويدعم وحدة القوى الفاعلة فى الحضارة العربية.ومن وجهة نظرى أن التكوين الثقافى لابن رشد نتج عن تفاعل بين الموروث العربى والاسلامى ـ بحكم كونه فقيها مسلما وقاضى قرطبة ـ والحضارة اليونانية الوافدة .. تلك الحضارة التى وقف ابن رشد عند نتاجها الفلسفى شارحا وملخصا .. ومعلقا بعد أن قـام بتهذيب الترجمات التى تمت على يد التراجمة الأوائل من أمثال « حنين بن اسحاق » وقد عرضت لذلك تفصيلا فى بحثى داخل الكتاب التذكارى تحت عنوان « ابن رشد بين حضارتين» (ص ٣٠١ ـ ٣٥٥) .

ثالثا : ملاحظات حول ما آثاره كلمن فتح الله خليفوحامد طاهر:

لقد قال فتح الله خليف أن مسـألة كون الفلسفة « عـربية أم اسلامية » قد حسمت وانتهى الجدل حولها واتفق جمهور الفلاسفة على كونها فلسفة اسلامية . ونحن نخالفه الرأى.فالاشكالية لم تحسم والا لما ناقشناها اليوم وهى فى غالب الظن لن تحسم وذلك بحـكم اضطراب المعايير واختلاط المفاهيم بين الباحثين والدارسين . واعتقد أن فتح الله خليف لم يقرأ الكتاب التذكارى واكتفى بالنظرة العابرة على موضوعاته. ولو انه عاد فقرأ بحوثالكتابلعدلمن الكثير من آرائه حولهذا الموضوع.

لقد اثار حامد طاهر الكثير من المسائل منها : ـ

(أ) أن هذه المشكلة من المشكلات الزائفة التى شغلتنا كثيرا عن جوهر الدراسات الفلسفية وأنا أوافقه على ذلك من حيث أن الجدل حول هذه المسائل لا يقدم ولا يؤخر فى النتاج الفلسفى .

(ب) التقليل من أهمية عصر الترجمة حيث يقـــول انها ترجمات فى غالبها ركيك غير مفهوم ولا واضح ، وقد تجاوز مفــكرو العـــرب والاسلام هذه الترجمات . وأنا أرى غيـــر ذلك حيث أن الترجمة من اليونانية الى العربية ، والانفتاح على الوافـــد من الثقافات من أهم العوامل التى ساعدت على نضج العـــلوم العـــربية . فهناك فرق بين التدوين الذى ظهر فى مرحلة سابقة على الترجمة وبين العلوم المنهجية التى ظهرت فى القرن الرابع الهجرى بعد أن استوعب العـــرب حضارة اليـــونان .

(حـ) ضرورة الاهتمام بدراسة ابن رشد كفقيه . وقد أشرت الى ذلك فى بحثى « ابن رشد بين حضارتين » فأصول الفقه والفقه فيه من اعمال العقل الكثير .

فؤاد زكـــريا :

أنا من المؤمنين بان هذه المشكلة من المشاكل الوهمية والزائفة كما قال بعض الاخوة المتحدثين ، ولكن لاحظت أن البعض استخدم فكرة أن المشكلة لاتزال قائمة ولم تحسم كدليل على أن هذه المشكلة جادة . ولو حللناها فلسفيا لوجدنا أنه ليس من الضرورى لكون هـــذه المشكلة لم تحسم بعد أنها مشكلة جادة . ولذلك أريد أن أقول بالفعل أن جزءا كبيرا من المشكلة راجع الى أننا لا نمارس هذه العادة الحميدة المطلوبة بالذات فى المشتغلين بالفلسفة وهى تحليل معانى الألفـــاظ التى نستخدمها .

فمثلا لو أن المتحدثين فى مشكلة الأقليات التى تملأ صفـــحات الجرائد فى هذه الأيام بحثوا عن المعانى الدقيقة لكلمة الأقليات لوجدوا أن لها عددا كبيرا جدا من المعانى المتعارضة ، وربما كان جزء كبير من الجدل الدائر حول هذا الموضوع راجعا الى أن كل واحد يستخدم الكلمة بمعنى مختلف عن الآخر وهو على غير دراية وهذه هى الكارثة.فالبعض يستخدم كلمة « أقلية » بمعنى عـــددى ، والبعض يستخدمها بمعنى عرقى ، والبعض يستخدمها بمعنى تاريخى ، من غير اهتمام بالبحث عن المعنى العلمى للفظ « أقلية » . نفس الشىء ينطبق على كلمة الاسلام

والعروبة . العروبة من الممكن أن يكون لها معنى عرقى اى الذين ينتمون الى العرب ، ومن الممكن ان يكون لها معنى جغرافى اى الذين اتوا من الجزيرة العربية ، ومن الممكن ان يكون لها معنى لغوى اى الذين يتكلمون اللغة العربية . ومن الممكن ان يكون لها معنى حضارى .

الاسلام نفس الشيء يمكن ان ينظر اليه كعقيدة ويمكن أن ينظر اليه كحضارة . وهناك فرق كبير بين ان اقول ان هذه فلسفة اسلامية بمعنى انها تنتمى الى الدين الاسلامى او ان مشاكلها كلها محصورة فى الدين الاسلامى ، وبين ان اقول انها اسلامية بمعنى أنها جزء أثير فى اطار الحضارة الاسلامية ، فرق كبير بين الاثنين . ولابد أن يكون هذا الفرق واضحا فى الاذهان . ومن المؤسف أننى حتى الان لم اسمع مثل هذه التفرقة الا عندما اقتبس مراد وهبه نصا من محمود الخضيرى ، كانت فيه هذه التفرقة واضحة . ومما يزيد الأسف أن مراد وهبه بعد ذلك لم يستخدم كلمة الفلسفة الاسلامية الا بالمعنى الدينى فقط ، مع العلم بانه اقتبس النص الذى يفرق بين الاسلام كدين وبين الاسلام كعقيدة . وعاد بعد ذلك وقال ان المترجمين كانوا مسيحيين فكيف ندخلهم فى الفلسفة الاسلامية . ومعنى ذلك أنه عاد الى معنى الاسلام كعقيدة . أنا اتصور أن هذه المشكلة تحل ، الى حد كبير ، لو أننا حددنا معانى الالفاظ التى نستخدمها . واذا أردنا ربط القديم بالحديث كما طالب أحد المعلقين يمكن القول بأن من القضايا الأساسية التى تثار على مستوى السياسة الان هى : هل الذى يجمع هذه المجموعة من الأمم التى تسكن فى هذه المنطقة هو الاسلام أم العروبة ، القومية العربية أم الوحدة الاسلامية ؟ هذه مشكلة موجودة وتثيرها بالذات الجماعات الاسلامية ويثيرها القوميون العرب . أنا اتصور أن هناك قدرا كبيرا من التداخل ولذلك أنا لا أقر استخدام مراد وهبه لكلمة التناقض بين العروبة والاسلام .

فى دروس المنطق كان يرسم لنا دائرتان متداخلتان ولكن احداهما خارجة قليلا عن الثانية أما الجزء الأساسى فى كل منهما فقد كان متداخلا فى الآخر . أتصور أن مشكلة العلاقة بين العروبة والاسلام لاتعدو ان تكون شيئا من هذا القبيل . لكن كلمة التناقض مرفوضة تماما فى هذا المجال .

تبقى أخيرا ملاحظة واحدة تتعلق برأى فتح الله خليف حــول ظهور الموسوعة الاسلامية كدليل على أن المسألة حسمت لصالح الفلسفة الاسلامية . أنا لا أعتقد هذا لأن الموسوعة الاسلامية لا تتناول الفلسـفة فقط ، بل تتناول الاسلام كدين ، كمجموعة من العقائد ، فقه ، فن ، جغرافيا ، سياسة ، تاريخ ، حضارة . ومن ثم فهى كانت متعمدة أن تبحث فى الاسلام كحضارة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة . وهذا لا يحسم بالذات قضية الفلسفة الاسلامية . أنا أقول أنها قضية زائفة ومن الممكن التخلص منها بسهولة لو حللنا ألفاظنا تحليلا دقيقا .

زينب الخضيرى : أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة

أعتقد أننا جميعا متفقــون على أن الفلســفة تبحث فى الكليات والمطلق ، وبالتالى فان تقييدها بأى عامل من العوامل يجرح خصوصيتها ويخدشه . انما حكاية التســمية جاءت لأسباب تاريخية خاصة بالتاريخ للفلسفة الاسلامية والمسيحية . قليل جدا من الكتب التى تتحدث عن فلسفة مسيحية . والأغلب ينسبها الى العصر . فيقال فلسفة وسيطة وفى الجامعة المصرية نحن نتحدث عن « الفلسفة الغربية فى العصر الوسيط» اقتناعا فيما أعتقد أننا لو اعتبرناها فلسفة مسيحية لربطنا الدين بالفلسفة وهذا الربط يدمر الفلسفة . وعدم الربط لا يعنى أن الفلسفة أفضل من الدين أو أن الدين أفضل من الفلسفة ، وانما يعنى أن المجالين مختلفان وهذا ما أدركه ابن رشد وأدركه بشكل عنيف جدا الأمر الذى جعل منه فيما أعتقد ديكتاتورا فكريا رهيبا .

فمنهج التأويل الذى هو موضع اعجاب من مراد وهبه بدعوى أنه يفتح الباب لحرية الفكر ، أعتقد أن ابن رشد طبقه بشكل ارهابى وحاسم . فقد جعل أرسطو فــوق النص الدينى ، اذ أوله (بتشــديد الواو) لصالح أرسطو .

أعود الى مسألة تسمية « فلسفة اسلامية أم عربية » والتى أعتقد أنها ستظل دائما تطرح نفسها . فماسينيون عندما أرخ للفلسفة فى بداية حياته الفكرية ألقى سلسلة من المحاضرات أطلق عليهــا اسم « تاريخ

المصطلحات الفلسفية العربية » . وقبله مونك الذى ألف كتابا سماه « أمشاج من الفلسفة اليهودية والعربية » . وفى العشرينات من هذا القرن صدرت « الموسوعة الاسلامية » وكان مقصد العرب منها معرفة حضارة الاسلام ، ومعرفة الفلسفة الاسلامية كجزء من الحضارة الاسلامية . وكان استخدام مصطلح « الاسلام » يغازل السلطة السياسية المتحكمة فى الاسلام وفى المسلمين وهى سلطة لم تكن عربية بل تركية . وهذه مسألة منطقية . ثم جاءت مرحلة أراد فيها بعض الكتاب المسيحيين اظهار فكرة أنها فلسفة عربية . وهى كذلك من زاوية ولكنها من زاوية اخرى هى فلسفة اسلامية بمعنى انها انتاج الحضارة التى قامت على الاسلام . ولولا أن للاسلام خصوصيته ما كان يسمح بأن تكون هناك فلسفة .

محمود أمين العالم :

لقد فزعت عندما قال فتح الله خليف « ما ترك السلف للخلف شيئا » . نعم ، السلف ترك الكثير للخلف ولكن ترك للخلف ما ينبغى ان يختلف معه ، وينقده ، ويتجاوزه . هذه هى القضية ، القضية هى أن نمتلك الواقع امتلاكا ابداعيا لنجدده ونجدد بهذا أنفسنا . هذه هى القضية ، وهى ليست زائفة ، مع أنها قد تكون زائفة بالمعنى الذى قاله فتح الله خليف . والقضية ليست عابرة بل هى جذرية فى حياتنا لأنها نابعة من شىء طبيعى وهو أننا نفتقد الهوية العملية . من نحن ؟ مسلمون أم علمانيون أم عرب أم غربيون . ان واقعنا لم ينتظم بعد . فليس ثمة خطة تنمية وليس ثمة نظرية عامة فى المجتمع والسياسة تحدد أين نتجه .

اذن الاشكالية الأولى المثارة فى هذه الندوة ليست نابعة فقط من فقداننا الرؤية لنظرية عامة لمجتمعنا ولكنها نابعة أيضا من واقعنا الراهن . فالانقسام قائم فى قضية الشرق الأوسط وهو قائم فى المجتمع بين اسلامى وعلمانى . هذه الاشكاليات الثنائية هى ضرورية بالرغم من أنها وهمية وغير ضرورية ومن اللازم أن نتخطاها . وهذه هى جدلية الواقع . هناك واقع فعلا يفرض علينا البحث عن هوية وبالتالى يرتبط . بالاشكال ، الذى نباشره اليوم : العقل أم النص . مهما يكن الأمر ، اذا

أردنا أن نتحدث عن فلسفة اسلامية أو حتى فلسفة عربية ففلسفة العقل نقطة بدايتها . فالعقل هـو المرجع الأول الذى نتدارك به الأمـور ، وبالتالى نرتفع الى ما أسميه بالفكر النظرى الى الفلسفة هذا اذا أردنا أن نؤسس فلسفة .

هناك حضارة عربية اسلامية فى مرحلة من المراحـل ، وكانت الفلسفة تنوع توجهاتها من الراوندى الملحد الى الأشاعرة الى ابن رشد. كل هؤلاء جزء من النسيج العربى الاسلامى.وسأضرب مثالا لذلك بقضية السببية عند ابن رشد . انها جزء أساسى فى العقلانية التى تربط كل شىء رغم الجذر الدينى الذى يحاول أن يربطها بأسس علوية . وابن تيمية يوفق على مفهوم السببية عند ابن رشد ويعارضه عند الأشـاعرة . ولكن هناك فرق بين العقلانية عند ابن رشد ، والعقلانية عنـد ابن تيمية . عقـلانية ابن رشـد عقلية تسـيطر على الواقع وتكتشـف الأسـباب . ومن ثم فان رفع الأسباب رفع للعقـل . وابن تيمية يقول أيضا بالأسباب ولكن الدلالة السببية ، عنده ، مرتبطة ارتباطا أعمق بالرؤية الدينية . ذلك أن ابن تيمية « كلامى » عظيم يبـدأ من العقيدة ليعقلنها . أمـا ابن رشد فيبدأ من العقل . وهذه هى القضية : الفلسفة تبدأ بالعقـل لتكتشف الحقيقة وتضيف اليها وتطورها .

والسؤال اذن : من أين نبدأ وكيف نرى الأشياء وكيف نسيطر عليها؟ بالعقل أم بالتأسيس على نص أو دين ؟ ان الفلسفة لا تنتسب الى غبر العقل . قد تعالج الدين . ولكن ثمة فارق بين فلسفة تعالج الدين وتؤول جزءا من قضاياه ، وبين مفكر دينى يناقش العقل .

وثمة قضية أساسية أخرى تتعلق بزمانية الفكر . وأنا هنا أزعم أن الفكر الذى تجلى فى مرحلة ما يسمى بالعصور الوسطى هو فكر دينى سواء كان مسيحيا أو اسلاميا ، وسواء كان عقلانيا أو دينيا . كان الدين ، فى هذه المرحلة ، هو الرباط العام . وفى داخل الدين كان ثمة فلسفة عقلانية تعالج الدين .

وكانت هذه المرحلة الدينية ، فى الفكر الاسلامى، مرتبطة بأمرين: بالدين الاسلامى وبالعروبة . ولهذا كانت الفلسفة ، بدون أية توفيقية زائفة ، فلسفة عربية اسلامية بالمعنى الحضارى لا بالمعنى الدينى الاسلامى ولا بالمعنى العربى الجنسى .

وفى اطار زمانية الفكر أثير هذا السؤال :

هل نحن فى نفس الموقع الذى كان فى العصور الوسطى حيث كانت الايديولوجية الدينية هى السائدة ؟

محمد عبد القادر : أستاذ الفلسفة بآداب الاسكندرية

فى تصورى أن قضية هوية ابن رشد تمثل اشكالية بالمعنى الحقيقى. وأنا هنا أضع النقط على الحروف من خلال ما أثير من أن هذه القضية قد وقعت بين التهوين والتهويل . فالى الذين استكثروا أن تنطوى هذه القضية على اشكالية أسالهم : لماذا اذن اجتمعتم ؟ فلو لم تكن لابن رشد هوية ولم لم يكن له انتماء لما بقيت فلسفته حتى وقتنا هذا . وصعوبة هذه القضية تكمن فى أننا نناقش بعض القضايا من منطلق « اما ، أو » وكأن المسألة لا تحتمل الطرفين معا .

والسؤال اذن : لماذا لا نجمع بين العربية والاسلامية فى فلسفة ابن رشد . فابن رشد فيلسوف عربى اسلامى . ولو قدر له أن يبعث الآن وسئل : هل أنت عربى فهل يرفض كونه عربيا ؟ واذا سئل : هل أنت مسلم فهل يرفض كونه مسلما ؟ بيد أن المسألة الأخطر فى تصورى تكمن فيما تثيره هذه القضية من تداعيات وهى قضية الانتماء والأصالة والمحافظة على ثقافتنا وهويتنا .

منى أبو زيد : مدرس الفلسفة بآداب طنطا

ان البحوث المقدمة فى هذه الندوة ، لم تكن تقييما وانما كانت نقدا . فثمة نقد لم يتجاوز غلاف الكتاب وثمة نقد آخر استند الى ابحاث محددة لم تتفق مع رؤيته فنقدها . أما باقى الأبحاث فقد سقطت من

الحسبان . أما عن الاشكالية الأولى لهذه الندوة فأخشى أن تدخلنا فى مناقشة قضايا زائفة وقع فيها السابقون فى الفكر الاسلامى مثل قضية الصفات الالهية وقضية خلق القرآن . يبقى بعد ذلك أن القضية الهامة التى يمكن أن نفيد منها هى : ماذا نحتاج من ابن رشد فى عصرنا ؟

عبد المعطى بيومى : أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر :

ان الاشكالية الأولى ليست اشكالية زائفة فيما اعتقد ، وانما هى اشكالية حقيقية لسبب بسيط وهو أنها تتصل بتحديد هويتنا : هل نحن عرب أم نحن اسلاميون ؟ وأنا لا أقول مسلمون . فاسلاميون تعنى الحضارة الاسلامية التى استوعبت فى تسامح كل الحضارات التى دخل عليها الاسلام . ولذلك نحن محتاجون الى الاتفاق ، فى هذه الندوة ، على الهوية انطلاقا من ابن رشد ، لأن ابن رشد ، فى تقديرى ، يصلح أن يكون نموذجا للمسلم الذى يفرق بين التفكير الفلسفى والتفكير الدينى .

التفكير الفلسفى يقوم على حرية العقل وعدم ارتباطه بأى مؤثر خارجى أيا كان بحيث لا تكون هناك سلطة الا للعقل . ومن ثم فالتفكير الفلسفى يختلف عن التفكير الدينى بأنواعه (علم الكلام - التصوف - أصول الفقه - الفقه .. الخ) من حيث أنه مرتبط بالنصوص . ينطلق منها ويدور حولها ويرجع اليها وان استخدم العقل فهو عقل مرتبط بالنصوص الدينية لا ينفك عنها .

اذن نقطة البدء عند الفيلسوف : العقل .
ونقطة البدء عند الفكر الدينى : الدين .

وقد اهتم الفلاسفة المحدثون بتأكيد هذا المنهج الفلسفى وأبرزهم ديكارت الذى جعل القاعدة الأولى فى منهجه « ان لا أسلم شيئا الا أن أعلم أنه حق » .

اذا كان هذا المنهج العام هو الذى يحدد قواعد التفكير الفلسفى واهم خصائصه لدى الفلاسفة جميعا بوصفهم فلاسفة فقط فان الذى يحدد هوية الفيلسوف بعد ذلك هو ماذا يعمل بعد ذلك ؟ . هل يكتفى بنتائج فكره

الفلسفى الحر ويعتبره « سلطة مثالية » فوق الدين والتراث والأعـراف والتقاليد ويعمل بمقتضى هذا الفكر الحر ولا يعتمد سواه ٠

وحينئذ يكتسب الفيلسوف هويته من حريته ٠ فهو بهـــذه المثابة فيلسوف عام ، أو فيلسوف انسانى ، لأنه منطلق من محض انسانيته ، أو من عموم فكره ٠

لكن بعض الفلاسفة لا يكتفى بالنتائج التى يتوصل اليها بعقله الحر بل يمضى خطوة أخرى وربما قدما فى مقارنة هذه النتائج التى حصل عليها بعقله مع عقائد الدين أو مقررات المجتمع فتكسب فلســفته هوية جديدة اضافية ٠

فاذا قارن الفيلسوف نتائج تفكيره مع حقائق الاسلام كانت فلسفته اسلامية ، واذا قارن مع عقائد المسيحية كانت فلسفته مسيحية ٠ واذا قارن مع عقائد اليهودية كانت فلسفته يهودية ٠

ومن ثم فمثل هذا الفيلسوف يرتبط بالدين فى نهاية المطاف الا أن الذى يجعل تفكيره مع ذلك تفكيرا فلسفيا لم يفقـــد خصائص التفكير الفلسفى الحر أنه حر فى بداية بناء مذهبه الفلسفى وفى الوصول الى نتائجه الأولى ٠ فهو يوفق بين فكره الفلسفى الخالص ودينه مما يجعله ذا هوية فلسفية مصطبغة بالهوية الدينية فكأنه يدور فى دائرتين ٠ دائرة الفلسفة التى تقع فى نهاية المطاف داخل دائرة الدين أو داخل الدائرة الأوسع التى اختار الفيلسوف المطابقة والتوفيق بينها وبين نتائج فلسفته الخاصة وبذلك يكون الفيلسوف ذا هوية مزدوجة : هوية الفلسفة وهوية الدين أو الجنس أو الأمة ٠

يبقى بعد ذلك تحديد هوية ابن رشد تاسيسا على ما سبق ٠ ومن ثم فلكى نحدد هويته علينا أن نتبين منهجه وعناصر فكره ليكون حكمنا بتحديد هـذه الهوية حكما نابعا من عمل الفيلســوف نفســه وانتمائه الأساسى ٠ وبالرجوع الى منهجه نجده يعلى من قـــدر النظر العقلى والبرهان العقلى ٠ كما أن عناصر فكره الأساسية تقـــوم على دعامتين أساسيتين هما : الفلسفة الأرسطية والاسلام٠ ويهدف من ذلك الى التوفيق

بين الاسلام وهذه الفلسفة . فالاسلام هو جوهر فكر ابن رشد باعتبارين : باعتبار أنه يمثل مرجعه فى البحث الفلسفى ، وباعتبار آخر هو ان الاسلام ، عنده ، كان النموذج المثالى الذى تجـرى المطابقة بينه وبين الفكر الأرسطى .

فلم يكن الاسلام اذن هو العنصر المؤثر فقط بل كان هو المرجع النهائى الذى يجب أن يرجع اليه ويقيس به كل مايحصل عليه من نتائج .

حتى التفلسف ذاته - أو بعبارة أخرى - النظر العقلى ، فاننا رأينا ابن رشد يبحث فى حكمه الشرعى أو حكم الاشـتغال به من الناحية الشرعية كرجل عمل بالقضاء حتى وصل الى درجة قاضى القضاة .

فهو فى أول مقدمة كتابه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » يقول بعد حمـد الله والصـلاة على محمد عبده المطهر المصطفى ورسوله : -

« فان الغرض من هذا القول : أن نفحص على جهة النظر الشرعى ، هل النظر فى الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع أو محظور أم مأمور به أما على جهة الندب ، واما على جهة الوجوب .

فنقول : ان كان فعل الفلسفة ليس شيئا أكثـر من النظـر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع - أعنى من جهة ماهى مصنوعات - فان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعـرفة بالصانع أتم وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك ، فبين أن ما يدل عليه هذا الاسم اما واجب بالشرع واما مندوب اليه .

فاما أن الشرع دعا الى اعتبار الموجودات بالعقل ، وتطلب معرفتها به فذلك بين فى غير ما آية من كتاب الله - تبارك وتعالى - مثل قوله « فاعتبروا يا أولى الألباب » وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى ، أو العقلى والشرعى معا .

الى أن يقول « واذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه وهذا هو القياس أو بالقياس . فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى .

بل ينتهى ابن رشد الى القول « فقد تبين من هذا أن النظر فى كتب القدماء - يعنى الفلسفة وغيرها - واجب بالشرع وأنه من نهى عن النظر فيها من كان أهلا للنظر فيها فقد صد الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله .

كان الاسلام اذن هوية الفيلسوف الأساسية التى كان عليه باستمرار أن يرجع اليه بنتائج أبحاثه الفلسفية وآرائه التى ينتهى اليها مما يحصله من أرسطو أو من غيره ليرى المطابقة أو التوفيق بين ما يقول به الاسلام وما يراه هو أو غيره من الفلاسفة وكان يفعل ذلك فى انتماء اسلامى ظاهر ومقال .

على أن البحث فى هوية الفيلسوف ابن رشد يجرنا الى البحث عن الهوية الاسلامية للفلسفة التى جعلت هدفها التوفيق بين الاسلام والفلسفة اليونانية كما تجلت فى فكر كل من الكندى والفارابى وابن سينا .

وكما نرى فان الهوية الاسلامية كما تنطبق على فكر ابن رشد فهى تنطبق على فكر هؤلاء جميعا لأنهم من مشكاة واحدة وساروا على هدف فكرى واحد .

أما القول بهوية عربية لابن رشد أو لغيره من هؤلاء الفلاسفة انما يدفع اليه - فى الأغلب الأعم - أحد الدوافع الآتية :

اما اعتبار اللغة العربية التى كتبت بها أبحاث هؤلاء . واما اعتبار الجنس العربى والتعصب له . واما البعد عن نسبة شىء من الفلسفة الى الاسلام .

وكل هذه الدوافع لا تجوز فى منطق العلم .

من هنا ولأسباب كثيرة أخرى نرى الهوية الاسلامية لهذا النوع من النشاط الفلسفى ٠ من هذه الأسباب :

أن كونها اسلامية لا ينفى عنها كونها عربية ٠

لأن هذه الهوية شاملة لكل ما كتب بالعربية وغيرها مما دار حول الاسلام من علوم ولكل الكاتبين فى هذه الفلسفة من عرب وعجم وهى شاملة أيضا لما كتبه الفلاسفة غير المسلمين من الوان الفكر التى دارت حول الاسلام وفلسفته ٠ ثم ان الاسلام يشكل فى هذه الفلسفة لا العنصر المؤثر فقط أو نظام الدولة ، وانما كان الاسلام هو المكون الرئيسى من مكونات هذه الفلسفة ٠ ألم تتكون من الاســـلام ، والتفكير اليونانى وعناصره وبعض نظرياته ٠

وكون اللغة العربية هى أداة التعبير لهذه الفلسفة فلولا الاســلام لما كانت هذه اللغة هى لغة العلم للفلاسفة ٠

واذا كان من سموها بفلسـفة عربية يعتمدون على أن العـــروبة حضارة ، فان الأولى أن تسمى فلسفة اسلامية لأن جوهر هذه الحضارة العربية ـ كما يسمونها ـ هو الاسلام : ولولا الاسلام ما وجدت هـــذه الحضارة وهذه الفلسفة فكيف تسمى الحضارة أو الفلسفة بأداة التعبير فيها دون أن نسميها بجوهرها نفسه ٠

ان الجنس العربى واللغة العربية كانا موجودين قبل ظهور الاسلام فهل كان ثمة فلسفة عربية ؟ اللهم الا خطرات أخلاقية لا تصل الى كونها بناء فلسفيا أو تصورا للوجود ٠٠ لله والعالم والانسان ٠

ان انتاج الفلاسفة المسلمين ـ من الكندى الى ابن‌رشد ومن بعدهما ـ مسبب عن الاسلام ٠ ولولا الاسلام لما وجد هذا الانتاج الفلسفى فلا يصح اطلاق اسم عليه غير الاسلام ٠

كان من الممكن أن توجد ترجمة عربية للفلسفة اليونانية مجـــرد ترجمة ، لكن الاسلام أعطى هذه الفلسفة بعدا جديدا ومنحها طابعها الاساسى الذى تميزت به عن الفلسفة اليونانية وغيـــرها من الفلسفات الأخرى فأولى بها أن تسمى بهويتها الأساسية « فلسفة اسلامية » ٠

حســـن حنفى :

ان الاشكالية الأولى نشأت فى الاستشراق فى القرن التاسع عشر . ووقتها كانت أوربا تمر بعصر القوميات فكانت هنـــاك القومية الألمانية والقومية الايطالية . وجاء المستشرقون من ألمانيا وروسيا محملين بهذه النعرة القومية . ولهذا فانهم عندما درسوا الشرق درســـوه من منظور قومى وسموا الفلسفة « فلسفة عربية » .

وفى بداية هذا القرن ، أى بداية سقوط الخلافة العثمانية ، نشأ الصراع بين العرب والأتراك وبدأت حركة القومية العربية ومعها ظهر مستشرقون يدعون الى فلسفة عربية فى مواجهة الفلسفة التركية . ثم نشأت بعد ذلك حركة اسلامية بقيـــادة الأفغانى ومصر الفتاة وبعض الأحزاب الوطنية فى العالم العربى . وراح نصارى الشـــام يدعون الى فلسفة عربية حتى لا يشعروا بأنهم قد ضاعوا وسط الأمة الاســلامية . ونشأ ما يسمى بالأقليات فى العالم العربى فقيل « نقد العقل العربى » وقيل « الفلسفة العربية » . ويكتب كل من محمد أركون ومحمد عابد الجابرى عن العقل العربى وعن الفلسفة العربية وهما من البربر والعرب بالنسبة اليهما شىء آخر ، أى أنهما ينسيان موضوع بحثهما وهو العرب .

هذه نقطة أما النقطة الثانية فخاصة بعصر الترجمة الأول . فى هذا العصر كان المترجمون العرب نصارى دينا ولكنهم كانوا عربا لغــة ومسلمين ثقافة . فعندما كان يترجم حنين بن اسحاق اللفظة اليونانية التى تعنى « آلهة » لم يكن يترجمها بالجمع لأنه يعيش فى ثقافة اسلامية وآلهة بالجمع غير مقبولة فى هذه الثقافة فترجم الآلهة بالملائكة لأن الملائكة بالجمع مقبولة فى هذه الثقافة . صـــحيح أن الترجمات عن السريانية واليونانية كانت ركيكة ولكن هذا أفضل لأن الابداع الفلسفى الاسلامى تمركز حول ايجاد مصطلح عربى مواز للمصطلح اليونانى . ولهذا فانا أرى أن هذه الترجمات أفضل من ترجمة لطفى السيد لأنه كان يترجم عن الفرنسية والانجليزية ولا يمارس عملية نحت مصطلح عربى . فهو ينقل عن الثقافة الغربية ترويجا لها وليس لنحت مصطلح عـــربى .

وأغلب الظن أن الاشكالية الأولى التى تدور عليها الندوة قد بدأت مع الفكر العربى المعاصر حيث حركة القوميين العرب وحركة القومية العربية ٠ وكان هذا السؤال : هل نحن نعيش فى فكر اسلامى معاصر أم فكر عربى معاصر ؟

وهذه هى النقطة الثانية أما النقطة الثالثة فخاصة بنشأة العلوم الاسلامية ٠ وقد ظلم سعيد مراد المسلمين القدماء ٠ فقد نشأت كل العلوم الاسلامية باستثناء علوم الحكمة قبل عصر الترجمة ٠ وبعد عصر الترجمة جاءت الثقافة اليونانية وهى ثقافة واحدة وحاول الكندى أن يجمع بين علم الكلام وهذه الثقافة الوافدة فظهر له الجديد من الفكر الذى يعتمد على العقل أكثر مما يعتمد على النقل ٠

فيصل بدير (أستاذ بآداب عين شمس)

أحسب أن تحديد الحوار من خلال اشكاليتين فحسب تحديد قد جانبه قدر كبير من الصواب ٠ لأن هناك محاور أخرى كان ينبغى التركيز عليها بحكم أنها اشكالات حية ومعاشة الآن وتفرض نفسها علينا ٠ من هذه الاشكالات مشكلة الحرية فى فلسفة ابن رشد وما يرتبط بها من حديث عن آراء ابن رشد السياسية أو بتعبير آخر فلسفة ابن رشد السياسية ، والى أى حد يمكن معالجة فكرنا السياسى الآن من خلال الطرح الرشدى للمشكلة ٠ كذلك كان ينبغى التأكيد على الاتجاه العقلى الذى قيل ان ابن رشد ، وحده ، قد تزعمه وبين الاتجاهات الأخرى سواء كانت كلامية أو صوفية أو فقهية ، والتى يبدو ـ كما يرى البعض ـ أنها فى موقع مضاد للاتجاه العقلى ٠ ثم هل صحيح أن ثمة قطيعة بين الفلسفة فى المغرب الاسلامى وبين الفلسفة الاسلامية فى المشرق لدرجة أن عدت هذه الأخيرة فلسفة اشراقية توفيقية بينما الأخرى عقلية ٠٠٠ الخ ثم هل صحيح ان ابن رشد نسيج وحده أم أنه ابن عصره وأنه فى نهاية المطاف تعبير عن لحظة تاريخية محدودة سبقته اليها الحركات الفكرية الكبرى فى المشرق الاسلامى ، ومن ثم فان الحاجة ماسة الى توضيح الصلة بين ابن رشد وبين المتكلمين والفقهاء،والى أى حد نجح ابن رشد فى أن يكون

نسقا فلسفيا مستقلا حتى بدا أنه لم يتأثر بالسابقين عليه والمعاصرين له بل بدا على العكس : خصما لدودا ... ثم هل يمكن بلورة الاتجـــاه الرشدى والخروج منه الى رؤية اقتصادية تضع « رأس المال » فى اطار عقلى يكون متسقا مع فلسفة الاسلام فى هذا الصـــدد ... كذلك كان ينبغى التركيز على الفصل ما بين الاراء التى قالها ابن رشـــد كشارح لارسطو وبين آرائه هو الخاصة . ويرتبط بذلك تحديد المقصود بالاتجاه العقلى ، لان الفلسفة هى فى النهاية اعمال العقل .. ومع هذا فثمـــة فلسفات (عقلية) متباينة . .ومن ثم فان السؤال هو : أى لون من ألوان الاتجاه العقلى فى الفلسفة كان يتبناه ابن رشد .. هناك اذن محاور كثيرة وهامة كان ينبغى التركيز عليها دون قصر هذه الدراسة على اثارة محورين فحسب .

على كل حال فانى احسب أن تحديد الحوار من خلال اشكاليتين هما : تحديد هوية ابن رشد أهو فيلسوف عربى أم اسلامى أم اسلامى عربى واشكالية الاتجاه العقلانى تحديد له مغزاه ودلالته التى سوف نقف عندها ، لأننى أرى أن هذين الاشكاليين هما وجهان لعملة واحدة وهى الاسلام والعقلانية ، لأن هوية ابن رشد العربية المدونة على غلاف الكتاب تؤدى فى عرف القائلين بها الى العقلانية . ومن ثم فان العقلانية هى الوجه الآخر لعربية ابن رشد . وهذا معناه ـ على الجانب الآخر ـ ربط التفكير اللاعقلانى بالاسلام ممثلا فى المفكرين الآخرين سواء كانوا متكلمين أو فقهاء أو صوفية ... وهذا هو ما حاولت بعض المقالات التى يتضمنها هذا العمل التاكيد عليه والترويج له .

وسوف تدور مناقشتى فى هذا الصدد على ما كتبه مـــراد وهبـه تحت عنوان « مفارقة ابن رشد » وما كتبه عاطف العراقى ســـواء فى تصديره للكتاب أم فى مقاله « ابن رشـــد وفكرنا العـــربى المعاصر » لا لأن مقالتيهما أهم المقالات الموجودة بالكتاب ولكن لانهما تمثلان اتجاها واحدا نحسب أن الصواب جانبهما كثيرا سواء فى قراءة ابن رشد أو فى قراءة التراث الاسلامى .

أما سائر المقالات الأخرى فانها تقدم رؤية لجوانب ابن رشد المتباينه وكلها لا تخرج عن كون ابن رشد فيلسوفا اسلاميا معتدلا رفع لواء العقل دون أن يضحى بالنقل .

أما بشان الحديث عن « هوية » ابن رشد فاحسب ان البحث عن هذه الهوية الآن وبعد مئات السنين - وان كان أمرا أضـــحى فى ذمة التاريخ - الا أن احياءه يجعل المرء يتساءل : ما أهمية أن يطلق على ابن رشد أنه فيلسوف عربى أو اسلامى أو عربى اسلامى ؟ هل ستغير هذه التسمية الآن من حقيقة ماكتبه ابن رشـــد ، ومن أثره فى تاريخ الفلسفة ؟ لماذا نسعى الآن الى الفصل بين ما هو عربى وما هو اسلامى ؟ لماذا احياء الحديث الآن عن الاسلام والقوميات ؟

ان ابن رشد ما كان يمكن أن يكتب ما كتب بغير مظلة الاسلام ، ومن ثم بغير السابقين عليه من فقهاء وعلماء كلام وفلاسفة . لقد بدل الاسلام القبائل العربية رأسا على عقب وجعل من العرب أمة متحضرة . فالحضارة التى طرأت على العرب بعد الاسلام، سواء فى المشرق أو المغرب، لا يمكن أن ترد الا الى الاسلام ، بغض النظر عن هوية المنتمين اليها أو الداعين لها ، وسواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين فانها ترد فى النهاية الى الاسلام ، لأن قصر الفلسفة على الجنس العـربى فقط من شأنه أن يتجافى مع الواقع ومن شأنه أن يخرج كل حكماء الاسلام خارج دائرة الفلسفة الاسلامية اللهم الا الكندى .

أضف الى ذلك أن اعمال ابن رشد التى تجعله مؤلفا قبل أن يكون شارحا مثل : الكشف عن مناهج الأدلة ، فصل المقال ، شرح عقيدة الامام المهدى ، مسألة فى أن الله تبارك وتعالى يعلم بالجزئيات ،كتاب المقدمات فى الفقه ، اختصار المستصفى ، بداية المجتهد ... كلها لا يمكن أن تفهم الا على ضوء كونه فيلسوفا اســلاميا قبـــل أن يكون عـــربيا شارحا فلسفة أرسطو .

لذلك نحن نرى أن ابن رشد فيلسوف اسلامى فى المقام الأول وأن فلسفته اسلامية لا عربية . ولا يقلل من شان هذه التسمية انه قد قال

ببعض الآراء التى كانت موضع اختلاف من المسلمين لأن هذا الاختلاف أمر وارد ومشروع وموجود فى كل الديانات والفلسفات .

مرفت بالى (أستاذ مساعد باداب الزقازيق)

ان الخلاف حول ما اذا كانت فلسفة اسلامية أو فلسفة عربية يمكن أن يحسم على هذا النحو :

أولا : تسمية فلسفة المشرق والمغرب باسم « الفلسفة العربية » لأن هذه الفلسفة نتاج فكر فلسفى قدمه فلاسفة ينتسبون الى الحضارة العربية وهم فى نفس الوقت مسلمون .

ثانيا : قصر تسمية « الفلسفة الاسلامية » على مجالات ثلاثة تبحث فى علوم ثلاثة هى علم الكلام وعلم الفقه وعلم التصوف . وحجتى فى ذلك أن قصر الفلسفة الاسلامية على هذه العلوم الثلاثة يجنبنا كثيرا من الاشكاليات لأن هذه العلوم تتناول قضايا دينية برؤية فلسفية تتفق والدين الاسلامى . ثم ان ضم علم الفقه الى مجال الفلسفة الاسلامية ينطوى على فائدة كبيرة ، اذ هو غذاء يفتقده طلاب كليات الآداب . والحرمان منه قد يكون من أسباب توليد ظاهرة التطرف والارهاب .

أختم فاقول أن مصطلح « فلسفة عربية » يسمح للفيلسوف المسلم أن يقدم لنا فلسفة تتفق مع الدين أو تتفق مع المصادر الفلسفية التى استقى منها أفكاره ، وهى مصادر يونانية فى الأغلب الأعم .

كمال دسوقى : مقرر لجنة العلوم الفلسفية والاجتماعية بمجمع اللغة العربية .

لقد تفجرت الخلافات ، فى هذه الندوة ، حول ما اذا كانت فلسفة ابن رشد عربية أم اسلامية ، ومدى صحة وصف الابحاث ولقب المشرف على اصدار الكتاب بالعربية حينا والاسلامية حينا آخر ، كما أثيرت قضايا أساسية حول ما اذا كان ثمة تناقض بين ماهو عربى وماهو اسلامى لا يزال قائما منذ الحضارة العربية الاسلامية لم يرفع بعد وتتوارثه الثقافات المتجددة بالنظر الى وجود مفكرين غير مسلمين (نصارى

ويهود ومجوسيين وصابئة) ومفكرين من الفرس والأتراك والتتار ليسوا عربا (باعتبار الدين والجنس على الترتيب) ... أو هل الاشكالية قديمة منذ المستشرقين فى القرن التاسع عشر لأغراض فى نفوسهم فات آوانها وانتهت أم هى لاتزال تتجدد اليوم أكثر ضراوة فلابد من ربطها بالحاضر ممثلة فى فلسفة ابن رشد ؟ هل القضية زائفة وأنها قد حسمت بخصوصية العروبة داخل عالمية الاسلام بحيث لا يظل يقوم تناقض بين ماهو عربى وماهو اسلامى ؟

لكن يظل الخلاف قائما حول ضرورة التفرقة بين ما هو عربى وما هو اسلامى بدعوى أن اهمال هذا الفرق هو سبب مشاكلنا الآن حيث يثور الخلاف بين الحكمة والشريعة وعلاقة القياس والاجماع فى أصول الفقه الاسلامى بمنطق أرسطو اليونانى - الى حد الاتهام بالقول بدين عربى وفلسفة اسلامية ، وتكفير التفكير فى تأويل التنزيل ، واعمال العقل فى النقل ، وازدواجية الظاهر مع الباطن بين الحقيقتين عن تقية لا عن تقوى . ويستمر خلط الأوراق فى عروبة الفلسفة الاسلامية الى حد التساؤل عما اذا كانت الفلسفة الاسلامية المشرقية بيانية عرفانية كامتداد لعلم الكلام والمغاربية عقلية برهانية كامتداد للمنطق والرياضيات . ويندد أحد المتحاورين باستعمال عقلانية وعروبة ابن رشد استعمالا سياسيا اعلاميا ربما يتطلبه واقع العصر مهما يكن أن ابن رشد الفيلسوف العربى رائد العقلانية فى الفكر المسيحى ذاته كان الممهد للنهضة الأوربية الحديثة ، وأنه لو لم يؤخذ كمفكر عربى (لا اسلامى) نقلت اعماله الى اللاتينية ما كان للغرب المسيحى أن يتقبله ويستنهض بعقلانية فكره المنطقى الارسطالى التقدم العلمى المنهجى وتوالى الكشوف والمخترعات - مما نحن أولى به الآن فى استعادة حضارتنا وهذه بضاعتنا ردت الينا .

وما لنا أن لا نأخذ فى مشروع ثقافى نستنهض به أمتنا العربية (سواء بحركة تجديد أو اصلاح ، تحديث أو تنوير ، عقلانية أو علمانية ...) بعقلانية التأويل والبرهان ومنهجية الأدلة (الخطابى والجدلى والبرهانى) اللتين أعملهما ابن رشد فى (تعريب) ثلاثة

مجالات : اهتمامه بالطب والفقه والفلسفة كفكر اسلامى وعلوم عقل ونقل وحكمة وشريعة (الهية) لا تتعارض ولا تفقد اتجاهها نحو مقصدها الواحد الذى منحه الله للبشرية وهو العقل (حامد طاهر : ابن رشد ـ هوية عربية أم اسلامية ، ورقة عمل مقدمة للندوة) ـ مما انتهى بها الى العالمية كحضارة اسلامية ؟ وكيف لنا أن نسترد حضارتنا هذه باسقاط هويتها العربية والتركيز على طابعها الاسلامى فى عالم يموج بالصراعات الطائفية والمذهبية الدينية داخل الدول الاسلامية ذاتها باكثر مما هو بينها وبين الأديان الأخرى ؟ اذ يسود الاسلام السياسى الكثير من المجتمعات الاسلامية وهو يجاهد لاحلال السلطة الدينية بالحق الالهى أو الامامى واقامة الدولة الثيوقراطية محل السلطات الدنيوية والدول الديمقراطية ... بالعنف والتطرف المؤديين الى مناوأة النظم الحاكمة فى حلقة مفرغة من سفك الدماء لا تتوقف بالدعوة الى الحوار مع المعتدلين لاشراكهم فى السلطة أو استتابة الارهابيين المحتجزين بالمعتقلات الذين كفروا بالمجتمع واستباحوا دم رموزه الحاكمة. فالجماعات الاسلامية المتشددة أو الأصولية ـ كما تتلطف فى تسميتها الاذاعات الأجنبية ـ عبء على حكومات بلادها الاسلامية (التى تتعاهد على تبادل تسليمهم ومحاكمتهم ومداهمتهم وقتلهم ...) باكثر مما هى خطر على غير المسلمين والأجانب من العاملين والسائحين داخل وخارج كل بلدان العالم .

وكما تحل لعنة الفلاسفة (وهم يتنابذون بالألقاب) بالأصولية هكذا ، تحل بمقابلها الذى هو العلمانية . وهى ـ سواء بكسر العين ـ تدعو لفصل السلطة الروحية عن السلطة السياسية للدولة . وتنادى فى التعليم بقبول جميع التلاميذ بمختلف دياناتهم ، والامتناع عن تفضيل عقيدة على أخرى ، أو بفتح العين قوامها التفرقة بين الدينى والدنيوى ، بين التعاليم الكهنوتية اللاهوتية المحافظة والتفكير العقلى العلمى الذى يتخذ من تعليم قوانين العلوم ونظرياتها الطريق الى التحرر من السلطات الدينية والسياسية كليهما ابتغاء التجديد والاصلاح في الثقافة والاجتماع . وهى مقابل أيضا الغنوصية ـ سواء

التى تجمع بالتلفيق ـ اذ لا يمكن التوفيق ـ بين الدين والفلسفة على اساس حجب المعرفة الدينية عن عامة المسلمين (الجام العوام عن عدم الكلام) ليستأثر بها الراسخون فى العلم (منذ القرون الأولى للمسيحية والاسلام) اتقاء استعداء الدين الرسـمى للدولة أو المذهـب الدينى للحاكم ـ بما يشبه المذاهب السرية فى المعتقدات الباطنية بوحدة الوجود التى تجعل ماهية الله باطنة فى العـالم ـ مما يخفى التطعم بأفكار اشراقية تربط العلم الحضورى للذات العـارفة بجواهرنورانية لهـا فيوضات عقلية (كالأفلوطينية المحدثة التى تقول بصدور الكثرة عن الواحد بنوع من الفيض) ، أو تعاليم مشرقية مانوية تدعـو للتوفيق بين المسيحية وديانة زرادشت المثنوية فى النور والظلمة ، أو مزدكية ، أو مجوسية ، أو صابئة يشهدون أن لا اله الا الله ثم يعبدون الكواكب باعتبار أن الله جعلها قبلة للدعاء ، وفوض تدبير أمر العالم اليها ـ حيث لا عمل لهم ولا نبى ولا كتاب (وان قرأوا الزبور وعبدوا الملائكة) ولا شريعة لهم يعملون بها وهم يعبدون الله ، وبنظرة التوحيد التى يعرفونها لم يحدثوا كفرا ـ كما تقول الكتابات الاسلامية فى الملل والأهواء والنحل .

أى هذه الفلسفات الاسلامية اذن الذى يمكن اتخاذه أسـاس مشروع ثقافى قومى يحقق وحدة الفكر العربى غير عقلانية ابن رشد بصرف النظر عن عروبة أو اسلامية الفيلسوف والفلسفة ككل أو مع التسـليم بالجمع بينهما دون تطابق الدائرتين ؟ وكيف لنا أن لا نستخلص وحدة لغة الفكر من خلال كثرة تنوعات مذاهب الفكر لتتحقق لنا الهوية الذاتية والطابع القومى للمشروع الثقافى الذى يلائم المتغيرات الدولية المعاصرة وندخل به النظام العالمى الجديد شركاء أندادا ذوى حضارة تالدة وطريفة ـ مهما اختلفنا حول تسمية حركتنا المصيرية تجديدا أو اصلاحا ، تحديثا أو تنويرا ؟ وان يكن لابن رشد جانباه العقلى والفقهى باتصال أو انفصال الحكمة والشريعة كليهما فى شخصه كفيلسوف عربى مسلم هو رصيد فكرنا العربى الاسلامى وأحد رموز فلسفتنا العقلانية الرائدة ؛ فما الذى يمنع من التعامل بأحد وجهى العملة الذى يصلح آخر الزمان لاسترداد تفوقنا بما صلح به أول الزمان ـ وجه عروبة اللغة فى اسلامية الفكر ؟

مـــراد وهبـــه :

عن الاشكالية الأولى أعتقد ان قول فتح الله خليف بان ليس ثمة اشكالية لان مسالة هل الفلسفة الاسلامية هى اسلامية أم عربية مســـألة محسومة لصالح أنها فلسفة اسلامية .. هذا القول ليس محسوما . فعاطف العراقى يتبنى القول بان الفلسفة الاسلامية ليست كذلك وانما هى فلسفة عربية . ولجنة الفلسفة ، فى مجمع اللغة العربية ، منشغلة الان باعداد معجم عنوانه « معجم مصطلحات الفلسفة العربية » .

وحتى لو قلنا مصطلح فلسفة اسلامية فان ابن رشد ليس مقبولا فى هذا الاطار . فموقعه اما خارج هذا الاطار واما أنه هامشى واما أن فلسفته ترف عقلى لم تؤثر فى الفلسفة الاسلامية . ثم انه من الملاحظ أن بعد تكفير ابن رشد لم نعد قادرين على القول بان لدينا فلاسفة اسلاميين حتى أيامنا هذه .

أما قول حامد طاهر بأن الفلسفة ، عند ابن رشـــد ، هى المنطق فهذا أيضا قول فى حاجة الى مراجعة ، لأن فلسفته تتجاوز المنطق الى الميتافزيقا ، فابن رشـد يتناول مسائل ميتافزيقية ســـبق ان أجاب عنها بالنفى أبو حامد الغزالى . وهذه المسائل ثلاث : قدم العالم والعناية الالهية ، ووحدة العقل . وفى تقديرى أنه بسبب هيمنة الغزالى على المشرق العربى وبداية هيمنته على المغـــرب العربى ارتأى ابن رشـــد ضرورة تاليف كتاب يهاجم فيه ادعاءات الغزالى . فالف كتاب «فصل المقال .. » ثم أصدر كتاب « مناهج الأدلة .. » . وفى هذا الكتاب أشار ابن رشد الى الكتاب السابق ، ولم يشر الى « كتاب تهافت التهافت » ومعنى ذلك أنه قد أصدر هذا الكتاب بعد صدور الكتابين سالفى الذكر ومعنى ذلك أيضا أن ابن رشد لم يكن مقتنعا بكفاية هذين الكتابين اللذين ألفهما لمقاومة أفكار الغزالى فالف هذا الكتاب الضخم « تهافت التهافت» .

وقد لاحظ ابن رشد أن المناخ ، فى العالم الاسلامى ، معبأ بتكفير الفلاسفة بفضل تأثير الغزالى فارتأى أن يكون من المفيد التمييز بين الراسخين فى العلم والجمهور . واستند الى المنطق فى هذا التمييز فى حديثه عن

الفرق بين القياس والاستقراء من حيث أن اعمال الاستقراء من شـــأن الجمهور لأن الاســـــتقراء أساسه حسى والجمهور يقنع بما هو حسى ولا يتجاوزه.أما القياس أو البرهان العقلى فهو من اختصاص الراسخين فى العلم لأنه يستند الى الكليات . ومن هذه الزاوية فان ابن رشد يغلط الغزالى لأنه يخلط فى عرض الأفكار بين ما ينبغى أن يكون للجمهور وما ينبغى أن يكون للراسخين فى العلم .

أما قول فؤاد زكريا بأننى قلت « ان المترجمين كانوا مسيحيين فكيف ندخلهم فى الفلسفة الاسلامية » . فأنا لم أقل ان المترجمين كانوا مسيحيين وانما قلت ـ نقلا عن محمود الخضيرى ـ لماذا التراجمة من غير المسلمين ؟ » وقوله من غير المســـلمين يشمل المسيحى والصابئى والاسرائيلى والمجوسى .

وبعد طرح سؤال محمود الخضيرى : لمـــــاذا التراجمة من غير المسلمين ؟ حاولت البحث عن الجواب عند على سامى النشار وأحمد فؤاد الأهوانى ودى بور . وكان المنطقى مناقشة أفكار هؤلاء لأنها جاءت بعد طرح السؤال مباشرة .

وأما عن قول فؤاد زكريا بأنه يأسف لأننى لم استخدم كلمة الفلسفة الاسلامية الا بالمعنى الدينى فقط . فهذا الأسف يوجه الى على سامى النشار ، وهو الذى قال ولست أنا ، أن الفلسفة الاسلامية هى علم الكلام فقط ، بل هى الأشعرية على التخصيص اذ هى آخر ما وصل اليه العقل الاسلامى الناطق باسم القرآن والسنة .

الاشــكالية الثــانية

حســن الشـافعى : أستاذ بكلية دار العلوم

اظن أن عقد ندوة تتناول عملا فكريا حول موضوع هام كهذا ليس أمرا غريبا ولا ينبغى أن يواجه بحساسية كالتى واجهناها بالأمس حتى أنها سميت بالمعارك ٠

وأظن أيضا أن هذا التقليد قديم فى ثقافتنا ، وأن هناك ما كان يسمى بالمحاكمات مثل المحاكمات التى كانت بين فخر الدين الرازى ونصير الدين الطوسى حول شرح الاشارات والتنبيهات ٠ وهناك أيضا المحاكمات بين « تهافت الفلاسفة » للغــزالى و « تهافت التهافت » لابن رشد ٠ وهناك أيضا محاكمات أدبية أو ما أطلق عليه لفظ الوساطة بين المتنبى وخصومه ٠

أقول اذن ان عقد مثل هذه الندوة ليس أمرا جديدا ولا مسيئا ، بل ان العمل الفكرى أو الأدبى عندما يمر بلا تعليق أو بلا اهتمام يكون مسيئا الى هذا العمل ٠ اذن الاهتمام به ونقده وتقويمه والحفاوة به حفاوة فكرية أمر ايجابى ٠

أتعرض بعد ذلك الى العمل الفكرى نفسه وهو الكتاب التذكارى عن ابن رشد وأقول ان هناك المسكوت عنه وهناك أيضا المذكور صراحة ٠ من المسكوت عنه ولم يقل أبدا فيما أظن هو ابن رشد الفقيه ٠ لقد حدثت عناية بابن رشد الطبيب وأظن أنه لم يكن فى الصف الأول من الأطباء فى العالم الاسلامى وحدثت عناية بابن رشد والتصوف مع أننى أظن أن الرجل يختلف مشربا ووجهة عن أمر التصوف ، ولكن لا بأس بهــذه العناية ٠ ولكن لم يهتم بابن رشد الفقيه وقد كان قاضى قضاة قرطبة ، بل كان القاضى الأول فى دولة الموحدين ٠ وألف كتابا عنوانه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » يحاول فيه أن يرقى فوق مستوى الفرعيات أو الأحكام الجزئية ويأخذ بمجامع الأمور فيتناول أسباب اختلاف الفقهاء ومدى

امكان الأخذ بالقواعد الكلية التى أدت الى هذا الاختلاف والتى يمكن أن تحكم هذا الاختلاف . وأظن أن مثل هذا الكتاب عمل فى غاية الأهمية ، ولكنىأظن أنه قد اغفل اغفالا تاما فى الكتاب التذكارى .

وهناك أبحاث عن ابن رشد ودولة الموحدين وأنه قد تبنى الفصل بين السلطتين الدينية والعقلية ، بل أظن أنه قيل ان دولة الموحـــدين نفسها قد تبنت هذا الفصل . وأنا أتساءل : من أين استمد ابن رشد سلطته كقاضى للقضاة ؟ اننى اتفق مع حامد طاهر فى أن ابن تومارت والفكر الموحد كان مضطربا ازاء قضـــية الفصـــل بين الجانب الدينى والجانب العقلى ، وان الصراع الداخلى فى فكر الموحدين انفســهم له دور فى الاضطرابات التى حدثت فى الدولة . وما حدث لابن رشد نفسه لم يكن مجرد صراع بين حزب الفقهاء وحزب الفلاسفة ، وانما كان عدم وضوح الرؤية لدى الموحدين .

ومما اغفل أيضا تناول الفكر السياسى عند ابن رشد وتناول ابن رشد لكتاب « الجمهورية » لأفلاطون . فهو فى هذا التلخيص يعطى للحاكم الفيلسوف الذى تصوره افلاطون صفات أمير المؤمنين . وقد ترجم هذا التلخيص للغة العبرية أما النص الأصلى بالعربية فمفقود . وهكـــذا يحتفى الغرب بهذا العمل اما نحن فنتكلم عن ظلم ابن رشد ونحن مازلنا نمارس شيئا من هذا الظلم .

هذا عن المسكوت عنه أما عن المصرح به وأخص به عقلانية ابن رشد فاريد القول بان التاويل الذى لدى المعتزلة والذى لدى متاخرى الاشاعرة انه نوع من الاعتراف بدور العقل فى فهم النصوص الدينية ولكن على نحو أكثر جراة من مدارس أخرى كلامية ، وان كان الاعتـــراف بدور العقل هو الطابع العام للفكر الاسلامى لا نستثنى منه الا فئة واحدة هى الحشوية . ولهذا فانى لا اتفق مع مراد وهبه فى تسويته بين الظاهـــر والرافضين للتاويل ، وبين الباطن والقابلين للتاويل لأن الذين يتحدث عنهم ابن رشد هم الحشوية الذين يلغون دور العقـــل تماما ، وأضيف اليهم الفكر الاسماعيلى الذى يهدم العقل بالعقل . وابن رشد فى هذا لا يختلف عن كثيرين يشاركونه نفس الموقف .

وهناك أيضا شيء نقرأه فى الكتاب التذكارى ولكن بصورة ضمنية هو نهاية الفكر الفلسفى بابن رشد . بل ان عاطف العراقى يحاول ان يقنعنا بأنه لا سبيل الى تجاوز ابن رشد ، وأن أفكار ابن رشد صالحة لكل زمان ومكان . كيف يكون هذا وقد صرح عاطف العراقى فى جلسة اليوم بأن ابن رشد بشر يخطىء ويصيب ، وأن له جملة آراء بعضها صحيح وبعضها خاطىء ؟ كيف اذن لا يكون هناك سبيل لتجاوز ابن رشد ، وان يكون محاولة نقده تطاول عليه ؟ وهنا أود التنويه بدور محمود قاسم فى ابراز العقلانية الخالصة لابن رشد ، وفى ابراز دور ابن رشد فى تخليص المشائية الاسلامية من كل شائبة للفيض والغنوص.

وأصل بعد ذلك الى بعض الأفكار المطروحة فى الكتاب التذكارى مثل فكرة الحقيقة المزدوجة . فهذه الفكرة لا توجد مطلقا صريحة عند ابن رشد . وكذلك فكرة قدم العالم . فالعالم ، عند ابن رشد ، حادث أزلى . حادث ولكن بفعل الهى . ان الله ذات وصفات وأفعال خارج الزمان وخارج التاريخ ، ولكن العالم حادث بفعل من هذه الأفعال القديمة .

فؤاد زكريا

أثار مراد وهبه قضية العلاقة بين الاضطهاد والتقدم فيما بين العالم الاسلامى وأوربا . يقول ان الاضطهاد الذى حدث فى أوربا كان فى اطار حضارى من التقدم بينما الاضطهاد الذى حدث لابن رشد كان فى اطار التخلف . وأنا أقول ان الاضطهاد هو الاضطهاد سواء حدث فى أوربا أو فى العالم الاسلامى . وليس من الصحيح أن الحصيلة عندنا صفر وعند أوربا التقدم . والاضطهاد لا يولد التقدم . والذى حدث هو أن التقدم فى أوربا تحقق بالرغم من هذا الاضطهاد بسبب ظهور قوى تمكنت من التغلب عليه .

وأثار حسن حنفى قضية عدم جواز استخدام ابن رشد فى حل مشاكل معاصرة لأن هذا اقلال من القيمة الفلسفية لهذا الفيلسوف . وأنا أقول ان مؤلفات حسن حنفى هى عبارة عن استخدام التراث من أجل

حل مشاكل معاصرة أو مواقف معاصرة ، أى اعادة قراءة للتراث فى ضوء المواقف المعاصرة ٠

وأنا اعتقد أننا فى حاجة دائمة الى اعادة قراءة التراث ٠ فمثلا هيدجر استعان بجملة واحدة من انكسمندريس وتعمقها فى احدى بحوثه٠ فهذا بحث معاصر بمعنى الكلمة على الرغم من أن انكسمندريس كان يحيا فى عصر ما قبل سقراط ٠

وأثار سعيد مراد قضية تعريف العقلانية وقال ان العقلانية هى رفض الواقع القائم واستشراف واقع قادم ٠ وأنا اختلف معه فى هذا التعريف ٠ فأنا من الممكن أن أرفض الواقع القائم واستشرف ما هو قادم بالشعر وبالفن وبأى شىء لا علاقة له مباشرة بالعقل ٠

وأثيرت قضية الأحكام التى أصدرها ابن رشد ورأيى ان كثيرا من هذه الأحكام تحمل على وجهين ٠ فمثلا عندما يقول الحكمة أخت الشريعة فهل يعنى دفع الحكمة الى مرتبة الدين أم دفاع عن الحكمة ضد الدين يريدون تاكيد الدين فقط ٠ الذى يفصل بين هذا التفسير وذاك هو الاطار الاجتماعى الذى كان يعيش فيه ابن رشد ٠ فعندما يقول ان الحكمة أخت الشريعة فهو يعنى أنه فى مجتمع الشريعة فيه مستقرة ويدافع عنها بقوة ، والحكمة هى التى تخشى على ذاتها ٠ فى هذه الحالة اذن ليس أمامنا سوى القول بأن ابن رشد يريد حماية الحكمة من خلال جعلها أختا للشريعة ٠ وكذلك الحال بالنسبة الى مشكلة المحدث الأزلى عند ابن رشد ٠ والسؤال : هل العالم محدث بالمعنى الأزلى ؟ هل هو قديم الحدوث ؟ عندما يتساءل الفيلسوف هكذا فلابد أن نسأل أنفسنا : فى أى سياق تاريخى واجتماعى استخدمه ؟ الجواب عن هذا السؤال هو الذى يقدم لنا التفسير القاطع ٠ واذا قيل هذا فى مجتمع علمى أوربى حديث فسنقول انه قول رجل متدين يريد التاكيد على فكرة الحدوث لأن العلم فى هذا المجتمع لا يعترف الا بقدم العالم ٠ ولكن عندما يقولها ابن رشد فى المجتمع الذى كان يعيش فيه والذى كانت فكرة القدم لديه من الممكن أن تضره أو تهلكه فنقول عندئذ أن استخدام كلمة قديم حديث نوع من الحيل اللفظية للتعبير عن فكرة القدم ذاتها ٠

حســـن حنفى

فيما يختص بقضية قدم العالم وحدوثه عند ابن رشد أقول ونحن بصدد طرح قضية العقلانية عنده بضرورة التفرقة بين الموضوع والمنهج . ليست القضية موضوع حدوث العالم أو قدمه ولكن القضية اعمال العقل فى هذا الموضوع . فابن رشد هنا متكلم جدلى يثبت للمتكلمين أن كل أدلتهم خاصة أدلة الأشاعرة أدلة ضعيفة متهافتة لا تقوى أمام النقـــد العقلى . ويثبت للغزالى أن كل الأدلة التى قال بها الفلاسفة لاثبات قدم العالم هى أدلة قوية ومؤيدة بأدلة قرآنية . اذن العقـــل قادر على أن يحاجج فى قضايا الدين بصرف النظر عن الموضوع . وهذه هى عقلانية ابن رشد المجادل والمتكلم الذى لا يخشى من النتائج ولكنه يريد أعمال العقل الى النهاية .

أما فيما يختص بقضية العدل فثمة بحثان : بحث عن الخير والشر، وبحث عن الحرية ولكن من وجهة نظر المعتزلة هذان البحثان يدخلان فى الأصل الثانى وهو الأصل العادل . ومن وجهة نظر الأشعرية هذان البحثان يدخلان فى قضية الأفعال . واذا أخذنا الأفعال عند الأشاعرة ، والعدل عند المعتزلة لوجدنا أن قضية الخير والشر ، وقضية خلق الأفعال، وقضية الحرية تأتى فى المقام الأول ، وبعدها تأتى قضية العقل . ومن ثم يتضح أن العقل والحرية كلاهما وجهان لقضية واحـــدة لأصل واحد وهو أصل العدل .

أما فيما يختص بمسألة الاحباط التى أثارتها زينب عفيفى فأنا لم أقل أن ليس ثمة اتجاهات عقلية فى الكتاب . ولكن نحن نتحـــدث عن ريادة المذهب العقلانى.ولهذا نحن نريد معرفة المذاهب العقلية الموجودة فى تاريخ الفكر الفلسفى وعقلانية ابن رشد التى تميز بها حتى نستطيع أن نعرف الى أى حد عقلانية ابن رشد عقلانية ريادية فى اطار المذاهب العقلانية المعروفة قبل عصر ابن رشد ، وفى عصر ابن رشد ، وبعد عصر ابن رشد .

وفيما يتعلق بابن رشد معاصرا فهناك فرق بين أن نتناول ابن رشد

معاصرا ، أى أن نعيـــد قراءته ونحن مهمومون بقضايا العصر وبين أن نخطب فى ابن رشد ، وفى عقلانية ابن رشد . هذا لا يفيد ، بل بالعكس فان من شأن الخطابة أن تزيد فينا النزعة الخطابية الانشائية التى هى نزعة مضادة للعقلانية .

ثم ان هناك فرقا بين أن استعمل ابن رشد معاصرا وبين أن استعمله ضد الخصوم السياسيين وهم الجماعات المتطرفة . أن الدولة متطرفة مثل هذه الجماعات . ان وضع الدين فى أجهزة الاعلام المصرية بما فيه حديث الساعة التاسعة الا خمس دقائق ليلا وحـــديث الجمعة ـ أقـول ان هذا تطرف مضاد . وبالتالى فاذا أردت أن استعمل ابن رشد معاصرا فينبغى أن استعمله ضد كل الاتجاهات اللارشدية اللاعقلانية فى المجتمع المصرى بما فى ذلك الاتجاهات داخل وخارج الدولة .

القضية الأخيرة هى أننى لا أحزن على الخلاف فى هذه الندوة بين أنصار الغزالى وابن تيمية من جهة وبين أنصار المعتزلة وابن رشد من جهة أخرى ، فهذا الخلاف ظاهرة صحية . هكذا عشنا وهكذا كنـا منذ القرنين الأول والثانى للهجرة حتى هذا القرن . هناك تياران فى الثقافة الاسلامية : تيار يرى أن العقل قادر على أن يصل الى كل شىء دون وسائط من الخارج . وهذا تيار له تقديره منذ المعتزلة حتى محمد عبده . وهناك تيار آخر يرى أن التيار الأول قد يكون خطرا . فاعمال العقل قد يؤدى الى التعددية والى تكاثر الأدلة كما أوضح ذلك حامـد طاهر فى بحثه « قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لـــدى ابن تومرت وابن رشد » فى شأن نقد ابن تومارت للعقلانية المستقلة . ولهذا لابد من العودة من وقت لآخر الى نوع من المعيارية اذا ما كانت الأدلة العقلية متكافئة . حدث ذلك عند أحمد بن حنبل فى القرن الثالث وحدث ذلك فى عصر الغزالى ، فقد خشى الغزالى على دولة نظام الملك . وفى ذلك الوقت لا صوت يعلو فوق صوت المعركة وان لم يصرح بذلك . اذن نحن فى حاجة الى ناقوس يذكرنا أن هناك شيئا آخر غير العقل . واخلص من ذلك الى أن التيارين أصيلان فى ثقافتنا والحوار بينهما صحى . ولكن المهم الا يكفر أحدنا الآخر .

محمود أمين العــالم

قيل عنى أننى من أنصــار ابن تيمية . والواقع أننى ذكــرت ابن تيمية ذكرا عابرا من أجل توضـيح أننا فى اطار ايديولوجيا دينية عامة نستطيع أن نجد نفس الفكرة تعالج بمنطقين مختلفين . فكل من ابن رشد وابن تيمية يأخذ بمبدأ العلية لكن بمنطقين مختلفين ، ومع ذلك فأنا لست من أنصار ابن تيمية .

فانا أعتقــد أنه من العلمية أن يكون الانســان من أنصــار اتجاه معين . ولكن علينا أن نأخذ التراث ككل ونقف منه موقفا عقلانيا نقديا . فانا أقدر ابن رشد ولا أنكر ابن تيمية الذى أختلف معه الى حدما لأن له قيمة كبرى فى التراث .

واسمحوا لى أن أكون من أنصاره جـزئيا . فابن تيمية له فتوى معينة قالها فى ظروف معينة هى ظروف التتار . ثم يأتى الارهابيون اليوم ويجعلونها قاعدة مأساوية لتبرير أفعالهم . واسمحوا لى أيضا أن أنقد ابن رشد . فهو العقلانى العظيم ومع ذلك يأخذ بالرؤى والأحلام . هل يدفعنى ذلك الى أن أنفى عقلانيته .

تبقى مسألة مفارقة ابن رشد عند مراد وهبه المرفوضة من قبــل فؤاد زكريا . ان مراد وهبه لم يقل ان الاضطهاد كان سببا فى التطور الفكرى فى أوربا ، وسببا فى انتكاس الفكر فى العالم العربى . بل هو يرى أن ثمة تطورا اجتماعيا اقتصاديا ، فى أوربا ، يتلخص فى تأسيس المجتمع الرأسمالى . وكانت ثمة معركة بين رجال الدين والمفكرين الجدد الذين أفادوا من فكر ابن رشد العقلانى .

أما العالم العربى فلم يكن عقلانيا فى زمن ابن رشد ولم تكن فيه حركة ناهضة ، ولهذا لم يستخدم العقل استخداما عميقا فى تنمية البيئة كما استخدم فى أوربا . ولهذا يمكن القول بأن التنوير وحده لا يجدى فلا تنوير حقيقى بدون تغيير اجتماعى .

يوسف زيدان

هناك تكرار فى الكثير من بحوث الكتاب بحيث اذا حذفنا ثلثه فلن يتأثر ٠ ثم ان توظيف ابن رشد لاحداث حركه تنويرية بدأ فى عام ١٩٠٣ على يد فرح انطون فى كتابه « ابن رشد وفلسفته » ولكنه فشل ٠ ثم ان ابن رشد طبيبا كان انتكاسة فى الطب العربى ٠ ذلك ان الطب كان قد تقدم عندما تحول من النظرية الى الممارسة على يد ابقراط ٠ ثم تجمد الطب على يد جالينوس الى ان أحياه العرب مرة آخرى على يد الرازى وابن سينا ٠ فاذا بابن رشد يعيد الطب الى الفلسفة ويغلق باب التقدم العلمى فى مجال الطب ٠

وفى النهاية أتساءل : هل من المناسب أن نقول بان كلا من الغزالى وابن تيمية ضال ؟ ونحن الآن فى حاجة الى الغزالى وابن تيمية كما اننا فى حاجة الى ابن رشد ٠

سعيد مراد

١ ـ ماذا نعنى بالعقلانية ؟ ان العقلانية تعنى نفى مستمر للواقع القائم واستشراف الواقع القادم ٠ وهذا ما فعله ابن رشد ٠ لقد ساد فى المغرب العربى ابان العصر الذى عاش فيه ابن رشد فكر الغزالى وفلسفته ومنهجه بالاضافة الى مذهب أهل السنة والجماعة ٠ وقد قام ابن رشد بمسح شامل لقضايا هذا الواقع وقدم نقدا لكل التيارات الفكرية السائدة حيث يقول فى كتابه « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » «واشهر هذه الطوائف فى زماننا هذا أربع : الطائفة التى تسمى اشعرية وهم الذين يرى أكثر الناس اليوم أنهم أهل السنة ، والتى تسمى المعتزلة ، والطائفة التى تسمى الباطنية ، والطائفة التى تسمى الحشوية » ٠ وقد انتقد هذه الطوائف وكان يستهدف صرف الناس عنها والدعوة الى تحرير الفلسفة والفكر من مناهج واقوال هذه الفرق ٠ وقد أشرت الى ذلك فى بحثى « ابن رشد بين حضارتين » فى الكتاب التذكارى ٠

٢ ـ عناصر الموقف العقلانى عند ابن رشد :

(أ) النزعة النقدية والاتجاه النقدى أولا للفرق كما سبق القول ثم للفلاسفة السابقين من أمثال الفارابى وابن سينا والمتصوفة ٠

(ب) تقديم البرهان والتعويل عليه ، ذلك أن البرهان يمثل طبيعة الفلسفة ونقد الأقوال الخطابية والجدلية ٠

(حـ) الاهتمام بعلم أصول الفقه ٠ وهناك اجماع على أن ابن رشد قد نبغ أول ما نبغ فى الفقه وعلوم الشريعة وقد قال فى « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ٠٠ « ما سكت عنه الشارع فلا حكم له ودليل العقل يشهد بثبوته » ٠

(د) قانون التأويل حيث يذهب الى أن التأويل الفلسفى للنصوص المقدسة ٠٠ هو الوحيد الذى يمكن الانسان من الوصـــول الى الحقائق العليا وهو لا يتفق مع التفســـير الحرفى ٠ والعقل الفلســفى هو الذى يبين ما هو تقليدى فى الدين ، ويبين أى العقائد يمكن تأويله ، وبأى وجه يكون هذا التأويل ٠

(هـ) التفاعل مع الحضارة الغربية والفلســـفة اليونانية خاصة أرسطو ٠ ولم يجد ابن رشد أى حرج وهو الأصولى الفقيه القاضى أن يذكر ضرورة الأخذ عن أرسطو وفهمه وهضمه ٠ هذه عناصر الموقف العقلانى عند ابن رشد ٠

وفيما يختص بنقد محمود أمين العالم بأن بحثى قـــد انتهى الى أحكام عامة أقول ان هذا صحيح ولكن هذه الأحكام كانت نتيجة لمقدمات تناولت المسائل الجزئية بالتفصيل ٠ ودليلنا على ذلك استعراض عناصر الحضارة العربية الاسلامية فى فكر ابن رشد مثل اللغة وعلوم أصـــول الدين وأصول الفقه ثم مسائل المنطق والعـــلم الالهى ونقـــد الفلاسفة السابقين عليه ٠

منى أبو زيد : مدرس بآداب طنطا

جاء فى كلمة سعيد مراد أن بعض أوجه النقـــد التى وجهت الى الابحاث اكتفت بقراءة عناوينها فجاء النقد أعرج ٠ وجاء يوسف زيدان

وأعطانا المثل الحى على فقدان القراءة أو فقدان المعرفة الحقيقية لما يحتوى عليه الكتاب التذكارى • وأظن ان أعمال يوسف زيدان فى الطب العربى ومع ذلك لم يستطع أن يحدد العلاقة بين الطب والفلسفة • ففى هذه العلاقة نجد الفيلسوف الطبيب أو الطبيب الفيلسوف او الفيلسوف والطبيب • فمثلا ابن رشد هو الطبيب الفيلسوف وأبو بكر الرازى هو ايضا الطبيب الفيلسوف ، وابن سينا هو الطبيب والفيلسوف •

قال يوسف زيدان ان ابن رشد كان نكسة فى الطب • والحقيقة أنه عندما تعرض ابن رشد للطب فقد تعرض له كعلم من العلوم الداخلة فى الفلسفة باعتبار أن الفلسفة أم العلوم ، أى أن ابن رشد تعرض للطب من وجهة نظر الفيلسوف الذى يبحث فى أحد العلوم الطبيعية فوضع فى كتاب « الكليات فى الطب » النظريات العامة فى الطب والتى تتفق مع النظريات العامة فى علم الطبيعة عنده • وأحال البحث فى المسائل الجزئية الى معاصريه مثل ابن زهر •

زينب الخضيرى

أعتقد أن الميزة الوحيدة لتاريخ الفكر هى مساعدتنا على الوقوف على ما تبقى لنا لكى نفعله ، وعلى النقص الذى لابد أن نسده • وكان من المفروض التعامل مع ابن رشد من هذه الزاوية ولكن حدث عكس ذلك • فمن دروس ابن رشد التى لم يصرح بها ولكنها متضمنة فى جميع أعماله محاولته الدائمة للفصل والتمييز من أجل حسن الادراك • أما نحن فقد فعلنا عكس ذلك • فبدلا من تقييم الكتاب رحنا ندافع عن الغزالى وابن تيميه ونبرر أفكارهما كأنهما هما الاسلام ونحن الكفار ، ونهاجم أية محاولة لتصحيح الآراء • وهنا أتساءل : هل الحوار الفلسفى ينتج عنه تعصب ؟ ان مراد وهبه له رأى فى الحوار الدينى وهو أنه يفرز التعصب • وانا اقتنعت بهذا الرأى • واذا كان ذلك كذلك فالحوار الفلسفى أيضا لا يفرز الا التعصب • وهذا هو مانلاحظه فى هذه الندوة• لماذا لا نختلف من غير اتهام لأى واحد منا ؟ ولماذا لا نقبل الخروج عن المألوف ؟

لقد تعلمت من والدى ومن صـــديقه أبو ريده الذى أدت صداقته بوالدى الى علاقة روحية قوية بينى وبينه ـ أقول انهما كانا يدفعانى الى الاختلاف معهما ، وكان هذا الاختلاف يثرى تفكيـــرى ، ولم يكن يقلل من شـأنهما ٠

عبد المعطى محمد بيومى

بادىء ذى بدء لم يتضمن الكتاب تحديد المقصود بالاتجاه العقلانى فى كل ما ورد فى أبحاث الكتاب العديدة ٠ اللهم الا اشارات موحيـة بهذا الاتجاه فى بحث عاطف العراقى بعنوان « فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعاصر » ٠

فهل يراد بالاتجـــاه العقلى فى الكتاب التذكارى بأنه مذهب القائلين بكفاية العقل دون الوحى ؟ وهل كان ابن رشد يذهب هـــذا المذهب أو يتجه هذا الاتجاه العقلى وهو أولية العقل والاعتداد به ضد الدين وعدم قبول المعانى الدينية الا اذا كانت مطابقة للعقل ؟

ان أبحاث الكتاب ترفض هذا وتؤكد نقيضه من أن ابن رشد لم يكن يعلى من شأن العقل أو الفلسفة على الدين ولم يرد عنه أنه دعا الى كفاية العقل ضد الوحى ٠

وأهم الأبحاث التى عالجت علاقة العقل أو الفلسفة بالدين بصراحة هو بحث محمود زقزوق بعنوان « الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد » ، وبحث عبد الفتاح أحمـــد فؤاد بعنوان « الفلســـفة الرشـــدية مدخل الى الثقافة الاسلامية » وبحث حامد طاهر بعنـــوان « قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد » ٠ وبحث زينب الخضيرى بعنوان « مشروع ابن رشد الاسلامى والغرب المسيحى » ٠

ومع أننا نوافق محمود زقزوق فى قوله ان ابن رشـــد لم يحاول اعلاء الفلسفة على الدين فاننا نخالفه فى أن ابن رشد لم يحاول العكس بل حاول اعلاء الدين على الفلسفة ٠

كما نوافقه فى أن ابن رشد لم يجعل الفلسفة وصية على الشرع او ان لها سلطانا أعلى من سلطان الدين ٠

اما أنه لم يصرح فى هذه العبارة بأن سلطان الدين عند ابن رشد اعلى من سلطان العقل كما صرح فى العبارة السابقة بان ابن رشد لم يحاول اعلاء الفلسفة على الدين أو العكس فاننا نختلف معه ونرى ان الدليل الذى أورده محمود زقزوق نفســـه من نص ابن رشد يعلى من سلطان الدين على العقل والا فما معنى ان يقول ابن رشد « ان الفلسفة تفحص عن كل ما جاء فى الشرع ، فان أدركته استوى الادراكان وكان دلك أتم فى المعرفة ، وان لم تدركه أعلمت بقصـــور العقل الانسانى عنه ، وأن يدركه الشرع فقط » ٠

أليس ذلك اعترافا صريحا بان الشرع يدرك أحيانا ما يعجز عنه العقل وان الفلسفة حينئذ تعلم بقصور العقل الانسانى ٠

اما حامد طاهر فيقول :

« اما ابن رشد فهو يرى ان للعقل الانسانى مستويات متدرجة ، وان أعلى هذه المستويات هى التى تتوافق مع ما جاءت به الشريعة ، لذلك فلا ضير على الاطلاق من استخدام منهج القياس البرهانى للتدليل على صحة الشريعة » ٠

ثم يصرح حامد طاهر قائلا « اننا نظلم ابن رشـــد اذا قلنا : ان اعلاءه من قيمة الأدلة العقلية (البرهانية) يقلل من شأن الشريعة فى شىء ٠ بل على العكس ان ما يسعى اليه ابن رشد واضح كل الضوح وهو أن يثبت للناس أن الشريعة الاسلامية هى فى المقام الأول شريعة العقل ، وأنه كلما أحسن الانسان استخدام عقله (باتباع الطرق المنطقية المحددة) تستوعب على نحو أكثر اكتمالا مبادىء هذه الشريعة وتمثل غاياتها ٠ أليس هو القائل « ان الموجودات انما تدل على الصانع (الله تعالى) بمعرفة صنعتها ، وانه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعـــرفة بالصانع أتم »٠

ومع غرابة النتيجة التى انتهت اليها زينب الخضيرى فى بحثها من أن ابن رشد كان يسعى للفصل بين نسق الفلسفة ونسق الدين اذ تقول: « واذا كان بعض الباحثين يرى أن ابن رشد شأنه شأن السابقين عليه كان يسعى للتوفيق بين الفلسفة والدين وأن طرافته تكمن فى شكل معالجة للتوفيق فحسب فاننى أرى على العكس أن ابن رشد كان يسعى للفصل بين هذين النسقين ٠

ان الاتفاق بين الفلسفة والعقيدة أمر طبيعى لاشك فيه ٠ فهذان النسقان لا يحتاجان للتوفيق بينهما ، بل ان محاولات التوفيق تؤدى الى البلبلة والتشويش ولذا فالصلاح كله فى ترك هذه المحاولة برمتها والعمل على العكس على الفصل بينهما ٠ أراد ابن رشد أن يقفل باب النقاش فى هذه المشكلة وان يقول الكلمة الأخيرة فيها ، ولذا اضطر لمعالجتها للمرة الأخيرة لا لاثرائها وانما لمحوها ، فاذا كانت مصلحة المجتمع فى الماضى تقتضى التوفيق فقد أصبحت فى زمن ابن رشد ـ وهو ما أدركه بوضوح ـ تقتضى الفصل بين الفلسفة والدين » ٠

الا أن زينب الخضيرى مع ذلك لم تذهب الى أن عقلانية ابن رشد رغم الفصل بين الفلسفة والدين ـ فى رأيها ـ لم يقصد منها الاستغناء بالعقل عن الدين بل نرى أن سلطان الدين كان أعلى وان فلسفة ابن رشد كانت لاعلاء شأن العقل ليقترب (ولنلحظ قولها يقترب) من مرتبة النقل٠ وان دولة الموحدين ارادت فى شخص خليفتها أن تجعل للفلسفة مكانة فى الحياة الفكرية الاسلامية بعد أن ظلت أشبه بالغريب المستورد » ٠

فاذا تركنا هذه الابحاث التى صرحت بأن اتجاه ابن رشد لم يكن يعنى الاكتفاء بالعقل عن الدين ورجعنا الى بقية أبحاث الكتاب نجد أن الروح الرشدية السارية فى الكتاب تؤكد الارتباط بين الدين والفلسفة مع اعتبار ان الدين هو المصدر المتعالى الذى يجهد ابن رشد كل الجهد فى فلسفته لابراز أن العقل لا يتعارض مع هذا المصدر المتعالى ٠

هذا باستثناء الاشارات التى وردت فى تصدير الكتاب من قبـــل

عاطف العراقى وفى بحثه الذى ضمنه الكتاب بعنوان « فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعاصر » . فهذه الاشارات تومىء بوضوح وقوة الى أن المراد بالاتجاه العقلى عند ابن رشد هو نفس المعنى الذى ورد عن الاتجاه العقلى فى المعاجم اللغوية والفلسفية من أنه كفاية العقل دون الوحى . فهو يقول فى التصديران « دور العقل الذى دعانا ابن رشد الى التمسك به وجعله المعيار والدليل والحكم » .

ويقول : انه رغم المخانة الكبرى والمتميزة للعقل فى فلسفة ابن رشد فلم يرد نص واحد عنه يفيد انه يقصد ان يكون العقل هو المعيار والدليل والحكم بالمعنى الفلسفى لهذه المصطلحات . كما لم ترد عنه نظرية تفيد اعتداده بالعقل دون الدين ، وربما يفهــم بعض الباحثين من قانون التاويل عند ابن رشد انه يجعل العقل هو المرجع النهائى حتى لما يشكل منه من الشرع فهو يؤول النصوص الدينية لتتفق مع العقل .

ولكن التأمل فى نصوص ابن رشد عن التاويل عنــده يكشف عن الحقائق الآتية :

ان سلطة العقل فى التاويل ليست على اطلاقها أو بعبارة أخرى فانه لا يدعو كما يقول عاطف العراقى الى اطلاق العنان للعقل بل انه يحظر التأويل ويجعله مكفرا أو مؤديا الى بدعة عندما يكون فى أصول الدين المجمع عليها فليس كل ظاهر يجب تأويله بل هناك ظواهر يكون تأويلها كفرا وظواهر يكون تأويلها بدعة وهناك ظواهر يجب تأويلها وجوبيا .

فالظواهر التى يكفر مؤولها هى ظواهر النصوص التى تتحدث عن السعادة والشقاء فى الحياة الآخرة ، فاذا أولها مؤول وزعم أن حقيقتها غير مقصودة وان المقصود بها أن يسلم الناس بعضــهم من بعض وأنه لا وجود للانسان الا الوجود المحسوس فان ذلك التأويل يخرج صاحبه من الايمان .

فاذا كان التأويل فى أصول الدين المجمع عليها كان التاويل كفرا واذا كان فى غير الأصول والاركان المجمع عليها كان بدعة .

أما فى غير ذلك من الظواهر الموهمة لتشبيه الله فان على أهل البرهان تأويله .

يقول : « هذا النحو من الظاهر ان كان فى الأصول فالمتناول له كافر . مثل من يعتقد أنه لا سعادة أخروية ، وأنه لا غـــاية للانســـان الا وجوده المحسوس فقط .

واذا تقرر هذا فقد ظهر لك فى قولنا ان ها هنا ظاهرا فى الشرع لا يجوز تأويله فان كان تأويله فى المبادىء فهو كفر وان كان فيما بعد المبادىء فهو بدعة .

فالحرية اذن متاحة للعقل بأوسع سبيل ولكن فى حدود أصول الدين والمبادىء المجمع عليها كما يقول ابن رشد ، فليس يدعونا كما يقول عاطف العراقى « الى أن نلجأ الى التأويل باســـتمرار ، تأويل الآيات القرآنية وعدم الوقوف عند ظاهر النص أو الآية » .

فالمعيار اذن والدليل والحكم هو الشرع

ان هناك دليلا أشد وضوحا نأخذه من نصوص ابن رشد نفسها على أن المعيار فى النهاية هو الشرع وذلك من ضوابط التأويل الذى يدعـــو اليه ، فهذا التأويل يقوم على دعامتين :

الدعامة الأولى : أن يكون التأويل على قانون التأويل العربى من غير أن يخل بقواعد اللغة العربية .

يقول : « ومعنى التأويل هو اخـــــراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية الى الدلالة المجازية من غير ان يخل فى ذلك بعادة لسان العرب فى التجوز من تسمية الشىء بشبيهه ، أو سببه ، أو لاحقه ، أو مقارنة أو غير ذلك من الأشياء التى عددت فى تعريف أصناف الكلام المجازى.واذا كان الفقيه يفعل هذا فى كثير من الاحكام الشرعية فكم بالحرى أن يفعل ذلك صاحب العلم بالبرهان .

ويرى ابن رشد أنه ما من نص يخالف ظاهر العقـــل الا ويقبل التأويل على أساس قواعد اللغة العربية ومجازاتها وأصولبلاغتها وبيانها.

الدعامة الثانية : أن يؤخذ الشرع ككل وأن تتصفح سائر أجـــزائه ولا ينظر الى نص واحد فى موضوع معين بل ينظر الى الشرع بجملته. وهذا منطقى ، لأن نصا واحدا معزولا عن سياقه وما ورد فى موضوعه من نصوص أخرى قد لا يؤدى الى تأويل صحيح .

يقول : « انه ما من منطوق به فى الشرع مخالف بظاهره لما أدى اليه البرهان ، الا اذا اعتبر الشرع ، وتصفحت سائر أجزائه وجد فى ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل ، أو يقارب أن يشهد » .

فالمرجع اذن فى التأويل هو الشرع بكامله ، والذى يصرح للعقل بالتأويل فى نص ما يخالف الشرع بظاهره انما هى نصوص شرعية أخرى مع قاعدة لغوية يسيغ فهمها وتطبيقها تأويل النص . والشرع نفسه هو الذى دعا الى النظر العقلى وأوجب اقامة البرهان .

ومن الطريف والغريب أن عاطف العراقى يسجل فى بحثه هـــذه النتيجة نفسها مستخلصا اياها من فصل المقال لابن رشد حين يقول « فاذا رجعنا ـ على سبيل المثال ـ الى كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » فاننا نجده حـــريصا على أن يبين لنا وجوب استعمال القياس العقلى ، أو العقلى والشرعى معا ، اذ من الواجب فيما يقول ابن رشد أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى . وهذا النوع من النظر الذى دعا اليه الشرع وحث عليه هو أتم أنواع النظـــر بأنواع القياس وهو المسمى برهانا » .

فليس النظر العقلى اذن حاكما على الدين أو بديلا له . ولا يرى ابن رشد بطبيعة الحال الاكتفاء بالنظر العقلى عن الدين ومن ثم فهو ليس عقلانيا بهذا المعنى .

بل ان ابن رشد نص صراحة فى آخـر كتابه « تهافت التهافت »

على ان العقل لا يستغنى عن الوحى ، وانه ان وجدت شريعة بالعقل فقط دون الوحى للزم أن تكون أنقص من الشريعة التى تقـــوم على أساس العقل والوحى ٠

وقد وصل الأمر بابن رشد الى اعتداده بالدين الى حد موافقة الامام الغزالى نفسه على النقطة الأساسية فى فكر الامام الغزالى وهى أن العقل قد يعجز أحيانا عن ادراك بعض الأمور وان ما عجز عنه العقل فلابد أن نرجع فيه الى الشرع وذلك شئ متوقع من فيلسوف مسلم يعمل بالقضاء الشرعى الذى يزن الأمور ويحكم فيها بمعيار الشرع ٠

قال : « قلت قوله (يعنى الامام الغزالى) ان كل ما قصرت عن ادراكه العقول الانسانية ، فواجب أن نرجع فيه الى الشرع الحق ، وذلك أن العلم المتلقى من قبل الوحى انما جاء متمما لعلوم العقل ، أعنى أن كل ما عجز عنه العقل افاده الله تعالى للانسان من قبل الوحى ٠

هذا عن نصوص ابن رشد ، ومنهجه فى التأويل ٠

فاذا انتقلنا الى نظرياته الفلسفية فانه بالاستقراء لهـــذه النظريات لا نجد نظرية واحدة نحى فيها منحى عقليـــا متعاليـــا على الدين أو مخالفا له بل جاءت نظرياته جميعها متفقة فى النهاية مع الاسلام ٠

وهنا نقف عند نظريتين ربما يفهم البعض أنهما تخالفان الاسلام ولكنهما فى الحقيقة ، وعند تأمل نصوص ابن رشد نفسها فيهما ، نجد انهما لا تخالفان وهاتان النظريتان هما : -

- نظريته فى قدم العالم أو حدوثه ٠
- نظريته فى النفس ٠

أما نظريته فى قدم العالم أو حدوثه فتقوم على عدة أفكار أساسية:

● ان كلا من قول المتكلمين بحدوث العالم وقـــول الفلاسفة المتقدمين بقدمه ليس على ظاهر الشرع لأن الشرع لم ينص صراحة على القدم أو الحدوث اذ أن هذه المسألة من المسائل العويصة التى لا يستطيع

العقل الوصول فيها الى برهان يقينى ، ومن ثم فالآراء بالقدم أو الحدوث ليست تتباعد حتى يكفر بعضها بعضا ٠

● ان القائلين بالقـــدم والحـــدوث متفقون على أن أصناف الموجودات ثلاثة ٠

ـــ موجود وجد من شىء غيره ومن شىء أعنى من سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم عليه أعنى على وجوده وقد اتفق الجميع على تسميته محدثا ٠

ـــ موجود من شىء ولا من شىء ولا تقدمه زمان وقد اتفق الجميع على تسميته قديما وهو مدرك بالبرهان ٠

ـــ موجود من فاعل لكنه ليس موجودا من شىء ولا تقدم زمان ٠ وهذا هو العالم ٠

وقد اتفق الجميع على وجود هذه الصفات الثلاثة للعالم ولكن اختلفوا فى التسمية فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديما ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثا ٠ وهو فى الحقيقة ـ كما يقول ابن رشد بالنص ـ « ليس محدثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا فان المحدث الحقيقى فاسد ضرورة والقدم الحقيقى ليس له علة ، ومنهم من سماه محدثا أزليا وهو أفلاطون وشيعته »٠

والغريب اللافت للنظر مع هذه النصوص الصريحة التى ينص فيها ابن رشد على أن العالم ليس قديما حقيفيا وليس محدثا حقيقيا وانما هو محدث بالضرورة ، ان يقول عاطف العراقى « ومن المؤسف له ان يثبت له (يقصد ابن رشد) نفر من الدارسين القول بحدوث العالم رغم انه يقول صراحة بقدم العالم ٠ اما أن تنسب اليه آراء لم يقل بها ولا يسمح بها نص من النصوص التى قال بها سواء فى كتبه المؤلفة أو الشارحة فان هذا يعد فيما يرى نوعا من التزوير ، وأخطر أنواع التزوير هو التزوير الفكرى ٠ ولكن ماذا نفعل نحن العرب حين نجد لدينا محاكم للغش او التزوير التجارى ولا نجد محاكم للغش الفكرى » ٠

واذا كنا بصدد التحقيق العلمى والتحليل الفلسفى فاننا نسأل :

— أين قال ابن رشد صراحة بقدم العالم وقد أوردنا نصوصه السابقة ؟

— وأين التزوير ؟

أما عن نظرية ابن رشد فى خلود النفس فقد فهم البعض فكرة ابن رشد فى وحدة النفس الانسانية أو « النفس الكلية » بمعنى أن النفوس الانسانية واحدة بالصورة كثيرة بالعدد وان النفس تتحد بالنفس الكلية فى المعاد وهذا ما لاسبيل الى افشائه ٠ وهذا فهم ربما يبدو مخالفا للاسلام وبذلك يكون ابن رشد على هذا الفهم متعاليا على الشريعة مخالفا لها

ولكننا اذا دققنا النظر فى نصوص ابن رشد ندرك ٠

- ان ابن رشد يقرر خلود النفس ٠
- ان وحدة النفس من جهة الصورة ولكنها كثيرة من جهة المادة٠

وهو هنا يشرح معنى عودة النفس الكلية الىوحدتها عند فناء البدن وينبه أنه لا سبيل الى افشاء هذا للعامة فيقول : ـ

« ان كانت النفس ليست تهلك اذا هلك البدن ، أو كان فيها شىء بهذه الصفة فواجب اذا فارقت الأبدان أن تكون واحدة بالعدد وهذا العلم لا سبيل الى افشائه فى هذا الموضع فنفس زيد وعمرو هى واحدة من جهة ، كثيرة من جهة ، كأنك قلت : واحدة من جهة الصورة ، كثيرة من جهة المادة الحاملة لها » ٠

وقد قطع ابن رشد الوهم الذى ربما يعرض للبعض من اتحاد النفس الكلية بعد الموت فان هذا لا يمنع وقوع البعث ٠

يقول « ولما كان الوحى قد أنذر فى الشرائع كلها بأن النفس باقية وقامت البراهين عند العلماء على ذلك وكانت النفس يلحقها بعد الموت أن تتعرى من الشهوات الجسمية ، فان كانت زكية تضاعف زكاؤها تبدبها من الشهوات الجسمية ، وان كانت خبيثة زادتها المفارقة خبثا لأنها تتأذى

بالرذائل التى اكتسبت ، وتشتد حسرتها على ما فاتها من التزكية عند مفارقتها البدن ، لأنها ليست يمكنها الاكتساب الا مع هذا البدن . فاتحاد النفس الكلية بعد الموت اذن ، انما هو على شكل لا يمنع تلذذ النفس الزكية وتألم النفس الخبيثة وهو على نفس الشكل الواقع الآن . فهو يرى أن نفوس الأفراد وان كانت مكثرة بالأجسام فهى واحدة بالصورة ، ومع ذلك فنفوس بعض الأفراد زكية ونفوس بعضهم خبيثة ، ونفوس البعض تشعر بالسعادة ونفوس الآخرين تشعر بالشقاء ، فامر السعادة والشقاء هناك كما هو هنا .

فوحدة النفس البشرية هنا فى الدنيا اذا لم يكن تمنع الاختلاف فى السعادة والشقاوة فان وحدتها بعد الموت لا تمنع اختلافها فى الشعور بالثواب أو العذاب .

أما ما يقوله عاطف العراقى من أن ابن رشد تصور البعث على نحو كلى وأنه لم يعتقد بمعاد جسمانى فليس فى نصوص ابن رشد ما يؤيد ذلك ، بل على العكس فان نصوص الأصل تقطع بان اتحاد النفس أو عودة النفس الكلية لا يمنع احساس كل انسان بما تستحقه من الثواب أو العقاب . وليس معنى وحدة النفس أن نفسا كلية واحدة هى التى ستبعث كما شرح هو فى النص السابق الذى أوردناه عنه .

اما ما يقوله عاطف العراقى من أن ابن رشد « لم يعتقد بمعاد جسمانى . «ولو كان ابن رشد قد أيد الذهاب الى الاعتقاد بمعاد جسمانى أكانت فكرته عن النفس الكلية قد هدمت تماما . فهو يتخطى هذا المعاد الجسمانى الى التصريح بنحو من المعاد الروحانى فحسب » .

فهذا قول غريب يتناقض مع بحث عاطف العراقى نفسه عن ابن رشد ومع نصوص ابن رشد ذاتها التى استخدمها فى هذا البحث .

والغريب أن عاطف العراقى يستدل على رأيه بما يناقضه .

يقول : « ودليل هذا اعتقاده ان الأرواح ستعاد فى الدار الأخرى الى أجسام مثل أجسامها لا لهذه الأجسام التى عدمت » .

فاذا كانت الأرواح ستعاد الى أجسام ، فكيف يكون المعاد روحانيا فقط ؟ انه حينئذ نوع من المعاد الجسمانى .

زينب عفيفى : أستاذ مساعد بآداب المنوفية

أود التنويه بأن عاطف العراقى قد تبنى منهجية جديدة فى اعداد الكتاب التذكارى . فهو لم يفرض على أصحاب البحوث فكرا معينا ، ولم يتدخل فى توجيه أى بحثمن البحوث . ولهذا يشعر قارىء الكتاب بوجود اختلاف فى وجهات النظر بين الباحثين .

فاذا نظرتم مثلا الى بحثى وبحث ميرفت بالى ستجدون اختلافا فى الرأى حول قضية الخير والشر . وهذا اثراء للفكر وليس تكرارا كما يتصور حسن حنفى ، بل ان حسن حنفى أعطانا جرعة كبيرة من الاحباط . وكنت أود أن يقف مع الأجيال الصاعدة لا أن يقف ضدها والنقد الموضوعى مطلوب والا فان الضحية فى النهاية لن يكون سوى البحث الفلسفى . فمثلا قضية العقلانية التى يقول عنها حسن حنفى انها ليست واضحة فى الكتاب التذكارى ، ليست واضحة فى معناها وفى شروطها وفى أسسها. وردى على ذلك أن معظم فلاسفة الاسلام ان لم يكن كلهم كانوا يبدأون بتحديد معانىالعقل وميزانالعدلوالقسطاسالمستقيم. وكتبهم كلها منهجية منطقية عقلانية.اذن أنا لست فى حاجة الى بيان ماهية العقلانية وانما أنا انظر الىالمعيار الابستمولوجى لكل فيلسوفلكى أعرف عما اذا كان قد استخدم العقل أم أنه قد استخدم معرفة اشراقية عرفانية . هذه هى القضية . ثم اننى فى حاجة الى بيان مدى مطابقة عقلانية ابن رشد للعصر الذى نعيش فيه . ولهذا حاول كل باحث فى الكتاب التذكارى أن يربط ابن رشد بهذا العصر . فنحن عندما نكتب عن ابن رشد لا نكتب عنه بدعوى ان التاريخ انتهى عنده أو أن البشرية لم تحظ بمثله ، ولكن نكتب عنه لنبين تأثيره فى عصره وفى العصور التالية . ومعيارنا فى ذلك هو مدى استخدام العقلانية . كيف نستخدم الأساليب التى استخدمها ابن رشد من قرون مضت لكى نستطيع أن نستخدمها الآن .

فيصـل عون

مقال عاطف العراقى تحت عنوان « ابن رشـد وفـكرنا العربى المعاصر » تمجيد للعقل بوجه عام ولا أحد يختلف معه مع تحفظنا على الأسلوب الانشائى - رغم أن الحديث فى مجال الفلسفة - الذى مجد به الاتجاه العقلى . غير أنه يؤخذ على هذا المقال أن صاحبه لم يربط بين هذا الاتجاه العقلى وبين فكرنا المعاصر . وأحسب أن الربط يعنى تطبيق هذا الاتجاه الرشدى وتوظيفه على مشكلة أو اشكالية من الاشكاليات التى نعانى منها . لقد تحدث عن ضرورة الأخذ بالاتجاه العقلى لكنه لم يوضح لنا كيف يمكن استخدام هذا الاتجاه وتطبيقه .

وثمة سمة مشتركة ، فيما يتعلق بمـا كتبه عاطف العراقى ومراد وهبه وهو اغفالهما معا الاتجاه الدينى عند ابن رشد . وكان من الواجب معالجة الاتجاه العقلى عند ابن رشد جنبا الى جنب مع اتجاهه الدينى أيا كانت رؤية ابن رشد للدين . اذ لا يحق لنا الآن أن نقسم فلسـفة ابن رشد وان نجزئها ونختار منها ما نشاء ونقول هذه هى « كل » فلسفة ابن رشد . ان فلسفة ابن رشد كل متكامل ، فأى عرض لفلسفة الرجل (العقلية) مع اسقاط الجانب الدينى أو ان شئت البعد الميتافيزيقى ، من أجل توظيفها لأهداف معينة خطأ تاريخى .

على كل حال فان الاشكالية الأخرى والهامة ، وهى الحديث عن الجانب العقلانى عند ابن رشد والسعى الى « ضرب » كل الاتجاهات الاسلامية الأخرى من خلال هذا الفهم الخاطىء والمغرض لابن رشـد وللمتكلمين والفقهاء والصوفية فامر يحتاج الى وقفة هادئة ومتأنية .

يقول مراد وهبه « ان مفارقة ابن رشد تكمن فى أنه كان ممهدا للتنوير فى أوربا فى حين أنه كان موضع اضطهاد من أمته .. » وهنا نتساءل : هل كان ابن رشد هو الوحيد المضطهد فى عالمه الاسـلامى ؟ ألا يوجد طابور طـويل من الصـوفية والفقهاء والمتكلمين والسياسيين اضطهدوا ليس فقط فى عالمنا الاسلامى ولكن فى كل الديانات والحضارات

الأخرى ؟ هل اضطهاد بعض الصوفية كان بسبب نزعتهم التنويرية ؟ وهل اضطهاد الخوارج أيضا كان كذلك ؟ نحسب أن اضطهاد المفكرين بوجه عام أمر طبيعى لأنهم يسعون الى تغيير الواقع وهو ما يمكن أن يتعارض مع مصالح فئات كثيرة . لذلك فان الربط بين الاضطهاد وبين «التنوير» ربط غير منطقى لأنه غير عقلى .

ونضيف الى ذلك: ان ابن رشد،بوجه خاص،لم يضطهد فقط فى أمته كما قال مراد وهبه ولكنه اضطهد أيضا وبصورة قوية فى العالم المسيحى على يد كثير من الفلاسفة على رأسهم توما الأكوينى (الذى كان يطلق على ابن رشد « المفسد الأكبر » بدلا من الشارح الأكبر) والبرت الكبير ، وريمون لول .

ثم يرى مراد وهبه أن ابن رشد يقول بالحقيقة المزدوجة فى كتابه « فصل المقال » . وأحسب أن مقالة حمدى زقزوق « الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية » بها رد كاف على هذا الزعم . وأضيف الى ذلك أن ثمة فرقا هائلا بين القول بازدواج الحقيقة بين الفلسفة والدين وبين القول : ان الحقيقة واحدة لكن النسق الفلسفى (ومن ثم الرؤية الفلسفية للحقيقة) يختلف عن النسق الدينى (ومن ثم الرؤية الدينية للحقيقة) . وهذا الرأى الأخير هو ما نراه وهو أيضا ما قاله ابن رشد فى عبارات لا تنقصها الدقة والوضوح « ان الحكمة صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة » .

ويعجب المرء حينما يطالع ماكتبه مراد وهبه عن عرض رأى ابن رشد فيما يتعلق بالتأويل بأن كل من سبق ابن رشد من المسلمين يدخل فى علاقة عضوية مع التكفير على حد تعبيره ، وكيف أنه بسبب التأويل قامت صراعات عقائدية حول أصول الدين فوضعت كل فرقة ـ والكلام لمراد وهبه ـ أصولا وادعت أنها هى الأصول التى جاء بها الرسول .

وهنا نوضح ونصحح مايلى :

ان الرسول لم يات باصول ولكن الأصول جاءت الى الرســول عن طريق الوحى •

ثم انه ليس صحيحا ان كل فرقة وضعت أصولا وكان هذه الفرق لا يربطها رابط أو أنها لم تنطلق من الايمان بنص واحد • انه لا توجد فرقة كلامية واحدة وضعت اصلا أو اصولا • فالمعتزلة أو غيرها من فرق لم تضع التوحيد أصلا ولا العدل الالهى ولا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر • ان الصحيح هو أن الفرق الكلامية قد اختلفت فيما بينها فى فهم هذه الأصول التى آمنت بها عن طريق الوحى •

اما عن التاويل فان ابن رشد قــــد افاد كل الافادة من الغــزالى والمعتزلة وغيرهم • ومن يطالع شروط التاويل عند ابن رشد وعند من سبقه يجد انه كان أحد طلاب هذه المدارس (يراجع فى هذا أيضا مقال على المغربى : التاويل بين الأشعرية وأبن رشد) •

ومما يلفت النظر ما نطالعه فى مقال مراد وهبه من أن الغزالى قد كفر الفلاسفة بسبب تاثرهم بالفلسفة اليونانية وهذا قول شائع يحتاج الى شىء من المراجعة • لأن الغزالى من حيث المبدأ لم يكفر الفلاسفة بوجه عام لأنه لم يرفض الفلسفة من حيث هى فلسفة • واذا كان قد كفر بعض الفلاسفة فانه قد كفر هذا البعض لا بسبب تاثره بالفلسفة اليونانية ، لأن الغزالى يدرك بوعيه أن هناك فئات أخرى قد تاثرت بالفلسفة اليونانية كالصوفية والفقهاء والمتكلمين بل والغزالى نفسه • فليس صحيحا أن كل من تاثر بالفلسفة اليونانية كافر كما ذكر مراد وهبه على لسان حـــال الغزالى • لقد كفر الغزالى الفلاسفة الذين أنكروا بعض أصول العقيدة • أى أن التكفير هنا لا يرجع الى الفئة أو الى الشخص كشخص ولكنـــه منصب فى المقام الأول على الرأى •

ثم يضيف مراد وهبه الى ما سبق أن الغزالى يكون بذلك عـــدوا للعقل • وكان العقل ملك للفلاسفة اليونانيين ومن سار فى فلكهم دون غيرهم ، وهذا أبعد ما يكون عن الصواب فلنقرأ رأى الغزالى بعباراته

كما وردت فى المنقذ « ينبغى أن لا نرفض ما فى الفلسفة من حق وعلينا أن نميز بين ما عند الفلاسفة من حق وبين ما عندها من باطل بحيث نأخذ الحق ونترك الباطل » والغزالى ينصحنا بأن لا نترك رأيا صحيحا لمجرد أن القائل به قال برأى آخر باطل لأن المعيار عنده معرفة الحق فى نفسه لا معرفة الحق بسبب من يقول به . لأننا لو فتحنا هذا الباب لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق ولزمنا أن نهجر جملة أيات من القرآن وأخبار الرسول وحكايات السلف وكلمات الحكماء والصوفية .

ان من الخطأ أن يقال : ان ابن رشد ـ على عكس الغزالى ـ يرى آن النظر فى كتب القدماء واجب بالشرع ، وأن الغــزالى من العوامل الأساسية فى محنة ابن رشد ، وأن فلسفة الغزالى ضد التنوير وسيظل الأمر كذلك ما ظل الغزالى مسيطرا علينا وأن ابن رشد غائب هنا . هذا كلام فحواه أننا اذا أردنا التقدم ينبغى أن « ندفن » الغزالى وأن نحارب كل آرائه التى تؤدى الى التخلف . والغزالى هنا ليس مقصودا لشخصه ولكنه رمز للاتجاه الدينى بوجه عام .

وهنا أيضا نقول هذا حكم جائر على الغزالى وهو اتهام للغزالى بما لم يكن سببا فيه . لقد صرح الغزالى فى غير موضع من كتبه أن الشرع والعقل لا غنى للواحد منهما عن الآخر « اعلم أن العقــل لن يهتدى الا بالشرع والشرع لم يتبين الا بالعقل . فالعقل كالأس والشرع كالبناء ولن يثبت بناء مالم يكن أس . فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان بل متحدان » وهذا عين ما قاله ابن رشد عن الصلة بين الحكمة والشريعة كما ذكرنا آنفا .

ويقول الغزالى فى عبارات لا تنقصها الثقة والايمان بما يقــول « الداعى الى محض التقليد مع عزل العقــل بالكلية جاهل والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسـنة مغـرور . فان العــلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية . والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء . فكذلك أمراض القلوب لا يمكن عــلاجها الا بالأدوية المستفادة من الشريعة .

الغزالى اذن ليس عدوا للعقل ومن ثم فليس عدوا للتنوير كما يزعم بعض الباحثين الذين يسعون الى اخراج نصوص الغزالى من سياقها العام وبترها ثم التشهير به وبها لامور أرى أنها بعيدة عن النظرة الموضوعية أو ان شئتم العقلانية . ان من كتب مقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة لا يمكن الا أن يكون فيلسوفا . ان هذين العملين صادران عن فيلسوف يعلى من شان العقل فكيف يقال أنه ضد التنوير وضد العقل .

وغنى عن البيان أن الغزالى لم يرفض ماعند الفلاسفة من رياضيات وحساب وهندسة ومنطق وطبيعة وان كان يشير الى هذه الاخيرة بقوله ان فيها مسائل لابد من نقدها . (لاحظ أن الغزالى لم يقل برفضها) .

وتطرق المقال الى الحديث عن مشكلة العلية حيث ذهب مراد وهبه الى أن ابن رشد قال بها بينما رفضت بعض المدارس هذه الفكرة وخاصة الاشاعرة ومعها الغزالى .

وهنا لابد من توضيح هذا الفهم الشائع عن العلية عند الأشاعرة لأننا نرى أن الاشاعرة لا تنفى الارتباط الضرورى بين العلة والمعلول فى علمنا الطبيعى هذا ولكنها حاربت فكرة الحتمية من منطلق :

(أ) المفهوم القديم لـ « الطبائع » فى الفلسفة اليونانية .

(ب) الله باعتباره كائنا مريدا وليس علة طبيعية .

(جـ) التاكيد على وجود « المعجزات » بحسبانها أمرا خارقا للعادة .

ان الاشاعرة لا تقول بالصدفة أو البخت ، بل انها ترى ان انتفاء العلية فى عالمنا هذا يعنى قطع الطريق على تاكيد الوجود الالهى واثباته من خلال هذا العالم لأن ثبات الكون وفق قوانينه يتضمن الكمال الالهى ويشهد بوجوده .

لكن ما هدفت اليه الأشاعرة وأرادت تاكيده هو أن سير الطبيعة والاطراد العلى بين الاشياء ليست أمورا واجبة بل هى ممكنة يجوز أن

تقع ويجوز أن لا تقع . أنها أمور « احتمالية » . ان استمرار العادة أمر لا يمكن أن تجعله ضروريا وثابتا . ان ما يحدث فى الطبيعة يحدث غالبا لكنه لا يحدث « دائما » فالاستثناء أمر موجود وقائم .

أضف الى ذلك أن « تراخى » المعلول عن العلة أمر سعت الى تاكيده الاشاعرة ، لأن الله ليس علة طبيعية للعالم ولكنه كائن مريد . أرادت الأشاعرة أن تؤكد أن العلية على المستوى الطبيعى أمر ثابت لكنها خارج نطاق العالم الطبيعى فان الحديث عن الارتباط بين العلة وبين المعلول يكون أمرا لابرهان عليه . اذ يصبح آنذاك قولا خطابيا . ان تطبيق مبدأ العلية خارج نطاق عالم الشهادة تطبيق خاطىء (وهذا ما أشار اليه فيما بعد كانت) . على ضوء ذلك ينبغى أن يفهم رأى الاشاعرة بضوح وجلاء . أما الزعم بأنها أنكرت العلية بالاطلاق ودون وضع رأيها فى سياقه العام وعلى ضوء مذهبها فأمر بعيد عن الصواب .

يبقى فى النهاية أن نؤكد على عدة ملاحظات أساسية :

١ - ان ابن رشد قد أفاد الى حد كبير من علماء الكلام وعلى رأسهم الأشاعرة لأن خصومة الفكر غير خصومة الأشخاص.خصومة الفكر لا تعنى البتة القطيعة المعرفية . لقد تأثر ابن رشد بالمتكلمين الى حد كبير . فمن يقرأ حديثه عن أدلة وجود الله وخاصة « العناية والاختراع » يجد أنه قد أخذهما من الغزالى والأشعرى على وجه التحديد وخاصة هذا الاخير فى كتابه « اللمع » .

٢ - لقد اعترض ابن رشد على ماذهبت اليه المعتزلة من أن الانسان خالق أفعاله على الحقيقة وكان رأيه فى هذا (وهو هنا يردد آراء الأشاعرة) أن المعتزلة بهذا تنكر المشيئة والقدرة الالهيتين وهنا نتساءل: أيهما أقرب الى العقل ، موقف ابن رشد أم موقف المعتزلة ؟

٣ - صرح ابن رشد بقوله : ان مشيئة الله اقتضت أن يكون فى أجناس الموجودات خلق ضالون بطباعهم . ذلك أن ابن رشد يرى أنه اذا كان الله قد خلق الضلال ، ومن ثم الشر ، فذلك من أجل الخير . ويرتبط بذلك ما صرح به فى « الكشف » من أن الأسباب الفاعلة ليست

من خلق الارادة البشرية وانما هى من خلق الله وفيها الخير الأعم ، أى أن كل خلق من ايمان وكفر من فعل الله . وهنا أيضا نتساءل : هل هذا الرأى يختلف عما قالت به الاشاعرة من أن الفعل خلق لله وكسب للانسان.

٤ ـ الأمر الرابع والذى ينبغى أن ننبه وننتبه اليه فى ان واحد هو أن الغربيين قد أخذوا من ابن رشد الجانب اليونانى الذى هو بضاعتهم الفكرية فى المقام الأول ، تاركين الفكر الدينى عند ابن رشد وجئنا نحن فتابعنا المستشرقين فيما أهتمـوا به وكان اهتمامات المستشرقين ينبغى أن تكون هى اهتماماتنا وكان مشاكل الغرب هى مشاكلنا وهذا ليس صحيحا . يدعم ذلك أن كتابات ابن رشد قد ترجمت كلها الى اللغـة اللاتينية اللهم الا «الكشف» و «فصل المقال» وبعض كتب الفقه . وأحسب أن هذه الكتب التى لم تترجم تعطى لنا ثراء كبيرا فى فهم ابن رشـد بحسبانه فيلسوفا اسلاميا فى المقام الأول وتجعله كشـارح لأرسطو فى المقام الثانى .

ومن هنا نفهم جيدا ما قاله « رينان » عن ابن رشد حينما ذكر أنه قد قدم موسوعة احتوت على خلاصة كل جهود السابقين عليه ولكنها خلت من كل أصالة .. « ومن هنا أيضا نؤكد ما ذكرته زينب الخضيرى من أن رينان « لم يهتم فى المقام الأول الا بتلك القضايا الرشدية التى تصور رينان أنها كانت ذات تأثير على الفـكر المسـيحى اليهودى (مشكلة العالم ـ النفس) وهمش قضية أساسية هى مشكلة علاقة الفلسفة بالدين.

٥ ـ أما الحديث عن أن فلسفة ابن رشد فلسفة برهانية ، بينما فلسفة المتكلمين جدلية ، أحيل القارىء الى بحث أحمد صبحى تحت عنوان « هل أحكام الفلسفة برهانية » . ويكفى أن أشير هنا الى أنه لايوجد تعريف واحد للفلسفة ويرتبط بذلك كل الارتباط وجود اتجاهات فلسفية متعددة ومتباينة . وهذا معناه أن كل رأى يقابل برأى آخر ، وأن كل حجة تقابلها حجة أخرى نافية . فالحديث عن خلود النفس وحدوثها ، والجبر والاختيار ، ووجود الله وحدوث العالم أو قدمه ... كلها قضايا عرضت على ضوء مجموعة من الأدلة نكاد تكون متكافئة سواء من جهة الاثبات أو النفى . ولذلك فان الأسس التى تستند اليها نظريات ابن رشد

- كما قال بحق أحمد صبحى - ليست قضايا أولية حتى يمكن موافقته على أن فلسفته برهانية • ولو كان الأمر كذلك لكانت آراء مخالفيه كلها سوفسطائية • أن مقدمات الجدل قضايا مشهورة ومقدمات نظرية ابن رشد احدى هذه المقدمات المشهورة ولا تتعداها الى الصدق المطلق •

فريال حسن خليفة : مدرس بتربية عين شمس

لقد أمضينا وقتا طويلا فى الكشف عن ايجابيات التراث • والآن ينبغى أن ننظر الى سلبيات التراث ، أى ننظر اليه بطريقة نقدية • ولكن هذه النظرة النقدية لا تعنى الاقلال من شأن التراث ، ولكنها تعنى معرفة الأسباب الحقيقية التى تؤدى الى تخلفنا وتزيد من تخلفنا • نحن اذن فى حاجة الى قراءة جديدة للتراث • وفى هـذه الندوة الاحظ أننا نناقش أبحاث الكتاب التذكارى عن ابن رشد كما كان الغـزالى يناقش الفلاسفة • فقد كفر الغزالى الفلاسفة مثل الكندى والفارابى ابن سـينا • ويقول عنهم أنهم قد فتنوا بأسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو • ونحن قد جئنا الى هذه الندوة ووقفنا موقف الغزالى • فأين الجدل الذى يمكن أن يفرز الجديد ؟ ان نفى الآخر بشكل مطلق لا يسمح بالجدل ولن يؤدى الى أية عملية تفاعلية •

مرفت بالى : أستاذ مساعد بآداب الزقازيق

أشار مراد وهبه الى بحثى وعنوانه « موقف ابن رشـد من مشكلة الخير والشر » وقال اننى لم أكن واضحة فى مسألة التأويل عند ابن رشد بدعوى قولى « استطاع ابن رشد أن يجمع بين الأدلة المتناقضة فى هذه المسألة (أى المنقول والمعقول) بواسطة التأويل » • ورأيى أن ابن رشد نهى عن التأويل بالنسبة للعامة ، ولكنه اضطر أن يستخدم التأويل مع الجمهور ليوضح لهم رأيه فى مشكلة الخير والشر التى عرضـها بطريقة ضمنية عن بحثه فى العلم الالهى والعناية الالهية والغائية فى الكون وفى السببية • وقد ذهب ابن رشد عند معالجته لمشكلة الخير والشر الى رأى مخالف لرأى الأشاعرة ، وانتقدهم معتمدا فى ذلك على التأويل •

وابن رشد وان كان قد حصر التأويل فى الخاصـــة وهم الفلاسفة الراسخون فى العلم فقد أباحه للجمهور ليعرفوا أن اللـــه هو الموصوف بالعدل وأنه خالق الخير والشر .

عاطف العـــراقى

أنا أتفق مع حسن الشافعى فى أننا كنا فى حاجة الى دراسة عن ابن رشد الفقيه على الرغم من أن عنوان الكتاب التذكارى « ابن رشد مفكرا عربيا ورائدا للاتجاه العقلى » وعلى الرغم من أننى أعتقد أن علم أصول الفقه لا يدخل فى الفلســـفة . ولكنى لا أستطيع أن أفرض على الآخرين وجهة نظرى . ومع ذلك فقد طلبت من بعض الأساتذة ولكنهم لم يستجيبوا . فماذا أفعل أكثر من ذلك ؟

أما قضية الفصل بين الدين والدولة فربما فهم رايى خطأ . فمن المحتمل أن نجد جذور هذه القضية عند ابن رشد ليس بالمعنى التقليدى ولكن بمعنى أن ابن رشد ينبهنا الى أننا قد نجد خـــلافا بين خصائص الفكر الدينى وخصائص الفكر الفلسفى .

وفيما يختص بالخلاف بينى وبين محمود قاسم فهو اختلاف فى وجهات النظر . فانا لا أستطيع أن أنسب الى ابن ارشد — وأنا معه أكثر من ثلاثين عاما — قوله بحدوث العالم ، وأكتب مؤلفا بعنوان « نظرية المعرفة عند ابن رشد » كله بيان موقف ابن رشـــد من الفيض . وفيما يختص بانكار فيصل بدير عون لمقولة الحقيقة المزدوجة عند ابن رشـد فانا لا أتفق معه . فابن رشد له آراء كثيرة فى هذا الموضوع . فقد قال أننى بالدين استطيع أن أثبت شيئا وبالفلسفة أستطيع أن أنفيه والعكس بالعــكس .

اما عن الزعم بان ابن رشد قد أفاد ممن سبقوه فيما يختص بمسالة التاويل فهذا مخالف للواقع ؟ لماذا ؟ لأن التاويل ، عند ابن رشد ، يقوم على أساس البرهان وهذا غير وارد عند الأشاعرة أو غيرهم .

مـــراد وهبيـه

يقول فؤاد زكريا ، فى بحثه ، « اننى فوجئت ببرنامج للنـــدوة يحمله الى البريد ، ويحدد لدراستنا فى هذه الندوة اشكاليتين ، الأولى هى : هل كان ابن رشد فيلسوفا عربيا أم اسلاميا أم كليهما معا ؟ والثانية: ما مدى عقلانية ابن رشد ؟ » . والأمر الواقع على ضد ما يقول . فهـو عضو فى لجنة الفلسفة والاجتماع . وقد كان حاضرا فى اجتماع اللجنة فى ١٩٩٣/١١/١٦ والتى عرضت فيها ورقة العمل الخاصة بالندوة ، والتى دارت على الاشكاليتين المذكورتين ، ولم يعترض عليها أحد من الحاضرين ومن بينهم فؤاد زكريا . ثم هو كان حاضرا فى اجتماع اللجنة فى ١٣/ ١٩٩٤/١ التى تقرر فيها عقد الندوة فى الفترة من ٤ ـ ٥ مايو ١٩٩٤ ، وأن يكون المشرف عليها مراد وهبـــه وأن يكون فؤاد زكريا من الأعضاء المعقبين على الكتاب التذكارى . فأين المفاجأة ؟

أما فيما يختص بقول فؤاد زكريا بان « القضية التى اتخـــذ منها مراد وهبه موضوعا لبحثه وهى « مفارقة ابن رشد » فلا تنطوى ، فى رأيى ، على أية مفارقة . فهو يرى (أى مراد وهبه) أن مفارقة ابن رشد تكمن فى أنه كان ممهـــدا للتنـــوير فى أوربا فى حين أنه كان موضع اضطهاد من أمته » . وفى رأى فؤاد زكريا أن هذه ليست مفارقة على الاطلاق لأن الممهدين للتنوير ، حتى فى الحضارة الأوربية ذاتها ، كانوا موضع اضطهاد . ومع ذلك فان أحدا من الباحثين لم يصف العلاقة بين دورهم التنويرى وبين اضطهادهم بأنها مفارقة » .

وهنا أود أن ألفت النظر الى أن العبارة التى اقتبسها فؤاد زكريا جاءت فى مفتتح بحثى . ولكننى أردفت قائلا « والغاية من هذا البحث التدليل على صحة هذه المفارقة ومحاولة تفسير أسبابها . تفصيل ذلك » . ومعنى ذلك أن العبارة المقتبسة هى نتيجة لمقدمات . وقولى « تفصيل ذلك » معناه أن البحث بعد ذلك سيتناول المقـــدمات التى رتبت عليها هذه النتيجة . وقد كان من المنطقى ، فى هـــذه الحالة ، أن يناقش

فؤاد زكريا هذه المقدمات ويدلل على انها لا تتسق مع النتيجة التى انتهيت اليها ٠ ولكنه لم يناقش شيئا من هذا القبيل ٠

أما اعتراض فيصل عون على قولى بأن « الغزالى كفر الفلاسفة بسبب تأثرهم بالفلسفة اليونانية » ، وانكاره لهذا القول بحجة أن الغزالى « اذا كان قد كفر بعض الفلاسفة فانه قد كفر هذا البعض لا بسبب تأثره بالفلسفة » فأنا أحيله الى أقوال الغزالى نفسه فى كتابيه « المنقذ من الضلال » و « تهافت الفلاسفة » ٠ يقول الغزالى فى الكتاب الأول تحت عنوان « أصناف الفلاسفة واتصاف كافتهم بالكفر » : رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبله من الالهيين ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، الا أنه استبقى أيضا من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزع منها ، فوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى وغيرهما » ٠ وفى الكتاب الثانى يقول الغزالى فى المقدمة وهو يتحدث عن الفلاسفة أن « مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وارسطاطاليس وأمثالهم وأطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم » ٠ فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم تجملوا باعتقاد الكفر » ٠

وفيما يختص باعتراض فيصل عون على قولى بأن ابن رشد قال بالعلية بينما رفضت بعض المدارس الكلامية هذه الفكرة وخاصة الأشاعرة ومعها الغزالى ، وقول فيصل عون بأن الأشاعرة لا تنفى الارتباط الضرورى بين العلة والمعلول٠٠٠ فانا أحيله على قراءة «تهافت التهافت» لابن رشد حيث يقول « وأما الفلاسفة فانهم اعتبروا الأسباب حتى انتهت الى الجرم السماوى ثم اعتبروا الأسباب المعقولة فافضى بهم الأمر الى موجود ليس بمحسوس هو علة ومبدأ للموجود المحسوس ٠٠ وأما الأشعرية فانهم جحدوا الأسباب المحسوسة ، أى لم يقولوا بكون بعضها أسبابا لبعض » ٠

وأحيله أيضا على كتاب « شرح السيد على المواقف » حيث يرى الأشعرى أن الممكنات كلها تستند الى الله ابتداء وأنه لا علاقة بين

الحوادث الا باجراء العادة • يعنى أن اللـه أجرى العادة بخلق بعضها عقيب بعض كالاحراق عقيب مماسة النار • فالمماسة لا توجد الاحراق . بل هو واقع بخلق اللـه له ، ويستطيع سبحانه أن يوجد مماسة بلا احراق أو العكس • واذا كان الفعل دائم الوقوع أو أكثريا قيل أنه فعل اللـه باجراء العادة ، واذا لم يتكرر أو تكرر قليلا فهو الخارق للعادة •

الفهـــرس

رقم الايداع ٣٥٦٠ / ١٩٩٥

I.S.B.N. 977-00-8783-1



الثمن ٤ جنيهات